المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين

١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ — ٥ شعبان سنة ١٣٥٤

المتفجرات الحربية

والبحث العلمي

يتأثر تطبيق المعارف العلمية على اساليب الحرب ، برأيين متناقضين . فقواد الجيوش يرغبون بوجه عام عن تغيير الوسائل والقواعد التي جرى عليها كبار القواد من قديم الزمان ، ويحسبون كل اقتراح بتعديلها او تغييرها ، اعتداء على حقوقهم المقدسة . يقابل هذا ، ان الاساليب الجديدة تمنح مستعمليها في الحروب امتيازاً كبيراً على خصومهم ، فلا يلبث هؤلاء الخصوم طويلاً حتى يعمدوا الى وسائل اعدائهم الجديدة . فقد كان الالمان في الحروب الكبرى اول من استعمل الغازات والاجرة السامة ، فاضطر الحلفاء ان يستعملوها مع اعتراضهم عليها وتنديدهم بها . وقد جنت الجيوش البريطانية بوجه خاص فائدة كبيرة من استعمال الدبابات ، مع ان القواد اهملوا ملاءمة الخطط العسكرية لاستعمال هذا السلاح الجديد . ولا ريب في ان عجز الالمان عن مجاراة الحلفاء في استعمال الدبابات كان له اثر غير يسير في خذلانهم . واذن فلا ينكر احد ان الحرب الكبرى كانت باعثاً قوياً على تشجيع البحث العلمي من ناحية تطبيقه على وسائل الحرب وأساليبها . فالطيران لولا حافز الحرب الكبرى وفائدته فيها لما بلغ الشأو العظيم من الارتقاء الذي بلغه في خلال اربع سنوات من تأجج نيرانها . يضاف الى هذا انهُ اصبح يتعذر على اي كان ان يعين الخط الفاصل بين الصناعات الحربية والصناعات غير الحربية . فغاز الكلور يصلح غازاً سامًّا في الحروب ومع انهُ غاز جليل الفائدة في تعقيم الماء وتطهير الجروح

من اعجب المكتشفات في التاريخ اكتشاف البارود والبندقية . ووجه العجب في اكتشاف البارود انهُ اكتشاف في العلم المطبق . وقد تمَّ في عصر كان العلم فيهِ لا يزال طفلاً مقمطاً في المهد. ولا بدَّ ان سبق البارود اكتشاف طريقة لتنقية ملح البارود (نترات البوتاسيوم) وهو المادة الاساسية فيه واكتشافها عمل كبير اذا اعتبرنا حالة العلم في ذلك العهد . والظاهر ان البارود صنع اولاً في الصين في اوائل القرن الثالث عشر ، ولكنهم استعملوه في الالعاب النارية فقط ، والراجح ان تأثير الالعاب في الحروب كان معنوياً لا مادياً ، اي ان رؤيتها كانت تبهر الاعداء وتخيفهم

اما البندقية فلم تخترع الاَّ في القرن الرابع عشر ، والراجح انها اخترعت في المانيا . ولكن قبل انقضاء حرب المئة سنة (١٣٣٧ — ١٤٥٣) بين فرنسا وانكلترا كان استعمالها قد اتسع عامًّا في غرب اوربا . وقد تقدم صنع البارود وصنع البندقيات جنباً الى جنب لانهُ كان من خرق الرأي ان يعمد صانع البارود الى صنع بارود قوي التفجُّر اذا كانت البندقيات لا تقوى على ان تتحمل ضغط انفجاره

اما استعمال البارود في نسف الصخور وشقّ المناجم والمحاجر فتأخر كثيراً . فلم يذكر استعمالهُ لهذا الغرض الاَّ في اوائل القرن السابع عشر في بلاد المجر . والظاهر انهُ لم يستعمل في انكلترا الاَّ سنة ١٦٨٩ وذلك في مناجم كورنول . وهذا مما يبعث على الدهشة لان الانكليز استعملوا البارود في نسف الحصون في حصار هوتفلور سنة ١٤١٥

ومقدار ما يستعمل من البارود في نسف المناجم والمحاجر يفوق المقادير المستعملة منهُ لجميع الاغراض الاخرى . بل ان صناعة الديناميت تعتمد في حياتها على ما يستعمل منهُ لهذا الغرض

فتاريخ البارود مثال يدلّ على تأثير الحرب في شقها الطريق الى استعمال مادة حربية لاغراض صناعية وتجارية

فاذا نظرنا في ما تمَّ في ميدان المتفجرات والمفرقعات في العصر الحديث ، رأينا أثر الحرب فيها واضحاً كلَّ الوضوح

***

اكتشف قطن البارود في سنة ١٨٤٥ — ١٨٤٦ وكان مكتشفهُ استاذاً للكيمياء في بال يدعى « شوينبيّن » ، فادرك في الحال قيمة هذه المادة من ناحية تفجّرها ، فاحتفظ بطريقة تركيبها سرًّا وهو يحاول ان يبيعهُ لحكومات مختلفة . فثبت انهُ اذا فجّر قطن البارود في بندقية musket فاقت قوة قذفهِ قوة مقدار اكبر جدًّا من البارود . فذهب الى انكلترا وجرّب تجارب مختلفة في مدرسة وولتش الحربية وفي بورتسموث على مرأى من رجال مجمع تقدم العلوم البريطاني . ثم سجّله في دائرة البانتته وأجّر حقوقهُ لمصنع جون هول وابنائهِ . ولكن في ١٤ يونيو سنة ١٨٤٧ حدث انفجار

هائل في المعمل دكّهُ من اساسهِ وقتل ٣٩ من رجالهِ . وحدث مثل هذا الانفجار في فرنسا . والظاهر ان مساعي بذلت في النمسا لصنع قطن البارود فكان مصيرها الفشل والتدمير . وظلّت الحال كذلك الى ان اكتشف الكيماوي البريطاني فردريك آبل — كيماوي وزارة الحربية البريطانية — طريقةً لجعلهِ مركّباً مستقرّاً وكان ذلك سنة ١٨٦٥

***

كانت التجارب الاولى بقطن البارود متجهة الى الحصول على مادة متفجّرة تصلح للاستعمال في الاسلحة النارية ، ولكن الباحثين كانوا مهروسين بوجوب استعمالها كما يستعمل البارود . فكانوا يمحنونهُ ويضغطونهُ ثم يحولونهُ الى حبيبات دقيقة . فكان مسحوقاً سريع الانفجار تصعب السيطرة عليهِ ، ولكنهم وجدوا انهُ يصلح لبنادقيات الرش

اما البارود الذي لا دخان لهُ فاستنبطهُ اولاً الكابتن شولتز احد ضباط المدفعية الالمانية سنة ١٨٦٥ . وفي سنة ١٨٦٨ اكتشف احد مساعدي آبل — وكان اسمهُ براون — ان قطن البارود الجاف يمكن ان يتفجر بالضغط ثم وجد ان لوحة من قطن البارود الرطب يمكن تفجيرها بضغط جزء جاف منها . فافضى هذا الاكتشاف الى استعمالهِ في الاعمال العسكرية لان حفظهُ رطباً حال دون تفجّرهِ اتفاقاً . ولا يزال الانكليز يستعملونهُ مع ان الالمان وبعض الدول على البرّ الاوربي احلّت محله مركب « الترينيتولوين » وهو اعنف تفجراً واسهل حفظاً

الاّ ان بارود شولتز لم يصنع من القطن بل من نترجة nitrating الياف الخشب ، والمادة في كلا القطن والخشب اساسها واحد وهو السلولوس ولكنهما تختلفان قليلاً . وباع حقوقهُ في النمسا لصنع قولكن فعكف عليهِ كيماويوهُ وحسّنوهُ بتقنيت بناء الخشب الذي بمعالجتهِ بمزيج من الكحول والايثر . وبعد ان مضى هذا الصنع في صنعهِ سنوات حظرت الحكومة النمسوية صنعهُ لانهُ يتعارض مع احتكارها لصنع البارود

ولما حاصر الالمان باريس في سنة ١٨٧٠ دعت الحكومة الكيماوي المشهور مارسلان برتلو لمساعدتها فعكف على دراسة المتفجرات ومقدار ما ينطلق من المواد المتفجرة ، من الحرارة والطاقة عند التفجر . واحتفظت الحكومة بخدماتهِ بعد انتهاء الحرب فأنشأ مصلحة حكومية غرضها البحث في جميع الاختراعات ووجوه التقدم الخاصة بهذا الموضوع وتنظيمها . ومعظم ما يعرف عن المتفجرات يرجع الى مباحثهِ . ومن أهم النتائج التي اسفرت عنها مباحث هذه المصلحة ، اكتشاف فييي Vieille في سنة ١٨٨٤ ان قطن البارود يمكن تحويلهُ الى جسم هلامي (جلاتيني) القوام بمعالجتهِ بمزيج من الايثر والكحول فيصبح معجوناً يمكن تحويلهُ الى حبوب او قند ، ثم يجفف المذيب الكحولي فتبقى مادة قرنية ، اذا اشعلت احترقت احتراقاً منتظماً في طبقات متوازية .

فدعيت هذه المادة « المتفجرة » مسحوق (B) . وحرف (B) هنا يرمز الى الاسم بولانجه Boulanger ولكن لا يعرف على وجه التحقيق هل المقصود بولانجه وزير الحربية حينئذٍ او الاناء الذي كان قطن البارود يمزج فيه بمحلول الايثر والكحول وكان شائعاً حينئذٍ بين المجازين . والخبّاز بالفرنسية « بولانجه » كذلك

وكذلك حلّت مشكلة تحويل قطن البارود الى بارود لا دخان له يصلح للاستعمال في البندقيات والمدافع . وهذا البارود الجديد يفضل البارود الاسود القديم من وجوه عديدة ، وما كاد يصنع حتى أفضى الى وجوه جديدة من التقدم في الاسلحة نفسها

وبعد بضع سنوات تمّ صنع اصناف البارود الهلامي . ففي سنة ١٨٨٨ استنبط الفرد نوبل (صاحب جوائز نوبل المشهورة) مادة البالستيت Ballistite بمزج مقدارين متساويين تقريباً من النتروسلولوس (حيث مقدار النتروجين فيه قليل) والنتروغليسرين . وفي السنة نفسها عيّنت الحكومة البريطانية لجنة مؤلفة من السر فردريك آبل (F. Abel) والسر جيمس ديور (J. Dewar) فأسفر بحثها عن اكتشاف مادة الكورديت Cordite وهي مزيج من النتروغليسرين وقطن البارود (حيث مقدار النتروجين فيه كبير) وهلام معدني (الفازلين) . وقد جرى الجيش البريطاني والاسطول البريطاني على استعمال هذه المادة من وقتها ، حالة ان الفرنسيين تصروا استعمالهم على مواد لا يدخل النتروغليسرين فيها وتعرف انواع بارودهم ببارود النتروسلولوس . وقد كتبت فصول كثيرة للمقابلة بين مزايا النوعين من دون الوصول الى نتيجة حاسمة في تفضيل الصنف الواحد على الآخر . اما الايطاليون فقد اخذوا بأنواع البارود التي يدخل النتروغليسرين في تركيبها

***

اما في المانيا فصنع دوتهوفر احد علماء مصنع روتويل البارود ، باروداً جديداً من النتروسلولوس بعد تحويله الى هلام بمعالجته بالايثر الحمضي Acetic ether ولكنهُ ظلّ متأثراً بطريقة صنع البارود القديم بخفته وضغطه وطحنه حبوباً صغيرة

الآن السلطات العسكرية الالمانية ادركت الفائدة العظيمة التي جنتها حكومة فرنسا من البحث العلمي المنتظم في هذا الموضوع فطلبوا الى باحث يدعى « ول » Will وكان اكبر مساعدي الكيماوي هرفن ان ينشىء للحكومة الالمانية مصلحة للقيام بهذا النوع من البحث . وعنيت صناعة الاسلحة والذخيرة الحربية في الوقت نفسه بانشاء فرع للمباحث العلمية في هذا الموضوع ، يدعى (سنترستال) . وكذلك نشأ في المانيا مقرّان لهذا البحث الواحد يقوم على تأييد الحكومة وبنفقاتها والآخر على تأييد مصانع السلاح وبنفقاتها ، فكان لكليهما اكبر شأن في ترقية صناعة الاسلحة والذخيرة الحربية في المانيا

وكانت المانيا تختلف عن فرنسا وانكلترا ، في ان الدولة لم تكن تملك معامل للذخيرة ، فكانت المعامل الخاصة في المانيا مطلقة من القيود حرّة في تجربة التجارب لانشاء اصناف جديدة من المواد المفرقعة بناء على ما تقضي به مباحث العلماء المختصين . وقد دلّت مباحثهم وتجاربهم على ان لكل من البارود المصنوع من النتروسلولوس والبارود المصنوع من النتروغليسرين دائرة خاصة يمتاز فيها. فبارود النتروسلولوس اصلح في رأيهم للبنادق ومدافع الميدان المتوسطة ، حالة ان بارود النتروغليسرين اصلح للمدافع الضخمة

فلما نشبت حرب افريقية الجنوبية تبين ان استعمال البارود الجديد يجري باطن المدافع بسرعة فعيلت لجنة برآسة لورد رالیه للبحث في هذه المشكلة وفي مشكلات اخرى تتعلق بالمواد الحربية المتفجرة . فحاولت اللجنة ان تنشئ معامل السلاح والذخيرة في انكلترا ان تنشىء مركزاً للبحث العلمي على طريقة « السنترستال » الالماني ولما عجزت عن ذلك ، انشأت فرعاً للبحث العلمي في مدرسة وولتش الحربية ، فكان لمباحثه شأن عظيم في الحرب الكبرى وبرجه خاص في صناعة الكورديت

***

ومن الاكتشافات التي تستوقف النظر في السنترستال الالماني ، اكتشاف تين Thiene في سنة ١٩٠٦ لما يعرف باسم « سنترالیت » واسمه العلمي «دايفنيل-دايثيل-يوريا» . فاذا اضيف مقدار يسير من هذا المركّب الى مسحوق النتروغليسرين وأندمج المركبان احدهما بالآخر بضغط مدّخر سامية ، تحوّل المزيج النتروسلولوس الى هلام من دون استعمال محلول طيّار لذلك الغرض . فيستغنى كذلك عن عملية التجفيف بعد نخل ويونر ذلك الايثر والكحول او ثمن الاسترون. ولا يخفى ان قلة الاسترون في انكلترا في اثناء الحرب كادت تعرقل عمل الكورديت . ولولا قلة الغليسرين في المانيا في خلال الحرب الكبرى لكان في وسعها ان تصنع مقادير كبيرة من المتفجرات باستعمال السنترالیت. يضاف الى ذلك ان اضافة السنترالیت تجعل البارود اكثر استقراراً في تركيبه الكيماوي لانهُ يتحد بالمواد المنحلة وهي اذا تركت حرّة تقصر عمر البارود

وما لمسناه من الفرق في تحضير اصناف البارود واستعمالها ، نلمسهُ كذلك في المتفجرات العنيفة (ويرمز اليها بالحرفين H. E. اي High Explosives) التي تحشى بها القنابل . على ان هناك فرقاً واحداً في الحالين ، وهو ان الاقوال مختلفة في تفضيل بارود على آخر حالة انه لا اختلاف هناك في تعيين افضل المتفجرات لحشو القنابل

كان البارود يستعمل في حشو القنابل الى اواخر القرن التاسع عشر مع ان سبريغل Spregel كان قد بين سنة ١٨٧٣ ان الحامض البكريك يمكن تفجيره بكبّاس يحتوي على احد املاح الحامض الفولمينيك . ولكن هذا الاكتشاف لم يسفر عن نتيجة عملية حتى بين توربين Turpin سنة ١٨٨٥

اسباب تفضيله على غيره لحشر القنابل لانهُ عنيف فعّال وفي الوقت نفسه لا يتأثر بالحرارة ولا بالاصطدام اذا قيس بالمواد المتفجرة الاخرى . يضاف الى ذلك ان تحضيره لا يقتضي نفقة كبيرة لانهُ يُحضّر بتفجة الفينول (الحامض الكربوليك) وهو احدى المواد التي يمكن استخراجها من قطران الفحم الحجري . ولذلك عمدت الحكومة الفرنسية الى استعماله باسم ملينيت وتبعتها حكومات الدول الاخرى . فشرع الالمان يستعملونهُ سنة ١٨٨٨ وحذا الانكليز حذوهم حوالي ذلك العهد ولكنهم اطلقوا عليه اسم لديت Lyddite نسبة الى بلدٍ Lydd حيث تجري مناورات المدفعية البريطانية

ولكن الالمان لم يرضوا عنهُ كل الرضا . لان درجة ذوبانه عالية فيصعب تذويبه وافراغه في الشكل المطلوب . ثم انهُ يأكل الرصاص وغيره من المواد فتتكوّن مركبات خطرة . ثم وجدوا ان حوادث تفجره اتفاقاً اكثر مما كان يظن . فواصلوا البحث في معهديهم فأسفر سنة ١٩٠٤ عن استعمال مركب الترينيتروتين ويرمز اليه عادة بثلاثة حروف T. N. T. وهو يفضل الحامض البكريك من جميع هذه النواحي . ومع ان انكلترا كانت طلقة بتقدُّم هذه الابحاث في المانيا ظلّت لا توليها العناية الوافية حتى اثبتت الحرب الكبرى اذ ظهر ان مقدار الفينول اللازم لاعداد « اللديت » غير كافٍ فشرع قسم الابحاث في اعداد المعدات لصنع مادة T. N. T. وكانت السرعة التي حوّلت بها المصانع لهذا الغرض سبباً في حدوث انفجارات عديدة أودت بحياة كثيرين . بل ان بعض القنابل المحشوة بمادة T. N. T. المحضّرة على عجل في انكلترا كانت تنفجر في الميدان وهي في اسطوانات المدافع قبل اطلاقها فتمزقها وتقتل بعض المدفعيين . حالة ان شيئاً من هذا لم يقع في المانيا . وسببهُ ان الالمان قضوا سنوات يبحثون ويجرّبون حتى اتقنوا معرفة جميع التفصيلات في هذه الصناعة الخطرة ، ولكن الانكليز لم يقبلوا على هذا البحث الاّ على عجل وبدافع الحاجة فاضطروا ان يقدموا على صناعة هذه المركّبات الخطرة قبل ان يتقنوا جميع اساليبها

ومع ذلك ظلّ الاسطول البريطاني محافظاً على استعمال الحامض البكريك في قنابله والى استعماله يعزى غرق طائفة من البوارج والطرادات البريطانية في معركة جتلند ، لانها كانت عند اصابتها ببعض قنابل العدو تنفجر قنابلها المحشوة باللديت من تلقاء نفسها فتغرق بمن فيها

اما المدرعات الالمانية فكانت لا تغرق الاّ اذا دمّرتها قنابل الانكليز ، ومنها ما عطل عن العمل ومع ذلك لم يغرق

***

ليس الغرض من هذا المقال ان يكون بحثاً وافياً في المواد الحربية المتفجرة ، ولكن الغرض اقامة الدليل على الصلة بين البحث العلمي وتقدم صناعة المتفجرات ، بضرب بعض الامثال . ولعلّ القارىء يجد ابلغ مثل على هذه الصلة في الفصل التالي وهو ترجمة المحاضرة النفيسة التي القاها الدكتور شوشه بك في موضوع الغازات السامة وفعلها الفسيولوجي ووسائل مكافحتها والوقاية منها

الغازات الحربية

اصنافها وخواصها وفعلها والوقاية منها

للدكتور علي ترفيق شوشريك
مدير معامل الصحة

ان امم الارض قاطبة معنية اشد العناية الآن باعداد العدة للحرب الكيمائية . ولما كانت الحكومات تلتزم الكتمان الشديد فمن النادر ان يعرف ما تمّ تعلمائها في هذا الصدد . وقوانين الجيش في مختلف البلاد تحظر معالجة موضوع الدفاع ضد الغازات السامة معالجة وافية

وقد بذلت مساعٍ كثيرة ، رسمية وخاصة ، لاخراج المدن والمراكز الحافلة بالسكان من المناطق المعرضة للهجوم الجوي ، ولكن لا يحتمل ان تقنع الامم المتحاربة بقصر الهجوم الجوي على القواعد الحربية ، بل المرجح ان تستعمل الطائرات في المستقبل لمهاجمة القواعد الحربية ولتدمير بلاد العدو بوجه عام كذلك . والغالب ان الجانب الثاني من عمل الطائرات الحربية لا يكون عسكريًّا بالمعنى الدقيق بل يقصد به الى اضعاف القوة المعنوية في الشعب من الناحيتين النفسية والسياسية فيستولي عليه شعور الضعف واليأس ويشدو مثقلاً بكابوس الحرب شديد الرغبة عن مواصلتها

وكذلك تصبح الدول غير شاكية السلاح ، غنيمة باردة للدول المدججة به التي تحركها المطامع العسكرية فلا تتورّع عن مد نطاق الحرب حتى تشمل الشعوب الآمنة ، ومصير معرضة لخطر الهجوم من الجو عليها ، فيجب على كل من يعنيه الامر ان يعد المعدات اللازمة لحماية شعب آمن اذا قضي الامر وامتدت الحرب الى هذه البلاد

وسائل الهجوم الجوي

قد تكون القنابر التي تلقيها الطائرات من الجو قنابر محشوّة بمواد متفجرة او بمواد ملتهبة او بالغازات . اما القنابر المحشوة بالمواد المتفجرة والمواد الملتهبة فلا نستوقف نظرنا الآن لانها خارجة عن نطاق موضوعنا . وأما استعمال القنابر المحشوّة بالغازات ففي وسع صانعيها حشوها بغازات سامّة . وقد حلّ محلّها من عهد قريب رشّ المواد السامّة من طائرات صنعت خاصّة لذلك

والغازات الحربية لا تزال على ما كانت عليه تقريباً عند خاتمة الحرب الكبرى ، على الرغم مما يقال مخالفاً لذلك . اما ما اذيع عن اهوال الغازات الحربية الجديدة وتأثيرها المخيف فقد دحضتهُ اللجنة المختلطة غير الدائمة التي عينتها جامعة الامم لتحديد السلاح . فقد قالت في تقريرها الخاص بالغازات

ما يلي : «وليس هنالك ما يسوّغ القول بانهُ في الامكان اختراع غازات حربية جديدة تفوق من ناحية فعلها العسكري هي الغازات المعروفة الآن»

ومما يجب ان نوجه اليهِ النظر رأي فريق كبير من الاختصاصيين في جميع الامم ومؤدّاهُ ان القنابر المحشوّة بالمواد المتفجرة والملتهبة ، اذا اطلقت من الجوّ سواء اطلقت مفردة ام في كميات كبيرة ، اشدُّ فعلاً من قنابر الغاز ، على شرط ان يكون جمهور الشعب قد درّب على اساليب الوقاية من قنابر الغاز واندر بنوع القنابر التي تلقى عليهِ . يضاف الى هذا أن التدمير الذي تحدثهُ قنابر الغاز اقلُّ من التدمير الذي تحدثهُ القنابل المتفجرة والملتهبة

والغازات المستعملة في الحرب قليلة . فمنها الكلور اولاً والفوسجين ثانياً . وهما غازان بالمعنى العلمي الدقيق . واما المواد الكيمائية الاخرى المستعملة في الحرب ، فسائلةٌ وهي ترشُّ في قطيرات دقيقة جدًّا ، فتبدو في الجوّ كأنها رشاش او غبارٌ او غيمٌ

خواص المواد الكيمائية الحربية

ولا يستعمل من المواد الكيمائية الحربية الاَّ ما كان منها متصفاً بالخواص الآتية : —

اولاً — يجب ان يكون مقدار صغير من المادة الكيمائية كافياً للحصول على نتيجة كبيرة وقد استنبط العلاَّمة هابر نسبة رياضية دقيقة بين المقدار المستعمل من الغاز الحربي او السائل الحربي وتأثيره وهي م × و = ف حيث الحرف م يرمز الى المقدار والحرف و يرمز الى الوقت والحرف ف الى الفعل او التأثير . ومقدار الغاز يحسب بالملترامات في سنتمتر مكعب من الغاز الذي يستنشقهُ الانسان . والوقت يشير الى المدة التي تنقضي بين بدء الاستنشاق وظهور الفعل الضار في الانسان . فاذا ضربت الكمية الاولى في الكمية الثانية كان الحاصل دليلاً على فعل الغاز الضار

ولذلك لا يمكن ان يحسب اول اكسيد الكربون (Co) غازاً حربيًّا ، مع انهُ بحدّ نفسهِ غاز سامّ ولكن لا يمكن تركيزهُ تركيزاً كافياً حتى يكفي مقدار صغير منهُ لاحداث تأثيرهِ السام . وما يقال عن غاز اول اكسيد الكربون يصحُّ كذلك على الغاز الايدروسيانيك

ثانياً — يجب ان يكون الغاز السام في حالتهِ البخارية اثقل من الهواء ، اي ان ثقلهُ النوعي يجب ان يكون اكبر من ثقل الهواء النوعي لئلاَّ يرتفع في الهواء فلا يؤثر في الذين اطلق عليهم على سطح الارض . ولذلك نجد جميع المواد الكيمائية الحربية اثقل من الهواء

ثالثاً — يجب ان يكون طيّاراً حتى يمكن انتشارهُ في الهواء رشاشاً او بخاراً او غباراً او غيماً

رابعاً — يجب ان يكون مستقرَّ التركيب فلا تؤثر فيهِ عناصر الهواء وبوجه خاص اكسجين الهواء وبخارهُ المائي

خامساً — يجب ان يكون مستقرَّ التركيب كذلك لا يمكن حلُّهُ بمواد تطلق عليهِ في سبيل الوقاية منهُ

كلمات واقية من العار السام في الحرب

سادساً — من الخواص التي يجب ان ينظر اليها عند اختيار غاز حربي مدى انحلاله في الماء. فالمواد التي يسهل انحلالها في الماء لا تصلح في الغالب لهذا الغرض لان المواد التي لا تنحل في الماء مطلقاً او تنحل انحلالاً يسيراً. لان المواد الكيمائية الحربية التي تنحل في الماء يغسلها ماء المطر فتضيع جزافاً

تقسيم الغازات الحربية

يمكن تقسيم الغازات الحربية وفقاً لاعتبارات مختلفة . ولكن التقسيم الذي يهمنا بوجه خاص في كلامنا الآن قائم على تأثيرها في الجسم اي تقسيمها من الناحية الطبية . وعلى ذلك يمكن تقسيم الغازات السامة اربعة اقسام

اولاً — الغازات التي تؤثر في اغشية العين وتعرف باسم (غازات الدمع)

ثانياً — الغازات التي تؤثر في القسم الاعلى من جهاز التنفس اي الانف والحلق وتعرف باسم (طائفة الصليب[1] الازرق)

ثالثاً — الغازات التي تؤثر في اغشية الرئتين وتعرف باسم (طائفة الصليب الاخضر)

رابعاً — الغازات التي تؤثر في الجلد وتعرف باسم (طائفة الصليب الاصفر)

غازات الدمع

اهم الغازات التي في هذه الطائفة غاز « بروم اسيتون » Brom—aceton وزيليليبروميد Xylylbromide . والغازات الدمعية مما يسهل نشره بالرش وهي تهيج اغشية العين ولو استعملت في محلولات ضعيفة . فتحمل العيون على سكب الدموع وتحدث العطاس . وهي تلتصق بالملابس وتظل لاصقة بها حتى بعد تطييرها وتعقيمها . وبقاء آثار يسيرة منها لاصقة بالملابس بعد التطهير والتعقيم يسبب التدميع والعطاس

فاذا استعملت هذه الغازات في محلولات ضعيفة كانت تأثيرها مؤقتاً . فالتهاب اغشية العين يزول بعد مدة قصيرة على اثر استعمال المكمدات الباردة. اما اذا استعملت في محلولات قوية فانها تحدث عسر التنفس وسعالاً تشنجياً والتهاباً في الشعب الرئوية

ويمكن الاستدلال على وجود هذه الغازات في الهواء برائحتها اللاذعة المهيجة لغشاء الانف والعين . وقد استعملت في اميركا في تسكين هياج الجماهير والقبض على المجرمين . بل قيل ان غير بنك واحد في اميركا ثبت في جدران ساحته انابيب تنطلق منها هذه الغازات عند الحاجة اليها اي عند هجوم فريق من اللصوص او الاشقياء عليه

اما اسعاف المتأثر بها فيتم بوضعه اولاً في الهواء الطلق وتغيير الملابس واستعمال المكمدات الباردة والراحة ثم معالجة الالتهاب بالوسائل الطبية المعروفة

(١) استعمل الالمان علامة الصليب بألوان مختلفة على القنابر الغازية تسهيلا لمعرفتها فعرفت باسم الصليب الازرق او الاخضر او الاصفر

طائفة الصليب الازرق

تشتمل هذه الطائفة من الغازات على مواد عضوية هي خليط الايدروكربونات الورنيخية والكلوريدات ، وهي تحدث تهيجاً عنيفاً ولكنها تؤثر في الغالب في الانف والحلق وقد تسبب التهاباً

وتشتمل على الاكثر رشاشاً دقيقاً فتراه كأنه غيمة بيضاء او رمادية اللون . وهي اثقل من الهواء طبعاً وتبقى مدة طويلة في المنطقة التي رش فيها

ومن خواصها العجيبة انها تخترق الكمامات العادية الواقية من الغاز ولذلك أطلق عليها اسم « مخترقة الكمامات » . ويمكن الحيلولة بينها وبين الكمامات باستعمال معشاة من الورق النشاف توضع أمام الكمامة . ومقدرتها على اختراق الكمامات العادية حملت بعضهم على استعمالها أولاً فيضطر الجندي الذي اخترقت هذه الغازات كمامته ان يرفعها عن وجهه وعندئذٍ تطلق عليه الغازات الخانقة من طائفة الصليب الاخضر . وفعلها مفصل في الفقرة التالية . اما اعراض الاصابة بغازات الصليب الازرق واساليب معالجتها فتشابه اعراض الاصابة بالغازات الدمعية واساليب معالجتها

طائفة الصليب الاخضر

﴿ الفوسجين ﴾ اهم غازات هذه الطائفة هي الفوسجين والبرستوف والكلوروبكرين . فالفوسجين ($COCl_2$) غاز من اشد الغازات فعلاً سامًّا . وهو غاز لا لون له ، قوي الرائحة تشبه رائحته رائحة التبن الفاسد ، اثقل من الهواء ثلاثة اضعاف . فاذا اضيف الى الماء انحلّ الى ثاني اكسيد الكربون والحامض الايدروكلوريك . ويفوق في شدة فعله السام الحامض الايدروسيانيك ثلاثة اضعاف . فالمتر المكعب من الهواء اذا كان يحتوي على ٥٠ ملغراماً من هذا الغاز كان خطراً على مستنشقه . فاذا استنشق منهُ ما مقداره ثلاثة ملغرامات ونصف ملغرام (٣٫٥ ملغرام) في الدقيقة كان مميتاً . ومما يجب ان يذكر ان الهواء المحتوي على مقادير يسيرة من الفوسجين لا يسبب اعراضاً ما عند استنشاقه ، ولكن أثره يتجمع فيصبح مميتاً اذا طال زمن الاستنشاق . فاذا رشّ المكان الذي يكثر فيه هذا الغاز بالماء انشادري انحل وزال . واذا كان هناك مقدار يسير منهُ في الهواء كانت رائحة الهواء تشبه رائحة التفاح الفاسد . لذلك كان الجنود يدعونهُ في خلال الحرب غاز التفاح . وهو يختلف مما تقدم من الغازات المهيجة في انهُ يؤثر في اجزاء الرئتين العميقة

فهو يهيج أدقّ أطراف جدران الرئتين عند انحلاله بامتزاجه بالماء الذي في مخاريطهما وتحوّله بعد الانحلال الى حامض ايدروكلوريك وثاني أكسيد الكربون . وقد يؤثر تأثيراً مباشراً في جدران الرئتين . واذا كان مقداره في الهواء يسيراً (من ٥ ملغرامات الى ١٠ ملغرامات في المتر المكعب) لا يهيج الافعال العكسية الدفاعية في الجسم مثل السعال والاختلاج الشعبي وكذلك يمكن أن يستنشقه المرء وهو لا يدري

يحدث استنشاق هذا الغاز زيفاً في الانسجة المخاطية وانتفاخاً شديداً (اوذيما) في الرئتين ، ويتلف نخاريب الرئتين ، فيختنق مستنشقهُ في سائلهِ الدموي . ويتضخم حجم الرئتين حتى تبلغا من اربعة اضعاف الى ستة اضعاف حجمهما السويّ وتدموان كلتاهما مضغوطتان بين الاضلاع . ولما كان الارتشاح من الرئتين كثيراً ، فالدم يتركز بسرعة فيسفر ذلك عن وجود تخثر دموي محرّ الى السرة في جميع الاوعية الدموية وفي القلب كذلك . ثم ان جدران النخاريب تصبح مما يسهل على الدم اختراقهُ فتمتلىء بالسائل الدموي وكذلك تظهر اعراض الاوذيما الحادة . ومما يشار اليهِ في هذا الصدد ان حالة الاوذيما تتكوّن ببطء اولاً ثم بعد بضع ساعات تظهر اعراض الاختناق الشديد

واذن هناك فترة حضانة بين استنشاق الغاز وظهور الاعراض . ففي حالات التسمّم الخفيفة لا تبدو عليها علامات خطرة خلال بضع ساعات ، بل قد تبدو انها تتحسن تحسناً يسيراً . ثم ان القلب والدورة الدموية يتأثران عند ما يبدأ الدم ، يتركز ، يحتلك بجدران الاوعية الدموية الكبيرة

فالحالات « الخفيفة » تظهر فيها علامات التهيج في جهاز التنفس وعلامات التهاب شعبي منتشر يعقبهُ الشفاء السريع

والحالات « المعتدلة » يحدثُ انتفاخ الرئتين (اوذيما) تدريجاً فيها

وفي الحالات « الشديدة » يزداد عسر التنفّس خلال بعض ساعات بعد استنشاق الغاز وتحدث الوفاة بالاختناق عقب ألم شديد . فما أن يبقى المصاب فاقد الوعي أو يصاب بحالة هبوط سببها ضعف الدورة الدموية . ففي الحالات الاولى يكون لون الجلد مزرقّاً وفي حالة خور القلب يصبح شاحباً . أما النطاق فيكون رغوة مصفارّة ، أو حمراء الى السمرة . وقد تفضي نوبة السعال الى تمزيق نسج الرئة وقد يحدث حينئذٍ اما انتفاخ البلورا واما انتفاخ عام

ويعقب التسمّم الشديد بعد بضعة ايام الاصابة بالنزلة الرئوية الشعبية (برونكو نومونيا) ومن مضاعفات هذه الحالة انتفاخ الوجه والاصابع وتوقف في الشبكية والانسجة المخاطية ويقترن مصير المريض النهائي بحالة قلبهِ ونبضهِ . ويجب ان ينعم المصابون بالراحة التامة لاجتناب كل جهد عضلي فيقلّ بذلك مقدار ما تستهلكهُ الاعضاء من الاكسجين

والعادة ان المصابين الذين يتحملون الثلاثة الايام الاولى من الاصابة يمكن عقد الرجاء على شفائهم . فمن المتعذر ان يعرف الطبيب ، عند حصول التسمّم ، مبلغ شدة الاصابة او خفّتها ، ولا يمكنهُ ان يعين الانذار النهائي . فقد لا تبدو على المصاب اعراض خطرة في فترة الحضانة ، بل قد تظهر عليهِ احياناً بوادر التحسّن ، ولكن الوفاة قد تقع احياناً بعد انقضاء بضع ساعات على ذلك بسبب انتفاخ (اوذيما) الرئتين . وانما يمكن ان يقال ان اكثر الوفيات تحدث في الايام الثلاثة الاولى وتقل بعد اليوم الخامس ويقوى الامل في الشفاء بعد اليوم الثامن

ومن اخطر ما يتعرض لهُ المصاب من بدو التسمّم الى حين الشفاء ، الجهد العضلي ، وذلك

بانتفاخ الرئتين وتركز الدم وضعف القلب . فالمصابون بالغاز السام لا يسمح لهم بالتحرك ويجب ان ينقلوا نقلاً رفيقاً من مكان الى مكان ، لان بذل الجهد العضلي يفضي في الغالب الى الوفاة بخور القلب وبعض المصابين يموتون بعد اليوم الثامن مصابين بالتهاب الشعب والربو ويظل القلب متعباً مدة طويلة

﴿ البرستوف ﴾ ويعرف هذا الغاز باسم « سوربالیت » بالفرنسية وباسم داي فوسجين بالانكليزية . وهو شبيه بالفوسجين الا انهُ اشدُّ منهُ فعلاً فتقلهُ ضعف ثقل الفوسجين . بل هو سائل لا لون لهُ ودرجة غليانه ١٢٨ درجة مئوية . يرش على الارض والملابس فيلبث لا يتطرق اليه الاضمحلال بضع ساعات . اما الابخرة المتصاعدة منهُ فتهيج جهاز التنفس اكثر مما يهيجها غاز الفوسجين . ثم ينحلُّ في الرئتين كما ينحل الغاز السابق

﴿ العلاج من الاصابة بالغازين ﴾ وتقتضي معالجة المصابين بهما نقلهم حالاً من منطقة الغاز الى الهواء الطلق وتغيير ملابسهم بل يجب اخراج الملابس من حجرة المصاب بسرعة لان الغاز يلصق بها مدة طويلة — واجتناب كل جهد عضلي — واستعمال غسول خفيف مثل محلول الحامض البوريك أو محلول ملحي فسيولوجي ومنغنات البوتاس (واحد في الالف) لتخفيف التهاب الاغشية المخاطية — وغسل العينين بمحلول سلفات الزنك (قوة نصف في المائة) او دهنها بمرهم كربونات الصوديوم (قوة ٢ في المائة) لتخفيف تهيجها — استعمال محلول خفيف من الآروين لمعالجة تقور العينين من الضوء — واستنشاق بخار الماء لتخفيف تهيج جهاز التنفس — وحقن حقن تحت الجلد (٤٠٠ - ٨٠٠ سنتغرام من محلول كلوريد الكلسيوم قوة واحد في المائة وغلوكونات الكلسيوم) لتخفيف انتفاخ (اوذيما) الرئتين — الامتناع عن التنفس الصناعي في حالة انتفاخ الرئتين لما تقتضيه حركاته من الجهد العضلي ويجوز استنشاق الاكسجين الصرف — فاذا تعسر التنفس يحقن تحت الجلد بحقن لوبيلين (٠٫٠٠٥ الى ٠٫٠١) او بحقن كافور

اما حالة تركز الدم قبل حصول انتفاخ الرئتين فالقصد خير علاج لها . واما يجب على القاصد ان يلاحظ ان الدم يكون كثيفاً في الغالب وانهُ يتخثر في الاوردة . ففي هذه الحالة يمكن فصد الشرايين على ان تربط حالاً بعد ذلك . ويمكن فصد مقدار من الدم يختلف من ٥٠٠ سنتمتر مكعب الى ٧٠٠ او الى الف . ويفضل ان لا يكون الفصد مرة واحدة بل مراراً حتى يسع القلب ان يلائم عمله لقلة الدم الناجمة عن الفصد . ولتخفيف ما يحسره المصاب من الدم يسوق المفصود على دفعات ، بمحلول ملحي فسيولوجي . ويستعمل لتخفيف تركيز الدم حقن نطّارة ويعمد الى شرب المياه المعدنية القلوية

ويستعمل لتنبيه القلب الكاردیوزول او الكافين او الديجيتالين او حقن وريدية من الغلوكوس بمقدار ٣٠ الى ٥٠ سنتمتراً مكعباً بقوة ١٥ الى ٢٠ في المائة . ولما كانت المواد المخدرة وخاصة المورفين ضارة فيحسن استعمال قطرات من الفاليريانا والبرومور . ومما يستعمل لتخفيف الظمإ اللبن الساخن والشاي والقهوة وعصارة الفواكه والمياه المعدنية ويفضل استعمال الغذاء المائع

طائفة الصليب الاصفر

اهم الغازات في هذه الطائفة غاز اسحة الكبريتي «دايكلورو داي ايثل سلفيد» ويعرف باسم غاز الخردل وهو غاز هفاف كالماء يذوب في الكحول والايثر وينحل انحلالاً متدرجاً في مقادير كبيرة من الماء له رائحة مثل رائحة الخردل الخفيفة او البصل واذا كانت مقادير صغيرة منهُ منتشرة في مقادير كبيرة من الهواء تعذر تبينهُ برائحته . وقد استعمل في الحرب الكبرى للدفاع بنشره بواسطة قنابر تحتوي عليه في مناطق واسعة . وهو غاز بطيء الفعل ولكنهُ شديده . فما ينتشر منهُ في الهواء القاتم يظل فعالاً مدة طويلة واذا كانت الحرارة معتدلة احتفظ بفعله اياماً بل واسابيع . ولكن ضوء الشمس و المطر يضعفان من فعله كثيراً

وهو يحلُّ بفعل محلول كلورو الجير او المستحلبات التي تصنع منهُ وعوامل الاكسدة كما يحلُّ بغسله بالماء . فالمناطق التي يبث فيها هذا الغاز يجب ان تغسل بالماء ، او يفضل الماء في هذا الصدد وهو محلول كلورو الجير . واذا اذيب الكلورامين في الماء كان المحلول مما يزيل فعلهُ السام

وانما يجب ان يراعى في استعمال محلول كلورو الجير ان لا يتصل بالغاز في حالته المركزة لان مقادير كبيرة من الغاز تبخر قبل انحلالها بالاكسدة وهذه الابخرة تحرق الجلد وجهاز التنفس

وموضع الخطر في استعمال هذا الغاز مقدرتهُ على تخلُّل الملابس جميعاً وحتى الجلد . فالذين تقضي اعمالهم بالسير في مناطق بث فيها هذا الغاز يجب ان يرتدوا الملابس التي تحول دون تخلله اياها

ومن اسهل ما يكون ان يتعوَّد عصب الشمّ رائحة غاز الخردل ، فيفقد من تعوّد عصبهُ هذه الرائحة ان الغاز قد زال من المنطقة التي يكون فيها ، مع ان الغاز يكون باقياً فيها . وقد تقضي ساعات بعد استنشاق الغاز ، قبل ان تظهر اعراض التأثر به ولذلك يعسر على مستنشقه ان يعيّن الساعة التي استنشقهُ فيها اولاً . وخير وسيلة لدرء خطره عند اجتياز منطقة بثَّ فيها ان تغطى الاحذية بدثار مبلول بمحلول الكلورامين . اما الملابس التي لصق بها هذا الغاز فيجب الاّ تعلّق في البيوت والمشافي بحيث تنتشر منها دقائق الغاز في الحجر . والغالب ان تتحرك غيمة غاز الخردل في جهة هبوب الرياح على سطح الارض ولكنها قد يستقرُّ جانب منها في حفرة او خندق ، او تتسلل في الادوار التي تحت الارض من المباني كما يفعل غاز الكلور وغاز ثاني اكسيد الكربون

﴿ فعلهُ ﴾ هذا الغاز لا يؤثر في المرء على الفور ، فلا يحسُّ من يتعرَّض لهُ بحكة او حرق في جلده ، ولكنهُ يشغل الجلد في خلال ثلث ساعة . وانما يتوقف اختراقهُ للجلد على بنائه التشريحي فجلد العنق والابط والذراع والفخذ اسرع تأثراً به من جلد الكفين والقدمين . ويظهر على الجلد عند تأثره بهذا الغاز بقع حمر لا تلبث ان تتخذ شكل النفاطات الناشئة عن الحرق بالنار . واذا استنشق المرء ١٢ ملغراماً منهُ في الدقيقة افضى ذلك الى تلف الرئتين . ولا يخفى ان المصاب بغاز الفوسجين يضيق نفسهُ فيحاول عبثاً استنشاق نسمة من الهواء ، واما المصاب باحد غازات الصليب الاصفر

فيجلس سائراً محدقاً في الفضاء . وتثار السيال بهذا الغاز فتتقيحان وتتلف ملتحمتها وقرنيتها، بل تتلف العين كلها. واذا كان مقدار الغاز في متر مكعب من الهواء يختلف من عشر سنتمتر مكعب الى خمس سنتمتر مكعب اثر في الاغشية المخاطية فاذا بلغ المقدار من سنتمتر واحد الى ثلاثة سنتمترات مكعبة في متر مكعب من الهواء كان استنشاق هذا الهواء مميتاً

ويشبه غاز الخردل في فعله غازاً آخر يدعى « لويسيت » وهو خليط من كلورو ڤينيل ارسين دي كلوريد وداي كلور دي ڤينيل ارسين كلوريد وزايٌ كلور ڤي ڤينيل ارسين كلوريد

﴿ علاجهُ ﴾ افضل طريقة لعلاج تأكل الجلد استعمال كلورور الجير ويمكن دهن الجلد به جافاً او ممجوناً ، فبه يستطاع منع تلف الجلد في الدقائق الاولى من اتصال الغاز به . وبعد انقضاء عشر دقائق لا يبقى الا احمرار خفيف او تقاطات خفيفة . واذا كان مقدار غاز الخردل الراسب على الجلد كبيراً وجب ان يغسل ويمسح بكلورو الجير حالاً واذا كان الجلد قد اصيب بالتهاب فيجب ان يستعمل كلورور الجير في غسل الجلد المجاور للبقعة الملتهبة لوقايته . وبعد ذلك يجب ان يغسل مدة ساعة او ساعتين بمحلول داكين او محلول كارل . اما الاول (اي محلول داكين) فتؤلف من ٢٠ غراماً من كلورور الجير و١٤ غراماً من كربونات الصوديوم في لتر من الماء تُخضُّ خضّاً عنيفاً مدة نصف ساعة . ثم يرشح المحلول ويعدَّل باضافة اربعة غرامات من الحامض البوريك . واما المحلول الثاني (اي محلول كارل) فتؤلف من ١٢ غراماً ونصف غرام من كلورور الجير تسحق جيداً مع قليل من الماء حتى تصبح معجوناً ثم يضاف اليه الماء رويداً رويداً حتى يصبح حجم الكل لتراً واحداً . وبعد الخضّ جيداً يضاف ٥ر١٢ غرام من الحامض البوريك ويخضُّ الكل جيداً ثم يرشح المحلول . وجميع المحلولات التي يدخل كلورور الجير في تركيبها لا يمكن حفظها مدة طويلة فيجب ان تحضَّر قبيل الاستعمال . واذا تعذر الحصول على كلورور الجير فيمكن استعمال بومنغنات البوتاسيوم (قوة نصف في المائة) او كلورامين (قوة ١ في المائة) او ماء الصابون عند الاضطرار . ثم يفرك الجلد بالغازلين وعلى الطبيب ان يلبس قفازاً من الجلد في خلال قيامه بهذه الاسعافات . اما المناشف التي يستعملها فيجب اما ان تحرق واما ان توضع في محلول كلورو الجير . والملابس التي تخللها غاز الخردل يجب ان تغسل حالاً بمحلول كلورور الجير في ماء صابون ساخن

وقد تشق التقاطات على ان تتخذ الاحتياطات المانعة لتفسخ في شقها، ولكن جلدها يجب ألاَّ يقطع لان الجلد افضل واقٍ للنسج الحساسة التي تحتهُ . ويجب كذلك الامتناع عن تصفيد التقاطات والقروح المشقوقة بضمادات وطية . او رشها بمسحوق ما . ويمكن تجفيف جرح رطب بالهواء الساخن ثم يغطى بالغازلين ويشار باستعمال الغازلين مع مادة مخدّرة في حالة الالتهابات والتقاطات الالمة

اما العيون الملتهبة فيجب ان تغسل مرة كل ساعتين او ثلاث ساعات بمحلول بيكربونات الصودا ، ثم يبلى ذلك دهنها بمرهم فلوري . ثم ان دهن العينين بالغازلين يفيد في وقاية العين من فعل غاز

الخردل ويعالج تأكل الاغشية المخاطية في مسالك الانف والحلق باستنشاق البخار الصاعد من ابريق النزلة الشعبية ويمكن تخفيف السعال باستعمال الكودايين والبوكودايين

وسائل الدفاع

تختلف المشكلات التي يتعرض لها جمهور الشعب وتتحتم عليه معالجتها ، في الوقاية من قنابر الغاز ، عن المشكلات التي يتعرض لها الجيش . وقد اجمعت الامم الاوربية بعد الحرب الكبرى على ان الدفاع العسكري وحده لا يكفي لحماية الشعب الآمن ووقايته الصحية . فاتخذت الوسائل اللازمة لتنظيم هذا الدفاع . فيقسم الشعب الى طائفتين احداهما صغيرة وتعرف بالطائفة الفعالة active وهي تشتمل على رجال البوليس والمطافىء وجمعيات الاسعاف والاطباء وعمال النقل . اما الطائفة الاخرى فتشتمل على بقية الشعب . فالطائفة الاولى تجري على قواعد معينة اهمها تحذير الجمهور من هجوم جوي منتظر وانباؤه به عند وقوعه وعند انتهائه والمحافظة على النظام والامن العام ونشر غشاء من الضباب للتخفي عن المهاجمين لتراسعاف المصابين بالعناية الطبية اللازمة وتنظيف الشوارع والمباني باستعمال المواد الكيمائية التي تغسلها او تحللها

ولا ريب في ان فائدة كبيرة عامة تجنى من تنفيذ هذه الوسائل تنفيذاً دقيقاً ولكنها قلما تجدي في وقاية افراد الطائفة الاولى وكل منهم بمثابة الجندي العامل يكون دائماً في مواقع تخطر . ففي حالة هؤلاء تستعمل الكمامات . والكمامات المعروفة باسم S تنطوي على احدث وجوه التقدم في هذه الصناعة . وهي تشبه الكمامة العادية في انها تصنع من ثلاثة حجوم ولها جسم خاص لزفر النفس فلا تدخل رطوبة الهواء المزفور المرشح الذي داخل الكمامة ومن المعروف ان الرطوبة تقصر مدة فائدته . اما رجال فرق اطفاء النار ورجال الاسعاف فيجب ان يجهزوا بأجهزة تغذيهم بالاكسجين عند الحاجة . ولما كانوا يتعرضون لغازات الصليب الاصفر وجب ان يرتدوا ملابس وقفازات واحذية تقي من فعل هذه الغازات . واستعمال مقادير كبيرة من الماء وكلورور الجير في تنظيف المناطق التي غشيها الغاز يعرضهم لتطرق بعض دقائق الماء ومقادير غير يسيرة من كلورور الجير الى مرشحات التنفس داخل الكمامات ، فتبطل فائدتها . فيقترح في هذه الحالة استعمال مرشح واق لتغطية مرشح التنفس . وهذا المرشح يصنع عادة من مادة يخترقها الهواء دون الماء

اما جمهور الشعب فمن المتعذر ان يجهز بالكمامات فالثمن كبير والكمامات لا فائدة منها إلا اذا استعملت كما يجب ان تستعمل وحفظت سليمة من العطب بفحصها فحصاً دورياً وهذا الفحص لا يمكن ان يتم الا في حجرات صنعت خاصة لذلك . والغالب ان الافراد من الشعب لن يعنى بجميع هذا عناية وافية . يضاف الى هذا ان العناية الفردية غير لازمة اذا اتبع الجمهور الترسيمات اللازمة للوقاية الاجتماعية . فاذا أعدت ملاجىء لوقاية طوائف كبيرة من الشعب من تأثير الغازات اصبحت العناية الفردية غير ضرورية فالذين يتفق وجودهم في الشوارع او الميادين او صحون الدور عند وقوع الهجوم الجوي يتعرضون

خطر قنابر الغاز التي قد تنفجر في مقربة منهم . فشعار هؤلاء يجب ان يكون الفرار من الميادين الى اقرب دار واذا دخلوها يجب ألاّ يشربوا من الماء واذا تعذر عليهم وجود دار على مقربة منهم فليبحثوا عن اي منخفض في الارض ويستلقوا فيه ووجوههم الى سطحها . اما اذا كانوا خارج المنطقة التي تلقى فيها القنابر فليبقوا حيث هم . فحاولتهم مساعدة غيرهم عبث علاوة على تعرضهم لاعظم المخاطر

ثم ان الطبقات الارضية والتي تحت الارض (البدروم) افضل الاماكن في الدور المختلفة للالتجاء اليها . وقد ثبت في خلال الحرب الكبرى ان هذه الطبقات تقي من تركيز غازي في الهواء يفوق اي تركيز عرف حينئذٍ . اما الطبقات العليا فعرضة للهدم بوقوع القنابر المحشوة بالمواد المتفجرة عليها . يضاف الى هذا ان الطبقات التي تحت سطح الارض لا نوافذ لها في العالب او لها نوافذ قليلة وصغيرة فيمكن سدّها سدًّا محكماً . ويفضل ان يكون امام « البدروم » دهليز يحول دون دخول الغاز مباشرة الى الحجر حيث يتجمع اللاجئون ، ويستعمل لتنظيف المتأخرين في دخول « البدروم » مما يكون قد علق بهم من الغاز

اما عدد الذين يسعهم اللجوء الى «بدروم» ما فيختلف باختلاف سعته . وقد حسب الحاسبون ان المرء يحتاج الى متر مكعب من الهواء في الساعة . فاذا اضطرّ ان يبقى في مكان ما ثلاث ساعات استنفد الاكسجين من ثلاثة امتار مكعبة من الهواء . وانما يجب ان يلاحظ انهُ رغبةً في المحافظة دون استنفاد مقدار زائد من اكسجين الهواء يجب ان يمنع التدخين والانارة باشعال شموع او ما اليها والحركة

ومما يستعمل لسد هذه الحجر وجعلها منيعة على الغاز وضع نوعين من الخشب على كل نافذة بينها اكياس من الرمل . واذا كانت الالواح مصنوعة من قدد فيجب ان تسد الفواصل بين القدد بقدد ضيقة توضع فوق الفواصل . ويحسن ان يغطى الفرح الداخلي بورق يلصق عليهِ بالغراء . اما الابواب فتسد سدًّا محكماً بتغطيتها بقدد من القماش المغموس في زيت او اية مادة عازلة او قد يستعمل ورق مطوي عدة طيات . وتسدّ ثقوب المفاتيح بالقطن . واذا لم يكن بين البدروم ودهليزه باب ، وجب فصل احدهما عن الآخر بملاءات كثيفة مغموسة في محلول الصودا . ويجب ان تكون الملاءات طويلة حتى تدلى على الارض حيث تثبت عليها باثقال منعاً لتسرب الغاز من الفاصل بين طرفها الادنى وارض الحجرة

واذا انقضت مدّة وفريق من الناس محصور في ملجإ من هذا القبيل ، يقل الاكسجين في هواء الغرفة ويكثر ثاني اكسيد الكربون فيجدد الهواء باستعمال خراطيش صوديوم بيروكسيد فتثبت ثاني اكسيد الكربون وبخار الماء وتطلق الاكسجين او باستعمال قنابر الاكسجين لزيادة اكسجين الهواء وفي الوقت نفسهِ تبيض بالجير الجدران فيثبت ثاني اكسيد الكربون

ويجب ان تكون هذه الملاجيء مجهزة ببطريات جافة للاضاءة او مصابيح كهربائية من نوع مصابيح الجيب ويتحتم الامتناع عن انارة الشموع او اي ضوء ذي لهب . ويجب ان تكون فيها جميع وسائل الراحة والغذاء والاسعاف الاولي ومكافحة النيران والماء للشرب والغسل

الشاعر والمرأة

للشاعر شلي محمود ظ

قصيدة اخرى ، من ملحمة البعث الاول ، التي نشرنا احدى قصائدها في «قنطف برنيو» وفي هذه القصيدة حديث شاعر الى صواحباتها عن فن الرجل وكن يقرأن لها شيئاً من اشعار شاعر ضمها اتهام امرأة بافتراء فتاة شاب ، كان يرى فيها روحاً للجمال والفن ، فأصبح يراها كلها مادة من جسد يشتهى :

كفانا فقد جُنَّ هذا الفتى وجاوز حدَّ الكلام المباحْ
لكاد نُحسُّ اختلاجَ النجوم ونسمعُ مضطرباً في الرياحْ
مريضُ الغريزةِ فتّاكُها حَبَتْهُ الطبيعةُ أمضى سلاحْ
سَقَتْهُ الشياطينُ يحمومَها فجَّ الرحيقَ وذمَّ الصلاحْ

***

تأثَّم بالفنِّ حتى غوى وما الفنُّ بالمرأةِ الخاطئه
هو الدمُ واللحمُ ما يشتهي هو الخمرُ والمتعةُ الطارئه
وكم في الرجالِ سُعارُ الوحوش اذا لمسوا الجنَّةَ الدافئه !
فلا تذكري فنَّ هذا الفتى بل الحيوانيةَ الخاسئه !

***

رأى جسمَ حوَّاءَ فاشتاقهُ فهاجتْ به النزوةُ المسكره
حوى جسمَها فاشتهى روحَها فثارتْ بعزَّةِ مستكبره
تَمنَّعْ روحُها وتأبَّتْ عليهِ فجرَّدَ في وجهها خنجره
وهمَّ بها فالتوى قصده فأرسل صيحتهُ المنكره

ألم ينسم الخلدَ من عطرها؟ ألم يعبد الحسنَ في زهرها؟
ألم يسرق الفنُّ من سحرها؟ ألم يقبس النورَ من فجرها؟
شغفتُ غلّةَ الفنِّ حتى ارتوى وإنْ دنّس الفنُّ من طهرها
وهامتْ على ظمإٍ روحُها وكم ملأوا الكأسَ من خمرها!

***

على مذبح الحبِّ من قلبها سراجٌ يسبّحُ مَنْ لألأهْ
منارٌ يجوبُ الدجى لمحُه فيلقى الضليلُ به مرفأهْ
يبثُّ الحرارةَ بردَ الشتاءِ ويُلهبُ شعلتَه المطفأهْ
وتمشي الحياةُ على نوره وما نورهُ غيرُ عينِ امرأهْ!!

***

لهيبٌ إذا الروحُ طافتْ به تضاعفتِ الروحُ في نارهِ
يطيق القويُّ لقى جمره ويعشو الضعيف بأنوارهِ
رَمَتْ فيه حواءُ آثامها فسالتْ كذائبِ أحجارهِ
لقد قرّبتْ جسداً ماريا وقلباً يضنُّ بأسرارهِ

***

أمن صنعةِ الله هذا الجمال؟ نعم ومن الفنِّ هذا المثالْ!
على معرض مرميِّ الثوى رمى أشعتُهُ والظلالْ
تماثيلُ من جسدٍ فاتنٍ تأبّى على شهواتِ الرجالْ
حبتهُ الطبيعةُ اسرارَها ولاق الحقيقةَ فيهِ الخيالْ!

تحدب الفضاء

وماذا عنى به النسبيون ؟

ولماذا لا تسلم له هندسة اقليدس ؟

بقلم نفولا الحداد

اذا قلت للعامي : الفضاء منحنٍ ، او متحدّب ، حسبحذا القول هذياناً او كلاماً فارغاً ، كفراغ الفضاء ، لا معنى له . واذا قلت للمثقف ثقافة عامة وهو يفهم ان اي حجم من الفضاء هو ذو ثلاثة ابعاد متعامدة وذو وجهات ستّ يستهجنهُ ويسأل : ماذا تعني بتحدب الفضاء ؟ فاذا قلت له : اعني به ان الخط المستقيم الذي عرّفهُ اقليدس بانهُ اقصر مسافة بين نقطتين لا وجود له في الفضاء لان كل خط في الفضاء منحنٍ بالنسبة الى هذا الخط المستقيم الذي عرّفه اقليدس ، وبالتالي الفضاء متحدّب — اذا قلت لهُ هذا القول عدّهُ سخافة واجابك انهُ قول غير منطقي لانهُ مناقض بعضهُ لبعض ، فضلاً عن انهُ مناقض للاختبار ، لاني اذا اديت بحبل طويل مطلق فيهِ جسم ثقيل من مكان عالٍ رأيت الحبل خطًّا مستقيماً . واذا تصورت حبلاً مثله مدلى من الارض الى الشمس التي هي مركز الثقل في النظام الشمسي تصورت هذا الحبل الذي طوله ٩٣ مليون ميل خطًّا مستقيماً . لا استطيع ان اتصوره منحنياً . واذا كان الخط المستقيم طبيعة للفضاء فلا استطيع ان اتصور الفضاء منحنياً . ولا افهم كيف يكون متحدباً

هكذا يكون جواب الشخص المثقف على اقوالك الآنفة . فكيف بهِ اذا زدت عليها قولك : ان الخط المستقيم يلتقي طرفاهُ ، خلافاً لقول اقليدس البديهي ان الخط المستقيم مهما مددتهُ فلن يلتقي طرفاه . وكيف بهِ اذا قلت له ان الخطين المتوازيين يلتقيان ، خلافاً لقول اقليدوس البديهي انهما مهما امتدا فلن يلتقيا البتة . وكيف بهِ اذا قلت له ايضاً ان زوايا المثلث لا تساوي زاويتين قائمتين وان زوايا المربع والمكعب ليست زوايا قائمة ، خلافاً لما هو مسلم في هندسة اقليدس التي لا تزال هندسة المدارس والعلوم والفنون العصرية — كل ذلك يعدهُ هذا المثقف سخافة وخرافة

***

لذلك يجب ان نتحقق ماذا عنى اينشتين واتباعه من علماء النسبية بتحدب الفضاء واستحالة وجود خطوط مستقيمة فيهِ بالمعنى الاقليدومي

ما هو الفضاء

ليس في قالة اولئك النوابغ ما يستفاد منهُ تلك المزاعم المناقضة للمعقول . ولا يمكن ان يلقوا الكلام على عواهنه . وانما كتاب الجرائد والمجلات الاجنبية عزوا تلك المزاعم الى نظرية النسبية على أن ظهورها ونفخوا بها كثيراً من غير ان يفسروا المراد بها لانهم لم يدرسوا النسبية ولا تفهَّموها. وهذا كتَّاب العربية حذوهم . فترجمت قضايا النسبية ، ومنها « تحدب الفضاء » سخافة مستهجنة . والحق يقال انهم بكتابتهم عن تلك القضايا بلا تفهم ولا تفسير مسخوا نظرية النسبية مسخاً اجرامياً

والسبب الاساسي في هذا المسخ هو عدم تفسير الكتَّاب الاجانب لفظ « الفضاء » وترجمة كتَّاب العربية كلامهم بلا تفسير ايضاً . فاولئك ذكروا الفضاء بلفظ Space وحسبوه فضاء خالياً Emptiness . وكذلك فهمهُ كتَّاب العربية فترجموه بلفظ « فضاء » وهو لفظ ابلغ لمعنى ذاك اللفظ لانهُ يُشعرنا بمعنى الفراغ المطلق

ولكن علماء العصر ، ولاسيما علماء النسبية ، عنوا بلفظ Space الحيز الذي تشغله المادة من اجرام واجواء Fields جاذبية وكهرطيسية واثير (اذا اقتضى الامر ان يذكروا الاثير) فهو حيز مملوء لا فارغ . واما اذا اقتضى الامر ان يذكروا الفراغ المطلق قالوا Emptiness . وهم يعنون بهِ الفضاء المجهول الطبيعة الذي يحيط بالحيز الكوني المادي ، وما هو الاَّ العدم

لذلك يعد استعمال لفظ « فضاء » في لغتنا العربية لرحاب الكون المادي خطأً لان هذه الرحاب ليست خالية بل هي ملأى من انواع التشعُّع او التموج المختلفة : جاذبية وكهرطيسية . والاصوب استعمال لفظ « حيز » تحاشياً لايهام معنى الفراغ المطلق او الخلاء . فالمقصود بالتحدب الذي نحن بصددهِ هو تحدب الحيز وانحناء كل خط حركة فيه على الاطلاق . ولذلك لا يستقيم تفسير هذا التحدب الاَّ بما عنيناه بلفظ الحيز المشغول بالمادة والمحدود بها . فكيف يكون هذا التحدب

اذا اردت بالخط رسم الخط الوهمي التصوري فالخط المستقيم الاقليدوسي (اقصر مسافة بين نقطتين) مجرد . يمكن وجوده بالتصور وبالفعل ايضاً في المسافات القصيرة وبالرسم على الورق . واما اذا اريد بهِ الخط الذي يسلكه الجسم المتحرك فلا يكون الاَّ منحنياً . لان العلم العملي مختص بالحركة التي هي حاصل اندماج القوة بالمادة . وخط الحركة لا يكون مستقيماً بالمعنى الاقليدوسي بل هو منحن . اي ان خط الحركة الفعلي لا يطابق الخط الهندسي الاقليدوسي . ولا يمكن ان يطابقه . لماذا ؟

ان سرَّ هذا الانحناء هو في مصدر القوة المنتجة كل حركة في الوجود . وما هو مصدر القوة ؟ — الجاذبية !

منَّة الجاذبية سبب الانحناء لكل خط حركة في كل جو جاذبي على الاطلاق . ولانهُ لا وجود للحركة خارج الجو الجاذبي اذ لا جسم متحرك هناك فلا وجود لخط حركة مستقيم البتة . اذن لابد من تفسير معنى الجاذبية ولو بايجاز كلي تمهيداً لتفسير كيفية هذا الانحناء

ما هي الجاذبية

رأى فاراداي كما رأى غيره ان جذب المغنطيس للحديد عن بعد ، من غير واسطة تُحس بينهما تنقل القوة من الواحد الى الآخر ، امر غير معقول . لذلك فرض وجود شيء ينشره المغنطيس حوله الى جميع الجهات بالتساوي متّجاه الجو المغنطيسي Magnetic field وهذا الجو يفعل في الحديد فيدفعهُ الى جهة المغنطيس . فليس المغنطيس نفسه فاعلاً مباشرةً في الحديد بل جوه الذي هو محدثهُ يفعل في هذا . ولكن ما هو هذا الجو ؟ لم يستطع احد تحقيقه . وانما استعين بفرض الاثير في تفسيره باعتبار انهُ تموجات اثيرية يحدثها المغنطيس في الاثير . وسواء كان هذا التفسير سديداً او خطاء فنظرية فاراداي تعني ان الحيز الذي بين المغنطيس والحديد او بالاحرى الحيز المحيط بالمغنطيس ليس فراغاً مطلقاً كما نرى ونظن بل هو جو صالح لانتقال القوة (او بالاحرى حركتها) فيهِ

لم يقتصر فاراداي على النظريات النفسية بل اعتمد على الامتحانات العملية فاكتشف «الامواج» الكهربطيسية Electro Magnetic وسمى الحيز الذي تنتشر فيهِ الجو الكهربطيسي » . وجاء بعده مكسويل وآخرون واشتغلوا عملياً في تحقيق خواص هذا الجو . ثم جاء نجاح اختراع اللاسلكي برهاناً دامغاً على نظرية فاراداي وفوزاً باهراً لها جعل مجد فاراداي لامعاً

ولما ثبتت هذه النظرية اطلقها العلماء وفي مقدمتهم اينشتين على كل ظاهرة من ظواهر الجذب ، ولا سيما على « الجاذبية العامة» بين اجرام السماء . فقالوا ان الاجرام تنشر حولها جواً جاذبياً الى جميع الجهات تساوي حدّته Intensity حاصل ضرب كتلتها المتجاذبة بعضها ببعض وتنقص كمربع البعد بينها . وهذا الجو هو الذي تنتقل بهِ قوة الجذب من جرم الى آخر بالتباطل . فالشمس مثلاً لا تجذب بنفسها السيارات اليها وانما جوها الجاذبي الذي تنشره حولها هو الذي يدفع سياراتها اليها كما ان جو السيارات بنوبته يجذب الشمس اليها . فاذا سلّم ان كل جو جاذبي : مغنطيسي او كهربطيسي ، انما هو امواج اثيرية يصدرها الجسم فلا بدع ان تكون « الجاذبية العامة » امواجاً اثيرية ايضاً يحدثها الجرم او الجسم ، وان ذلك الجو الجاذبي بحر اثيري متموج

وحاصل القول ان الرهاب التي بين الاجرام ليست فراغات مطلقة بل هي بحار امواج (اثيرية عند من يعتقد بنظرية الاثير او مجهولة الحقيقة عند من ينكر النظرية) وهي « الجو الجاذبي » بعينهِ . فاذا قلنا ان الفضاء ، او بالاحرى ، الحيز متحدب عنينا ان هذا الجو متحدب بمعنى ان الخطوط التي ترحل فيها القوة على متن تلك الامواج بين الجاذب والمجذوب منحنية لا مستقيمة . وهو ما نُعنى بشرحهِ فيما يلي . ومنهُ نعلم الفرق بين جاذبية نيوتن وجاذبية اينشتين :—

جاذبية نيوتن وجاذبية اينشتين

لم يراع نيوتن الزمن الذي تستغرقه القوة « الجاذبة » في رحيلها من المركز (الشمس مثلاً)

الى الجسم الواقع تحت تأثيرها (كالارض) ولذلك صاغ ناموس الجاذبية باعتبار ان القوة تبلغ الى الارض حالما تصدر من الشمس بلا استغراق مدة البتة . واما اينشتين فراعى الزمن لان ناموس سرعة النور وناموس النسبية ايضاً اللذين لاغبار عليهما يقضيان حتماً بأنهُ يستحيل ان توجد في الكون سرعة اسرع من سرعة النور . ولذلك مهما كانت القوة الراحلة من المركز الى المحيط سريعة يستحيل ان تكون اسرع من النور . حَسْبُها ان تكون كسرعة النور . (وفي رأي هذا الضعيف انها كسرعة النور تماماً بناءً على عقيدة ان الجاذبية كالنور تموّج اثيري . ولتموج الاثير سرعة واحدة في كل مكان وزمان . لان سرعة التموج تتوقف على الكثافة كما شرحناه في المقال السابق في المقتطف تحت عنوان «حجم ذرة الاثير» . ولان الاثير اكثف مادة في الكون . فتموجه اسرع تموج . او هو منتهى السرعة . وهو السرعة المطلقة Absolute Velocity)

والتموج الاثيري هذا هو الوسيلة لنقل القوة Energy او الطاقة محمولة على متنه . فلنتبع موجة جاذبية واحدة فقط صادرة من الشمس (في الرسم) ومنتشرة في الحيز الجاذبي (الفضاء بعرف العامة) الى جميع الجهات بسرعة واحدة . ولنفرض ان الدوائر التي في الرسم تمثل المواقع المتوالية لتلك الموجة المفردة في خمس برهات متساوية . ولنفرض ان الارض (ض) انتقلت في اثناء هذه البرهات الخمس من ض الى ضَ متنقلة على النقط الخمس بَ جَ دَ هَ نَ ذات المسافات المتساوية في نفس البرهات الخمس التي تنقلت فيها القوة (الموجة) على الترتيب نفسه من ١ — ٥

لو كانت الارض خلواً من حركة استمرارية Inertial البتة ، اي لو كانت ساكنة لكان حكمها كحكم الحجر الساقط من علوٍّ الى الارض . اي انها تسقط في الخط المستقيم من ض الى ش . ولكن لان لها قوة استمرارية تعادل قوة الجاذبية وتعامدها تسير في فلك مستدير (تقريباً) بفعل القوتين المتعامدتين كما هو معلوم

فلما ان القوة الصادرة من المركز تنتشر الى جميع الجهات فلا يصيب الجسم الواقع تحت تأثيرها كالارض الاَّ جزءاً منها كما هو ظاهر ومفهوم بالبداهة . ويسمى الخط الذي يسير فيهِ هذا الجزء خط القوة Radius Vector لانهُ يجتاز خطاً من الشمس الى الارض (فلا هو مسطح ولا هو مجسم) فلما كانت الارض عند ض كان جزء القوة يتجه اليها في الخط ش ض . ولكن الارض لم تبق في مكانها فتتلوجزء القوة هذا بل سارت في سبيلها . فما بلغ جزء القوة الى ب في البرهة الاولى حيث صارت الموجة في الدائرة الثانية حتى كانت الارض قد برحت الى بَ واصبحت تقابل خط قوة آخر أي صار جزء قوة آخر يتجه اليها في الخط ش ض . ولكن القوة لم تدركها هناك فما بلغت الى جَ في البرهة الثانية حيث صارت الموجة في الموقع الثالث حتى كانت الارض قد رحلت الى جَ واصبحت تجاه جزء آخر من القوة قادم اليها في الخط ش جَ . ولكنه لم يدركها ايضاً هناك لانها سبقت الى د واصبحت تجاه جزء آخر من القوة في خط ش دَ . وهكذا لم تبلغها القوة عند هَ لان الموجة لا تزال في الدائرة

الرابطة والارض تجاوزت اتجاه خط القوة ش هَ . فما ادركها من القوة الا الجزء المتجه في الخط ش ضَ فالتقيا عند ضَ

ترى مما تقدم ان جزء القوة الذي ادركها في الموجة التي صدرت من الشمس حين صدرت عند ش هو غير الجزء الذي كان متجهاً اليها حين كانت عند ض . فاذا وصلت بين نقط «خطوط القوة» التي تعاقبت في الاتجاه اليها في البرهات الخمس المتوالية (ش ج د هـ ض) رأيت الخط الذي يمر في هذا النقط منحنياً . اذن القوة التي رحلت من الشمس الى الارض لم تسر اليها في خط مستقيم — لا في الخط ش ض ولا في الخط المتوسط ش ضَ — بل رحلت اليها في الخط المنحني ش ض ج د هـ ضَ وذلك أن تقول بعبارة اخرى : منذ صدرت من ش القوة ، أو الجزء منها المقابل للارض من جعل هذا الجزء يميل في سيره منحنياً كما تراه

يستفاد مما تقدم ان ناموس نيوتن يعتبر القوة راحلة الى الارض في خط مستقيم في الحال (بلا استغراق وقت) قبل أن ترحل الارض من موقعها ض . ولكن ناموس اينشطين يعتبر ان القوة استغرقت وقتاً في الرحيل الى الارض السائرة في طريقها . فاضطرت (أي القوة) أن تسير في ذلك الخط المنحني لكي تدركها

فالخط المستقيم ش ض الذي اعتبره نيوتن «خط القوة» يمثل مسافة البعد بين الشمس والأرض مجرداً من الزمن . لذلك صاغ ناموسه باعتبار ان الراديوس (نصف القطر) ش ض مسافة البعد بين المتجاذبين الشمس والارض وان نسبة قوة الجذب بينهما كنسبة مقلوب مربع البعد بينهما $\frac{١}{(ش ض)^٢}$

وأما الخط المنحني الذي اعتبره اينشطين طريقاً للقوة في رحيلها من الشمس الى الارض فلا يمثل مسافة البعد فقط بل يمثل المسافة والزمن جميعاً . لأن الراديوس يمثل الزمن الذي استغرقته القوة في مسافته ، والخط ض ضَ يمثل الزمن الذي استغرقته الارض في مسيرها من ض الى ضَ . ومجموع مربعي الراديوس وهذا الخط يساوي مربع الخط المنحني ش ضَ كما هو معلوم . فاذاً هذا الخط المنحني يمثل الزمن الذي استغرقته القوة في سيرها من ش الى ضَ واستغرقته الارض في مسيرها من ض الى ضَ حيث التقت بالقوة . لذلك صحح اينشطين ناموس الجاذبية بأن حسب البعد بين المتجاذبين ذلك الخط المنحني لا الراديوس الذي حسبه نيوتن . فاذاً

$$\text{ناموس نيوتن للجاذبية} = \frac{\text{ش} \times \text{ض} = \text{كتلة الشمس} \times \text{كتلة الارض}}{(\text{الخط ش ض})^٢}$$

$$\text{ناموس اينشطين : الجاذبية} = \frac{(\text{ش} \times \text{ض})}{(\text{الخط ش ضَ المنحني})^٢ = (\text{ش ض})^٢ + (\text{ض ضَ})^٢}$$

يتضح مما تقدم ان معنى تحدُّب الجو الجاذبي هو أن الجسم الذي يقع في أي جو جاذبي يكون تحت تأثير قوة واردة اليه في « خط قوة » منحنٍ كما علمت

قصور نشرة اقليدس

اذا سكتنا عند هذا القول بتحدب الفضاء ناقصاً . فلنتقدم فيه خطوة اخرى لكي نعلم كيف يختلف هذا التحدب باختلاف مواقع الاجسام في الجو الجاذبي

من فروع ناموس الجاذبية التي هي من مقتضياته « ناموس التسارع بالنسبة الى البعد » وهو ان الجسم الاقرب الى مركز الجذب يكون أسرع في فلكه من الجسم الابعد عن المركز بنسبة $\frac{س}{ش}$ باعتبار ان س رمز السرعة و ش رمز البعد (الذي يعبر عنهُ بالشعاع أو نصف القطر أو الراديوس) وقد شرحت هذا القانون الفرعي في المقتطف منذ نحو سنتين

بناءً على هذا القانون يكون انحناء « خط القوة » تجاه الجسم الاقرب أشد منهُ تجاه الجسم الابعد. لان ذلك اسرع من ذينا فيواجه من « خطوط القوة » عدداً اكثر مما يواجه هذا ، فلا تتركه القوة الا وقد رحل مسافة (بعد ما يرحل هذا) . ولذلك يكون « خط القوة » اكثر انحناء . ولا أظن القارىء يتعذر عليهِ فهم هذه النقطة من الموضوع اذا فكّر قليلاً . ولذلك لا أرى داعياً لتمثيلها برسم شكل ثان

وبناءً على هذا القانون الفرعي ايضاً يكون ان الجرم الذي له من السرعة الاستمرارية (الذاتية) ما يحميهِ من السقوط الى مركز الجذب يسير بخط منحنٍ متمم دائرة حول المركز . فكلما كان أقرب الى المركز كان خط سيره اكثر انحناء (كما هو معلوم ان قوس الدائرة الصغرى اكثر تقوساً من قوس الدائرة الكبرى)

اذاً يتضح مما تقدم ان تحدب الجو الجاذبي يكون اشدهُ على مقربة من المركز واضعفهُ كلما كان ابعد عنهُ

وبناءً عليه اذا مرّ فيهِ خيط من النور (واشعة النور خاضعة لتأثير الجو الجاذبي كما رأى اينشطين وأيدتهُ الارصاد الفلكية) الوارد من نجم سحيق والمار على مقربة من الشمس يظهر انحناؤه حين مروره في جوها الجاذبي الاقرب اكثر من خيط آخر يمر في جوها الابعد . وقد حققت هذه الظاهرة بعثة فلكية بريطانية حين حدث كسوف كلي يرى من مناطق الارض الجنوبية سنة ١٩١٨ وثبت لها ان الزاوية بين الخط المنحني والخط المستقيم ١ ٧ ٤ الثانية كما تنبأ اينشطين بحسابهِ الرياضي . وكان حسابه مبنيًّا على تصحيحه لناموس نيوتن الذي بسطناه آنفاً

يتضح مما تقدم ان الفضاء (الحيز) يُعد متحدّباً باعتبار أن المراد بالفضاء ذلك الجو الجاذبي الذي نحن بصددهِ اي الحيز الذي يملأهُ هذا الجوّ . فاذن حيث يوجد جو جاذبي ، اي حيث توجد اجرام متجاذبة ، يكون الحيز (الفضاء) متحدّباً . وحيث لا اجرام فلا جو جاذبي ، كما هي الحال في الرحاب الشاسعة بين الجزر الكونية — المجرات المتباعدة ابعاداً سحيقة . وبالتالي يعتبر الفضاء الخالي هناك غير متحدّب

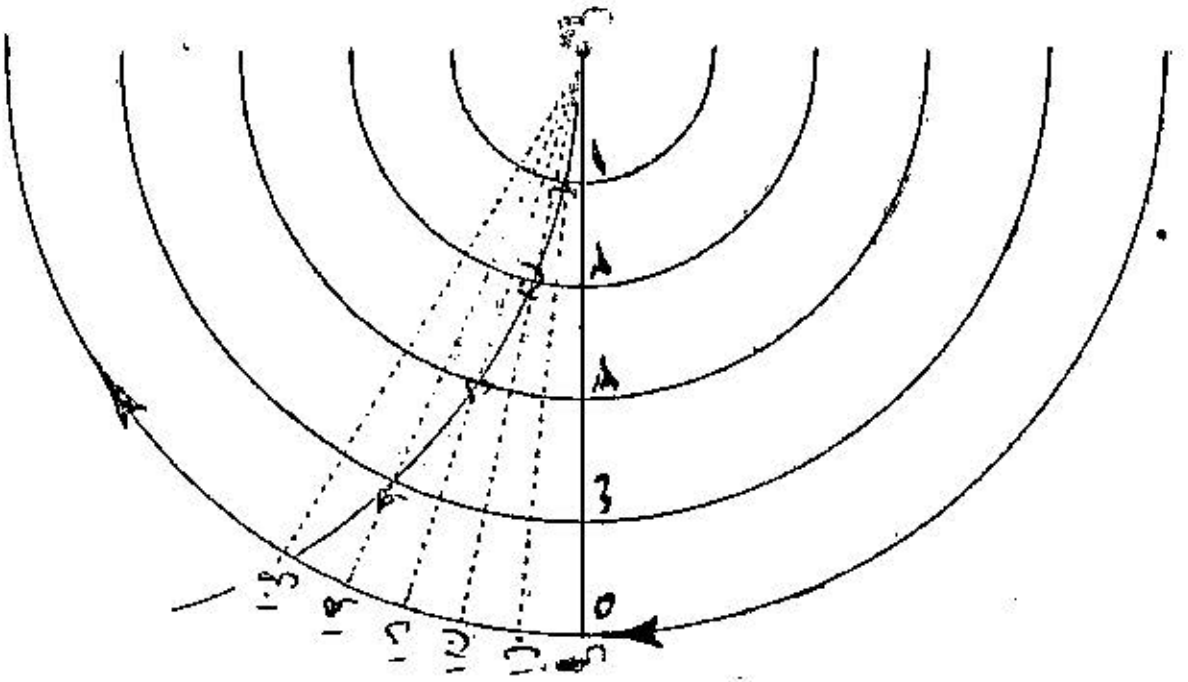
1
2
3
0

في هذه الرحاب الخالية تصلح هندسة اقليدوس ذات الخطوط المستقيمة اذ لا أجرام متحركة هناك. واما في الرحاب الجاذبية فلا تصلح، لانه يستحيل ان تحدث فيها حركة في خط مستقيم البتة. والاجرام تسير في أفلاك مستديرة او اهليلجية) والقوى الفاعلة فيها ترد اليها في خطوط منحنية. لذلك لا يصح اي حساب مبني على قاعدة الخطوط المستقيمة بل لا بد من الحساب على قاعدة الخطوط المنحنية على الاطلاق. وقضايا اقليدس بشأن الخطوط المنحنية قاصرة لا تفي بالغرض. ولذلك ترسم فيها الرياضيون الحديثون الى ان وفت بالغرض. ولا يكر انهم بنوا ترسيمهم على قواعد الهندسة الاقليدوسية. لذلك لا يصح القول انهم كسفوا مجد اقليدوس بل الاحرى اظهروه لامعاً

***

بقيت ملاحظة اخرى لا بد من ذكرها لازالة وهم قد يطرأ على ذهن القارىء. وهي ان رحاب الفضاء الخالية من السديم والاجرام وجزر الكون الاعظم ليست خالية من الاجواء الجاذبية خلواً مطلقاً بل ان اجواء الجزر منتشرة فيها انتشاراً ضعيفاً جداً لا يحسب حسابه

بناء على ثبوت التحدب في كل حيز جاذبي بالمعنى الذي شرحناه آنفاً يستنتج اينشتين ان حيز الكون الاعظم الذي يشمل الملايين من العوالم كعالم المجرة انما هو لوح (أيسبرون عنه بلفظ Surface محدب بحيث تلتقي جميع حواشيه بعضها ببعض ويصبح كالكرة الفارغة الجوف (وفي رأيه كالبيضة، اي بيضي الشكل Oval) ضمنه فراغ مطلق وحوله فراغ مطلق (عدم) والعوالم تسبح في قشرة البيضة. وبسط مذهب اينشتين هذا يشغل مقالاً قائماً بذاته

فاذا صح ان الكون الاعظم لوح محدب على هذا النحو فبالطبع كل خط مستقيم يمر في هذا اللوح يكون محدباً ويمكن ان يلتقي طرفاه، كما ان الطيار الذي يطير في جو الارض في خط مستقيم بحيث لا يحيد يمنة ولا يسرة ولا يحلق ولا يهبط لا بد ان يصل اخيراً الى النقطة التي رحل منها. فالخط المستقيم الذي لازمه في رحيله انما هو دائرة تامة لا خط مستقيم اقليدومي. ومع ذلك فلك ان تقول ان هذا الخط اقرب مسافة بين نقطتين في حين انه متحدب كتحدب السطح الذي مر فيه. لا يكون الخط الاقصر بين نقطتين في قشرة البيضة المحدبة الفارغة مستقيماً بالمعنى الاقليدومي الا اذا اخترق القشرة ومر في فراغها وظهر مخترقاً ناحية اخرى فيها. وهذا خط تخيلي لا يمكن ان يمشي خطوط الحركة الكونية التي لا تستطيع ان تفارق الاجواء الجاذبية. حتى النور نفسه لا يستطيع ان يفارق الحيز الكوني الكروي الفارغ الجوف. فلا مر في تجويفه ولا شرد في العدم المحيط به بل تضطره الاجواء الجاذبية ان يلازم اللوح الكروي

بعد هذا الشرح أصبح الرياضي يفهم كيف ان المثلث في سطح محدب لا يمكن ان تساوي زواياه قائمتين. والمربع والمكعب لا تكون زواياها قائمة. وكيف ان الخطين المتوازيين قد يلتقيان في قطب — الى غير ذلك مما يناقض هندسة اقليدوس

النسور والارتقاء

للشاعر عبد الرحمن شكري

أراكَ فريسةَ الجُوَعَيْـــــن سغباناً وشهوانا
بربِّك أيها الانسا ن لِمْ أصبحتَ إنسانا
بعقلٍ يبلغ الشمـــس وأقصى الكون عرفانا
وجدتَ لكل ما كان من الأكوان ميزانا
كأنك خالق الخَلْقَيْـــن أكواناً وأزمانا
وسخَّرتَ الرياح مَطِيَّةً والبرق فرسانا
وقد أعليتَ صرحاناً وقد قدَّستَ أديانا
وردت العيش عرياناً وترجع عنه عريانا
وملء حياتك الأحزا ن والآلام ألوانا
وتُبكيك الحياة كما يفتُّ الجَوُّ صوانا
وتصرعك الجراثيم كما لو كنت ديدانا
وقد نهلك غرثانا وقد نهلك مِبْطَانا
وقد تغدو الى اللـذا ت فتَّاكاً وخمزيانا
فبين الجوع والشبع ة قد أُجْرِيتَ ميدانا
وللتحليل والتحري م قد أعددتَ تبيانا
فما أصلحت حالَيْكَ ولا طهرتَ أدرانا
وفُقْتَ الطير والحيوا ن آثاماً وأشجانا
وزنت الذرَّةَ الصغرى وما أعددت ميزانا
لعينك كي يكون العيش إسعاداً وإحسانا
بربك ايها الانسا ن لِمْ أصبحتَ إنسانا

غزل المتنبي

فايز شيبوب

يجوز لنا ان نتعت بعض الابواب من الشعر كالمديح والرثاء والهجاء بانها موضوعية الى حدّ ما لان الشاعر ينظر فيها الى ممدوحه او الى خصمه ليقول ما فيهما حيناً وما ليس فيهما احياناً ما. اما الغزل في الشعر فانهُ ذاتي محض لان الشاعر ما لم يكن مقلداً او سارقاً لا يمكنهُ ان يعرب الاّ عن شعوره الخالص فيسبغ على قوافيهِ فيض احساسه وقرارة نفسه

والشاعر غزلٌ بطبيعته لانهُ مرهف الحس متسع الخيال . وها جناحان يحلق الشاعر بهما في سماء الفن . ومن كان كالمتنبي جامح العبقرية، صعب الشكيمة ، دافق النفس كان لابدّ ان يذوق سواء في افتتانهِ بالمرأة التي تظل المثل الاعلى للجمال في هذه الدنيا لانها هي الجمال بمختلف صوره ومعانيه التي تزهو فيها الحياة فتخاطب العقل والقلب والدم وتتعهد فيها اغراض الحياة جميعةً

ولا اعرف في غير آداب اللغة العربية تقسيماً للشعراء يتناول جزئيات الشعر من الجهة النفسية . فبينما يقال ان شكسبير روائي وهوميروس قصصي تراني اقول هذا شاعر غزل مثل عمر ابن ابي ربيعة او مدّاحة نوّاحة مثل ابي تمام او هجّاء مثل دعبل او وصّاف مثل ابن المعتز او ما شاكل كل ذلك من النعوت التي تعد من تفاصيل الشاعرية العامة لانّ في الرواية او القصة غزلاً ومدحاً ونوحاً وهجاء ووصفاً، وقد يجيد الشاعر الموهوب القصة والرواية معاً او يجيد هذه ولا يجيد سواها

واذا نظرنا الى المتنبي على ضوء التقسيم المرتجى فحسبهُ اذا قلنا انهُ غزل او مدّاح او هجّاء او وصّاف لانهُ كل هذا بل هو فوق هذا كله لانهُ شاعر الحياة فهو اذن من كبار شعراء الانسانية

ان هذا الرجل الفذ الذي نبت في الطبقة الدنيا اذ كان ابوه يبيع الماء بالكوفة حدثتهُ نفسهُ ان يدّعي النبوة وان يطمح الى الامارة فعاش عيشة الجد والاستكبار متطلعاً الى غرض سام اراد تحقيقه من طريق النبوّة ثم قذف بهِ من حالق فعمد الى الشعر يتخذهُ وسيلةً حتى اذا فاته ذلك الغرض عاش امته بهذا الشعر في درجة الخالدين من الانسانية . وها هو بعد الف عام من وفاته يقيم الشرق ويقعده . وتعقد لهُ الحفلات في كل بلد . وتخصص لهُ اعداد الصحف اليومية وغير اليومية فاذا كان قد فاتتهُ الامارة في عصره فانهُ بلغ امارة الشعر على العصور . واذا لم يحكم على الاجسام بسيفه وسطوته فقد تحكم في العقول والنفوس بعبقريته وقوافيه

وطالما سألت نفسي ما كان يجري لو بلغ المتنبي مأربهُ من الولاية او الامارة . أتراه يبقى على

عبقريته الفنية لم يجبر به تصريف آلة الحكم عن لاذ والفن لم يتمشى به الترف الى الثرثرة والتراخي ؟ وهو سؤال لم اقنع نفسي بأني ردّ عليه الى اليوم . . . ولكنني اميل الى الاعتقاد بأنهُ لو تم ذلك لهُ لما اغنى باب التاريخ في وجه ابن الرومي وهراً . ولا رجح اسمه بأبي تمام والبحتري ولا شغل الناس عن الشريف الرضي وميهار الديلمي وابن حمديس وجميع من جاء بعده الى الحد الذي شغلهم به عنهم

وقد اجمع المؤرخون على ان المتنبي كان كثير الجد في حياته . قويم الخلق لا يميل الى لهو ولا الى دعابة . واكبر الظن انهُ لم يكن يمزح بل لعله لم يفهم الدعابة والمباسطة . وكم تصورته في مخيلتي رجلاً عصبيًّا . عابس الوجه . موبر الطبع . منغص القلب في معيشته مقيماً لكل حديث وزناً لاهمَّ لهُ الا كسب الاموال . وبلوغ المعالي . وسبق الاقران . واثارة الاعجاب بنفسه عند الذين يحيطون بهِ . ومن كان كذلك لابدَّ لهُ ان يتجانف عن اللهو والمزح ويعدل عن مجالس الشراب الا اذا اضطر فيها ويكبت ميله الى الحسان اذ كان العرف السائد ان العشق اذا طغى على قلب الرجل ذهب بهِ كل مذهب . ودفع بهِ الى الاستهتار بمجد الامور . وقعد بهمته عن جلائل الاعمال . ولا يتفق هذا لمن يطمح الى امارة وزعامة

لم تذكر التراجم العربية عن المتنبي هوًى اختصَّ بهِ امرأةً بعينها ولكننا نقرأ لهُ كما نقرأ لسواه شعراً يعرب فيهِ عن شغفه بالنساء ووتيرته بالاطلال وتفجعه من الوداع وما يلحق بهذا من وصف الحي ومساءل الحسان وسكب الدموع شوقاً . وتحول الجسم هياماً . وما شابه ذلك من مألوف الغزل الذي دأب على الشعر العربي قروناً طويلة

تلك هي النظرة العجلى في ذلك الغزل المتغشي في قصائد . ولكن القارىء المتريّث يلاحظ في ثنايا المعاني اتجاهات خاصة اذا ألِف بينها اتجلت له مبادىء المتنبي الغزلية — اذا جاز هذا التعبير — فني كل شعر ما كان فيهِ مقلداً رأيت بعدهُ ما هو ذاتي جديد صادر عن شعور عميق صادق . وليس كشعر المتنبي للاستدلال بالبحث فيهِ على الذاتي منهُ وغير الذاتي . لانهُ صاحب اغراض خاصة . ومعان متسلسلة مبتدعة لم يسبقه اليها من تقدمه ولم يلحقه فيها من تأخر عنه لفقدانه الحاجة اليها بفقدانه الغرض منها واذ كان المتنبي لمتناول البادرة الحسنة فيتوسع فيها الى ابعد غايات الحياة من مشاعر كل عصر . واشعار كل جيل . حتى يزيد بها من سبقه ومن لحق بهِ

ولابدَّ هنا من الاشارة الى ان ديوان المتنبي فريد بين الدواوين القديمة بكونهِ مبوَّباً على الطريقة الحديثة لان قصائده متسلسلة التنسيق تبعاً لسني النظم والانشاد لا لابواب الشعر وحروف الهجاء. وعلى الرغم من ان بعض ما نسب منها الى نظمه يابداً في صباه لا تقنع بصحة موقعها من الديوان الا ان ذلك التنسيق يساعد كل المساعدة على تتبع المتنبي في اطوار شبابه ونضوجه واكتهاله

اجل لقد اشتهر كثير من الشعراء بغرام خاص حفظ التاريخ اسم صاحبته امثال ابي نواس وجنان

وابن الاحنف وفروز وقبلها عشاق العصر الاول الاسلام ولكن المتنبي لم يشهر بحب امرأة بعينها فهل كان ذلك بمجرد مصادفة ؟ . . . لا نظن ذلك كذلك بل اظن ان مرضه بحب الامارة جعله يستكف افتران اسمه باسم امرأة ربما غيره بها اعداؤه وان تغنى بحب الجمال وانتسب الى زمرة العشاق فان صيته الاول ثباتاً لوجوديته وتركيباً لشامخه اذ لم يكن بمزهاة معتبراً هذه الصنعة منقصة لشعوره . فالمسألة خلقية قبل كل شيء ولعلها الى جانب هذا تدخل في طبيعة المتنبي لان شعره يدل على انه كان غزلاً ملهب العاطفة الا انه كان عزوفاً عن مواقف التخصيص فهو من الفريق الذي يسميه الفرنجة «دون جوان» Don Juan — ولعل لفظة عِشِّيق (بكسر العين والشين المشددة) لا زير نساء تؤدي معناها — فهو يتصيد المرأة الجميلة كيفما عنّت له ولا يقنع بحب واحدة او اثنتين بل يعشقهن جميعاً ويصبو اليهن جميعاً وهذا الطراز من المحبين يأخذ بالصورة الماثلة التي تثير الغاطنة وتستفز نوابض القلب ولا يهمه ماوراء هذه الصورة ولعله لا يطيل التفكير بها كأنما كل صورة اذا لم تمح سابقتها فهي تضعف تأثيرها بلا ريب

وقد ابدع المتنبي يصف نفسه في مواقف غزله بما ينطبق كل الانطباق على تعريف هذا الصنف من المحبين حيث يقول :

فما امر يوم لا اساير غادة ولا بذات خمار لا أريق دمي

وحيث يقول : ما لاح برق او ترنم طائر الا انتبهت ولي فؤاد شيق

وحيث يقول على التسميم :

فالثغر والنحر والمخلخل — والمعصم دائي والفاحم الرجل

وهكذا لا يمر يوم الا وقف يسأل فطينه ابن ذهبوا وماذا جرى لهم ولا يرى ذات خمار الا استنفد جهاده من وراء خمارها فشعر انه يموت حبًّا وهو ما كنى عنه بأراقة دمه كما انه يصبو لكل برق يلوح وطائر يترنم وانما داؤه حب الثغر والنحر والمخلخل وسائر الاعضاء الجميلة ومظاهرها فأين تذهب بهذا تلك المحبوبة المنفردة التي يخصها بعاطفته ويقف عليها صبوته لذلك نرى المتنبي يفرط في التغزل بالنساء عامة وبالحسان مجتمعات كقوله :

الراميات لنا وهنّ نوافر والخاتلات لنا وهنّ قواتل

وقوله أيضاً : لبسنَ الوشيَ لا متجملات ولكن كي يصنّ به الجمالا

وضفّرنَ الغدائر لا لحسن ولكن خفنَ في الشعر الضلالا

وقوله وهو في درجة لا تدانى من الابداع :

ديار اللواتي دارهنّ عزيزة بطول القنا يحفظنَ لا بالتمائم

حسان التثني ينقش الوشي مثله اذا مسّ في اجسامهنّ التواعم

ويبسمنَ عن درّ تقلد مثله كأنّ التراقي رصّعت بالمباسم

وفي البيت الثاني صورة يعجز عن ابرازها أكثر الواصفين . وان الشعر الذي يؤيد هذه النظرية متوافر في الديوان كل التوافر. على ان من كان ملتهب العاطفة كثير التعشق على هذا النحو لا يبعد ولا يستغرب ان تستعبده احدى الجميلات ولو حيناً فتشعره بنار العشق التي تتلقل الضلوع . ولعلّ المتنبي وقع في العشق واكتوى بناره أيام صباه الاول على الاقل وقبل اتصاله بسيف الدولة . لانهُ لا يمكن للعبقرية مهما عظمت ان تدل صاحبها على شعور لم يحسّهُ فلا بد ان يحس بهِ ولو قليلاً لان تجسيمه عن طريق الخيال لا يستقيم الى الحد الذي يستقيم بهِ من وراء الاحساس وكل صاحب فن لا تتطرق الصورة او العاطفة الى فنه الاّ عن طريق حواسه . غير ان العبقرية هي التي تجعله يحلل شعوره ويدرس خلق النساء في تفكير وتأمل . ولم يكن المتنبي في ادبهِ صاحب فن فحسب بل هو مفكر نافذ البصيرة ثاقب النظر الى الحياة يحيط بها من شتى جوانبها . وامامهُ قد وقعت لهُ حادثة غرام واحدة أضاف الى تنقله في التعشق جعلتهُ يصف أخلاق النساء على نحو ما قال :

اذا غدرت حسناء وفت امهدها فمن عهدها ان لا يدوم لها عهد
وان عشقت كانت اشد صبابة وان فركت فاذهب فما فركها قصد
وان حقدت لم يبق في قلبها رضى وان رضيت لم يبق في قلبها حقد
كذلك اخلاق النساء وربما يضل بها الهادي ويخفى بها الرشد
ولكن حبّا خامر القلب في الصبي يزيد على مرّ الزمان ويشتد

ولا شك ان هذه الابيات تشعر بشيء من القسوة في الحكم مرجعهُ الى العصر والبيئة وما عدا هذا فانهُ فيها من تفهم طبيعة المرأة ما تتقى حقيقته ما بقيت هذه الطبيعة . على انهُ في البيت الاخير مرارة ولوعة لا يحس بهما الاّ من جرب مثل ذلك الحب الذي خامر القلب في الصبي ولم يزده مرّ الزمان الاّ اشتداداً على الرغم مما خبره من تلك الاخلاق التي وصفها . واننا نعرف ما نعرف عن كبرياء المتنبي وتعاظمه حتى قال عن نفسه

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الاّ لخالقه حكما

وقال كثيراً غير هذا في معرض القوة والجبروت فاذا به في معرض الحب يقول :

تذلل لها واخضع على القرب والنوى فما حاشق من لا يذل ويخضع

فلا ريب ان شعوراً مفرطاً بالحاجة الى استرضاء حبيبة بعينها افهمه ان الخضوع حيالا يعد هواناً وجعله يحرص كل الحرص على انهُ يدعي عاشقاً ويقول معتذراً :

وعذلت اهل العشق حتى ذقته فعجبت كيف يموت من لا يعشق

ولا يني في الاعراب عن خوالج صدره بالذهاب في صحة عاطفته الى اقصى غايات الوصف التي لا يوفق اليها الاّ من ذاق واختبر وهداه اختباره الى استنباط الدقائق الحية واستكناه خفيات المشاعر النفسية كقوله

جرى حبها مجري دمي في مفاصلي فاصبح لي عن كل شغل بها شغل

وقوله ايضاً : قد كنت اشفق من دمعي على بصري فاليوم كل عزيز بعدكم هانا

وقوله في موقف الوداع : تنفست عن رقو غير منصدع يوم الرحيل وشعب غير ملتئم

فبلتها ودموعي مزج ادمعها وقبلتني على حوف فما لثمي

ولقد تركت تلك القبل في فمها تناولته شاعريته الكبيرة فوضعته موضع التشبيه البارع حيث قال :

للبين عن فرنة تمرُّ كانها قبل يزودها حبيب راحل

قال كثيراً من هذا الشعر الغزلي الصادق الذي يتدفق من صميم النفس والقلب. وقد ظن المتنبي ان العاشق يجب ان يكون نحيلاً فقال في صباه :

كفى بجسمي نحولاً انني رجل لولا مخاطبتي اياك لم ترني

فاذا به يعجب بهذا المعنى جداً والمرء معجب بذات افكاره حتى لو كان المتنبي لذلك عاد الى نظمه ثانياً

ولو قلم القيت في شق رأسه من السقم ما غيرت في خط كاتب

وعاد فنظمه ثالثاً : وبليتي فقد السقام لانهُ قد كان لما كان لي اعضاء

ونظمهُ رابعاً باضافة شيء على المعنى :

دون التعانق فاحلين كشكلتي نصب ادقهما وضم الشاكل

وكرر معنى صدر هذا البيت خامساً :

حلت دون المزار فاليوم لو زرت لحال النحول دون العناق

وهكذا بقي المتنبي شغوفاً بمعناه حذا يبالغ به في وصف النحول وصفاً يخرجهُ عن المعقول بل هو من الاغراق المرغوب عنهُ . وهو في جملتهِ لا يخرج عن قول ابن ابي ربيعة :

وتقلبت في الفراش وما تعلم الا انظنون اين مكاني

ولا شك ان المتنبي وضع معناه وضعاً ولم يقتبسهُ اقتباساً والا لما افرط في الاعجاب به حتى كرره ايضاً وهو يهجو ابن كيغلغ لما ورد الخبر بأن غلمانه قتلوه فقال :

تساءلوا قاتليه كيف مات فلم موتاً من الضرب ام موتاً من الغرق

واين موقع حد السيف من شبح بغير جسم ولا رأس ولا عنق

ويصح ان نسمي البيت الاخير من الخيال المستحيل على انهُ وفق مرة واحدة الى وضع هذا المعنى في موضعه الصحيح حين صرفه الى وصف الموت فاستقام في قوله :

وما الموت الا سارق دق شخصه يصول بلا كف ويسعى بلا رجل

ولم يفت المتنبي تعريف الحب ونشأته وحالاته وكيف يطغى على العقل ويغلب العاطفة على الفكر ويعتل الارادة فقال :

وما هي الا لحظة بعد لحظة اذا نزلت في قلبه رحل العقل

وقال : ومن يعشق يلذ لهُ الغرام . وقال في باب التعريف :

الحب ما منع الكلام الا ألمه وأشد شكوى عاشق ما أعلنا

ويعتبر هذا البيت من ادق الملاحظات النفسية المتوافرة في الديوان . وقد اشتط بعض النقاد حينما وهم ان في البيت تناقضاً معنوياً اذ زعم ان الحب منع اللسان من الكلام وان الشكوى لا تعلن الا بالكلام الذي منعهُ الحب فكيف يكون ذلك . على ان هذا الاعتراض لا يؤبه لهُ اذا علمنا ان العاشق الصادق يذهل في مواقف الغرام ويخجل حتى لا ينبس بحرف وهذا معنى صدر البيت ثم انه لابد لهُ ان يشكو فاذا اعلن شكواه شعر بلذة غريبة قريبة من بعض اللذة التي يحدثها الالم وهذا معنى عجز البيت . وفي تناقض العشق والعقل يقول المتنبي

يا عاذل العاشقين دع فئة اضلها الله كيف ترشدها

ويقول ايضاً : الى مَ طاعية العاذل ولا رأي في الحب للعاقل

هذا هو موقف المتنبي من العشق والغزل الى السنة الاولى التي لحق بها بسيف الدولة . ومن ثم بدأ عند سيف الدولة حياة جديدة تقتضيه التسامي بنفسه عن كل شائبة . صرنا لكبريائه بين منافسيه فصرنا حينئذٍ نسمع مثل هذا السؤال الانكاري : أكل اديب قال شعراً متيم . . . وصار غزله صناعيًّا الا امداده بعيدة تتجاوب في نفسه لتلك العواطف الزاخرة التي تدفقت في شعره الاول كقوله :

وكيف التذاذي بالامائل والنحى اذا لم يعد ذاك النسيم الذي هبا

ذكرت به وصلاً كأني لم افز به وعيشاً كأني كنت اقطعهُ وثبا

ومثل قوله وهو يسيل حناناً : اذا زلتم ثم لم ابكم بكيت على حبي الزائل

ومثل قوله ايضاً : لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي

ولا بد هنا من الاشارة الى افتتان المتنبي بجمال العينين لوفرة ذكرها في شعره فهل كان ذلك مصادفة شعرية ام هو افتتن بذات عينين جميلتين الطبعت صورتهما في قرارة صدره حتى قال

عزيز اسيٌّ من داؤه الحدق النجل عياء به مات المحبون من قبل

وقال : وعيون المها ولا كعيون فتكت بالمتيم المعمود

وقال : وفتانة العينين قتالة الهوى اذا نفحت شيحاً روائحها شبا

وفي القصيدة التي ساق مطلعها الى هذا الاستشهاد على السؤال يقول :

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه ولكن من يبصر جفونك يعشق

ويقول في وصف العيون مبدعاً :

ادرن عيوناً حائرات كأنها مراكز احداقها فوق زئبق

ويقول ايضاً : ألم ير هذا الليل عيناك مرؤيتي فتظهر فيه رقة وتحرل

ولما اكتهل قال متغزلاً وهو صادق :

افسدت بيننا الامانات عيناها فخانت قلوبهنَّ العقول

مظلتان من المظلات التي كان قدماء
المصريين يستعملونها والعليا منهما
شبيهة بالمظلات الحديثة

عازفة العود
رسم على جدار قبر في الاقصر
من عهد المملكة الحديثة

وقد اشار الى ان الجمال اكثر ما يكون في العينين حيث قال :

الحسن يرحل كلما رحلوا معهم وينزل حيثما نزلوا
في مقلتي رشاء تديرها بدوية فتنت بها الحلل

وما احسن قوله : كل جريح ترجى سلامته الا فؤاداً رمته عيناها

ثم ان المتنبي لما لزم سيف الدولة طفق يبعد بنفسه عن كل ما يخشى ان ينعكس عليه سوء فهمه فلم يعد يكثر من ذكر الغرام والهيام كأنهُ يريد تفهيم سيف الدولة ان نفسه لا تشغله اليوم عنه كما كانت تشغله من قبل عن سواه وان همه ان يرضيه ويظهر لدنه بمظهر الرجل الكبير الذي يستحق الامتيازات التي حصل عليها منهُ . انهُ لا يقبل الارض بين يديه ولا ينشدهُ الشعر واقفاً ويتقاضاه كذا الوفاً على قصائد معدودة فهو جدير بكل احترام على الرغم من ان حرفة الشعر لم تكن ايامئذٍ تسمو بصاحبها الى المعالي وعلى هذا شرع المتنبي يصف نفسه بالعفة والتصون كقوله :

يرد يداً عن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد
وهل يشتكي من لاعج الشوق في الحشا محبٌّ لها في قربها متباعد

بل هو ذهب الى ابعد من ذلك فنبذ استهلال القصيدة بالغزل على طريقة اسلافه من الشعراء وصار يدخل مباشرةً في موضوعه والشواهد عديدة على ذلك :

— اعلى الممالك ما يبنى على الاسل — على قدر اهل العزم تأتي العزائم
— اذا كان مدح فالنسيب المقدم — بغيرك راعياً عبث الذئاب
— لكل امرىء من دهره ما تعودا — عقبى اليمين على عقبي الوغى ندم
— طوال قنا تطاعنها قصار — غيري باكثر هذا الناس ينخدع

وعشرات غير هذه من القصائد التي لا ذكر للغزل فيها البتة. وانتفخت اوداج ابي الطيب كبرياء لما علت مرتبته وانتشر اسمه في الاقطار ولقي من سيف الدولة بالغ الحفاوة والاجلال فتطورت آراؤه في النساء تطوراً عجيباً حتى صارت الانوثة شبه مصيبة عنده فهو يعتذر عن ام سيف الدولة انها انثى

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكير فخرٌ للهلال

ولا يقولنَّ احد ان المتنبي اراد في البيت الثاني ان يساوي بين التذكير والتأنيث وانما ساقهُ للوقف الى هذا التشبيه بعد ان قرر في البيت الاول تفضيل الرجال على النساء . وجاء بعدئذٍ يقول ان التأنيث ليس عيباً . ومعنى ذلك انهُ ليس بعيب اذا كانت ام سيف الدولة انثى ولكنهُ عيب في سواها . . . وبلغت قلة الذوق بالمتنبي وهو مسوق بآرائهِ هذه انهُ لم يستنكف حين عزّى سيف الدولة فيما بعد بفقد اختهِ الصغرى ان يقول لهُ :

واذا لم تجد من الناس كفئاً ذات خدر ارادت الموت بعلا

وذهب الى أبعد من ذلك فقرر ان شيمة النساء الغدر وان الدنيا غادرة فهي تشبه النساء. ولعلّ هذا الشبه جعل لفظ الدنيا مؤنثاً . فقال والضمير عائد الى الدنيا :

وهي معشوقة على الغدر لا تحـــفظ عهداً ولا تتمم وصلا
شيم الغانيات فيها فما أدري لذا أنّث اسمها الناس ام لا

فالتأنيث والغدر ونقض العهد كل هذا واحد في نظر المتنبي . وقد لزمتهُ هذه الفكرة في الغواني الى آخر عمره فصار لا ينظر الى المرأة الاّ انها أداة لهو واستمتاع وصار غزله مادياً بحتاً حيثما عاد في ابان اكتهاله الى الغزل كقوله :

ولا ليـلة قصرتهـا بطـويلة أطالت يدي في جيدها صحبة العقد

وقوله : شامية طالما ألهوت بها تبصر في ناظري محياها
فقبلت ناظري تغالطني وانما قبلت بهِ فاها

وقوله ايضاً وهو فبيح : عد وأعدها فهذا تلف ألصق ثديي بثديها الناهد

ولو لم تكن نضبت حيوية المتنبي لما قال :

فـا حرمت حسناء بالهجر غبطـةً ولا بلغتها من شكا الهجر بالوصل

كل هذا وقع له وهو كهل في السنوات القصيرة التي قضاها بعد يأسه من التصون والتعفف ولكنه كان قد فسا عوده وجفت عواطفه واصبح لا يستلذ بالمخالجة التي تلجلج النطق وتذهل العقل بل صار يطلب الموقف المثير والمفس الوثير بل صار يعكس مواقف الغرام فيجعل المرأة تقبله وتستبيته ولم يعد طلب الوصل رجاء بل اغراء فلسفيًّا مزيجاً من اللذة والتنكير بفناء الدنيا والقارىء المتأني يعجب كل الاعجاب بهذين البيتين :

زوّدينا من حسن وجهك مادام حسن الوجوه حالٌ تحول
وصلينا فصلك في هذه الدنيا فان المقام فيها قليل

على انهُ بعد انفصاله عن سيف الدولة ولحاقه بكافور لم في مصر خيال كافور خطته مع سيف الدولة في الانصراف عن الغزل . ولا نرى المتنبي تغزّل في مصر الاّ مرة واحدة حيثما وازن بين الحضريات والبدويات في قصيدته التي مطلعها

من الجآذر في زي الاعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب

اما قصيدته التي يقول فيها : ولكن قلبي يا ابنة القوم قلّب . فقد دعا حسناءهُ ابنة القوم وفاقاً لعادة عربية قديمة تنادي بها المرأة هكذا امتداحاً لها بأن طافوماً تمتّ بهم فجعل نفسه غريباً عنها وفيها يقول

احنّ الى قومي واهوى لقاءهم وان من المشتاق عنقاء مغرب

وهل اشرف من عاطفة الحنين الى الاهل فالمتنبي يقف في مصر مواقف مشرفة لان رأسه تعلي بأطماعه المعروفة وكافور يطاوله ويمنيه واذا جاز الافتراض قلنا لعلّ كافوراً اوعز من باب السياسة الى

بعض اشياعه ان يعير المتنبي بتطلعه الى النساء ومعاقرة الخمر دفعاً عن اطباعه ولعل التهمة قرعت سمع المتنبي والاَّ فما معنى ان يدلل طويلاً بعفته وابائه واجتنابه للخمر ويذكر هاتين الخلتين مفتخراً فيقول

وغير فؤادي للغواني رمية وغير بناني للزجاج ركاب

ثم يشفق ان يتهم بالضعف في موضوع الحسان فيقول :

وللخود مني ساعة ثم بيننا فلاة الى غير اللقاء تحاب

وراح يسلك في تعريف العشق مسلكاً لا يتفق مع ما سبق له في قصائده السالفة فيزعم ان العشق غرور وطمع حيث قال :

وما العشق الاَّ غرة وطماعة يعرض قلب نفسه فيصاب

وصار يقول ايضاً : يحب العاقلون على التصافي وحب الجاهلين على الوسام

فيجمع بين الحب والعقل بعد ان أشاد طويلاً بالتفريق بينهما وينسب الجهل الى عشاق الجمال وانكى من هذا قوله

مما اضرَّ بأهل العشق انهم هووا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

تعمى عيونهم دمعاً وانفسهم في اثر كل قبيح وجهه حسن

كأن كل عاشق جاهل وكل جميل الوجه قبيح النفس وكأنهُ لم يكن يحب اهل العشق هؤلاء الذين يرميهم بالجهل وهو الذي قال :

وما انا الاَّ عاشق كل عاشق اعق خليليه الصفيين لائمه

وقد يتزيا بالهوى غير اهله ويستصحب الانسان من لا يلائمه

وهو الذي قال : ضروب الناس عشاق ضروبا فاعذرهم اشفهم حبيبا

اجل لم يكن المتنبي ليجسر على الجهر باطباعه عند سيف الدولة ونحن نعرف ما كان عليهِ من الشجاعة والفروسية والعزة والسطوة بل هو من قومهِ بني حمدان في سياج من الامراء والقواد ممن لا يجوز للمتنبي ان يفكر في تخطيهم الى ملك او امارة . ولكن الحالة في مصر غير الحالة في حلب وكافور عند اسود اغتصب ملك سيده وتصدر لتصريف شؤون البلاد والعباد وليس له قوم يرتكز على عصبيته فيهم وقد الحَّ في استدعاء المتنبي ليرفع به جاهه ويدل به على غيره من الملوك فلا ضير على المتنبي اذا طلب الولاية والامارة وهو لن يتخطى اليها احداً من اهل كافور الاقربين وسواء في حلب او في مصر فان المتنبي لزم خطته في التغني بعناقيه الرقيدة واخصها بعده عن النساء وترفعه عنهن ولكن بعد ان هرب من مصر ولحق ببني بويه وقد انهارت آماله واخفقت مساعيه عاد الى الغزل واطلق لنفسه العنان في صدر قصائده على السيرة القديمة المألوفة ولكنهُ كان قد تجاوز سن العشق فجاء غزله ماديًّا كما اسلفنا وظلت المرأة كما صورتها له كبريائه بعد طور الصبا

ومن العجيب ان يذهب المتنبي ضحية امرأة عجاها فأخش فقتله اخوها . وهذا منتهى سخرية الاقدار !

آراء الباحثين

في اصل الشعور الديني

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

كثيراً ما كنت اسأل والدتي في طفولتي ورأسي على حجرها سؤالاً كان يشغل بالي يومئذٍ كما يشغل بالي اليوم وهو « من اين اتى ابي ؟ » فتقول « من جدك » و« جدي ؟ » فتقول « من جد بابا » وهكذا الى ان نصل الى آدم كما هي العادة فاسأل « وماء ومن اين اتى آدم ؟ » فتقول على الاصول « خلقهُ الله من التراب » وهنا تحاول كثيراً ان تقطع الحديث ولكنني ويا للأسف كنت استبق سؤالي شأن من لم يستفرغ الحقائق المنشودة فاقول لها ببساطة الاطفال ومن غير وجل « ومن اين اتى الله؟ » فتعبس في وجهي حالاً وتقطب جبينها وتقول « اسكت ... حرام ... كفر ... » فكنت اسكت حقا ولكن على مضض وانا خائف ان اكرر سؤالي حتى لا اغضبها

تمثل هذه الصفحة المقتضبة من طفولتي تاريخ كثير من الاطفال غيري ، وما حب الاستقصاء المتسلسل الوارد فيها الاّ ميزة من ميزات العقل البشري وصفة ملازمة له لا تستطيع الوالدة مهما كانت محبوبة ومحترمة ان تقف في وجهه . فالسؤال عن اصل الموجودات او عن سبب حدوثها متأصل في النفس تأصل سائر الخصائص التي لازمت العقل البشري منذ ما انتقل من البساطة الحيوانية التي كان عليها . واذا صحّت نظرية النشوئيين فيما يقولون من ان سن الطفولة في الفرد يمثل عصر البشرية في المهد فيكون مثل هذا السؤال الذي ازعج والدتي كثيراً من الاسئلة التي خطرت للانسان الاول وهو لا يزال في الكهوف والبحيرات والغابات ، وكانت مساعيه يومئذٍ للحصول على الجواب الشافي عناية البحوث الاولى في الدين والصل لتعليل السبب والمسبب واللازم والملزوم والازل والابد. لا جرم اننا نرى في جميع الاديان المعروفة خبراً طويلاً مستفيضاً عن بدء الكائنات ومصيرها وعن الخلد والظلمة والنور وروح الله التي كانت ترفرف على الماء وعن خلق آدم من التراب وحواء من ضلعه وكذلك الخبر عند المجوس عن الاثني عشر الفاً من السنين الطوال التي يتصارع فيها اله النور (اهورامازدا) واله الظلمة (اهورامان) وعند الهندوكيين عن تلك العشرات من ملايين السنين التي تنتهي بفناء الخلق واندثارها في براهما

ان هذه الصفحات الغزيرة المستوقاة عن البدء والمصير هي روح تلك الصفحة الاولى التي خطرت لي وانا مستند الى حجر والدتي وستخطر للاطفال امثالي ما بقيت لهذا العقل الذي زين الانسان تلك الخصائص النفسية التي يحق لنا ان ندعوها « السببية » و« التلازمية » و« والازلية » و« والسرمدية » ، وفي نظري ان مذهب النشوء والترقي ان هو الاّ محاولة علمية استقرائية بعثها في قلوب العلماء مثل

هذا الشعور المتأصل في النفس لتعليل الانسان بالعودة بأصله الى الحيوانات من القردة فما دون الى الحيوانات ذات الخلية الواحدة . بيد ان هذه النظرية تقف وقوف سائر المذاهب والعقائد عند ما نتساءل « ومن اين اتت الحياة لهذه الحيوانات الدنيا ؟ » ومتى وصل العالم حتى من كان دهريًّا بحتاً الى هذا المقام فهو ليس ببعيد كل البعد عن منطقة الدين وما لهُ من ولهٍ في تعليل المبدأ والمصير . وفي الجزء الثاني من كتاب « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن القيم الجوزي (ص ٣٥) : « وقال صلى الله عليهِ وسلّم (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقول قائلهم هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليستعذ بالله ولينته »

وقرأت في مقتطف مايو الماضي للاستاذ نقولا حدّاد مقالاً طريفاً عن « الزمكان » فيهِ خلاصة النظرية النسبية للاستاذ (أينشتين) في الزمان والمكان فقلت في نفسي هذه هي الضالة التي انشدها وهذا بيت قصيدي لانهُ يعالج بالطرق الحديثة الفضاء ويضع لهُ حدّاً فلنصغ الى طريقته

قال الاستاذ حدّاد : « لذلك ما نسميهِ فضاء هو فضاء محدود بالمادة ، متناهٍ ، لان المادة متناهية اي ان لها قدراً معيناً والفضاء محدود بها ، لهُ اول ولهُ آخر » ، فقلت في نفسي ان (اينشتين) وجميع شهرته العالمية لم تحل ويالأسف شيئاً من العقدة لاني لا ازال حتى هذه الساعة اسأل بحكم فطري وتركيب عقلي واختباري اليومي في الموجودات « ما الذي كان يأتي قبل اول الفضاء وما الذي يأتي بعد آخره ؟ » ولشد ما كان تعجبي اذ رأيت الاستاذ حدّاداً نفسه يعقب على جميع ما اتى بهِ من البراهين لاثبات ان المكان محدود بجملة واحدة تهدم هذا التحديد وتعود بنا الى المواقف المتحيرة التي وقفها حكماء الهند واليونان والعرب منذ ألوف السنين وهي قوله « ولا تسل عما قبل الاول وعما وراء الآخر فهذا مستحيل على العقل البشري تصوره » وهو لا يختلف كثيراً عن قول الدقي ورأسي على ركبتها « اسكت ، . . حرام . . . هذا كفر . . »

ثم اني لم اقصر سؤالي لها على آدم وتسلسله فقط بل كثيراً ما كنت اسألها عن السماء ايضاً وما فوقها وعن الارض وما تحتها فلم يكن ليصعب عليها ان ترد عليَّ بذكر السبع الطباق وبقرن الثور ولكنني كنت ألاقي منها نفس الاعراض والتقطيب حتى جاوزت السماء السابعة الى العرش وقعر الارض الى قرن الثور

فانت ترى ان البحث في المكان واللانهاية مثل البحث في الزمان والازل خاصيّة من خصائص العقل البشري لا محيد عنها ، وقد جال فيها علماء الطبيعة كما جال فيها الحكماء المتقدمون وعلماء الدين ، ولعمري ان المستكشفات الحديثة في علم الفلك وما توصلت اليه من تقدير الابعاد بالسنين الضوئية قد ضاعفت حيرتنا من هذا الكون وابهته وجلاله ، وكل طالب علم يذكر كيف قضى في فراشه الليلة الاولى التي رصد فيها الافلاك بالمرقب لاول مرة وكيف سبح وهمه ساعتئذٍ بين الاجرام السماوية محاذياً لها حتى توارت له حدود اللانهاية فعاد خاسراً وهو حسير . ومع كل هذا

السلاح العلمي الدقيق الذي نتسلح به اليوم فنحن ازاء هذه المعضلات الزمانية المكانية لسنا بعيدين عن مقام الحيرة الذي بلغهُ اعلام التصوف من رجالنا الماضين ، وبخاصة الحيرة من اللانهاية فقد مثلت هذه الحيرة اشق الادوار وأخطرها في تصوراتنا الدينية ومعتقداتنا الروحية

ولقائل ان يعترض فيقول ان ما ذهبنا اليه من هذه الخصائص العقلية التي مازت الانسان لا ينطبق على الانسان الوحشي الاول فمثل هذه المرتبة الراقية في التفكير تحتاج الى انسجام منطقي لم يبلغه ، وان الطفل ابن الخامسة من ابناء اليوم هو في مقام الحكماء اذا ما قيس بالانسان النيندرتالي مثلاً ، ثم ان الدين قضية اجتماعية من اولها تولدت من اتصال الانسان بأخيه الانسان ولا يكفي في تعليلها الاعتماد على الشعور الفردي مهما كان خطيراً ، وجوابي عن ذلك كله ان الشعور باللانهاية على انواعها ، اللانهاية المكانية التي لا قرار لها واللانهاية الزمانية التي لا منتهى لها ، واللانهاية الطبيعية في القوة التي لا تنضب وظواهرها الجبارة التي يتضاءل عندها الانسان فينقاد لاحترامها وتبجيلها والرهبة منها ساعتئذٍ ، كل ذلك كان له اعظم الاثر في تفكيرنا الديني منذ ما جاز ان يطلق على هذا الانسان انه حيوان مفكر

المذهب الاجتماعي الطبيعي في تعليل الدين : ان هذا الذي ذكرناه في تعليل الدين يحتاج ولا شك الى شيء من الارتقاء العقلي قد لا يكون موجوداً في البشر الاول ، لذلك رأينا ان نطلع القراء على خلاصة رأي الاجتماعيين في هذا الباب وكيف عللوا الظواهر الدينية منذ نشأتها الاولى معتمدين في الاكثر على ما كتبهُ الاستاذان (هوبكنس) و (جيدنغز) وعلى ما ورد في « الموجز في علم الاجتماع » :

ان المشاكل المعضلة التي لقيها الانسان في حياتهِ على وجه الارض فولّدت في نفسهِ الافكار الدينية وما يتعلق بها من أعمال هي مشاكل شديدة التعقد ، والعلائق القائمة بينها دقيقة جداً ، فنرى ان العقل البشري بما بذلهُ من المساعي الجدية للخروج من التيه المرتبك الذي وضعتهُ فيهِ ظواهر الطبيعة والخلاص من الحيرة المختبطة التي احاطت به من البشر انفسهم قد هيأ التربة الصالحة التي نمت فيها شجرة الدين ، فيجوز ان يقال اذن ان البشر الاول وهو منتقل حديثاً من المرتبة الحيوانية العجماء بعقل لا يفضل كثيراً عقل الحيوان خلق في هذا الكون فرأى ما فيهِ من قوى وحشية وبشرية مهيجة فاعتراه الخوف ولكنهُ لم تتضح له جلية هذا الشيء المخوف اذ كانت الافكار التي تجول في نفسهِ لا تزال مجموعة صور خليط لم تدخلها بعد عوامل التنسيق والتبويب . بل امتلأ قلبهُ ذعراً من شيء اطلق عليه العلماء اسم «المرهب الاعظم» او « السحر » وعنوا به قوة مرعبة محجبة تكتنفها الاسرار وتحيط بها الهواجس تسلطت على لب هذا البشر الوحشي وضايقتهُ ولازمتهُ حتى حملتهُ على اتخاذ اتجاه خاص نحوها فكان يفكر كيف يفسر هذا المرهب الاعظم ويعللهُ ويقوم بمعاملتهِ والتقرب اليهِ ومن هنا ابتدأت فكرة الاسترضاء والاستغفار والعبادة كما يتضح مما يأتي

فالبشر حتى منذ ما كان على الحالة الحيوانية ادرك معنى التفوق او السيادة من جهة والخنوع والخضوع من جهة اخرى ، وتوصل الى فهم بعض الاشياء والاحاطة بمعناها وذلك لفهم الناس من حوله ، وتعلم كيف يعقد أواصر الاتصال بهم ويعيش امنوره معهم ، ومن المعقول جداً ان يشد هذا الفهم وتزداد أواصر الاتصال حتى يتسعا فيشملا الظواهر الطبيعية المحيطة به والتي لم يدرك كنهها ولكنه حرص على استمالتها اليه واسترضائها . لم يدرك البرق والرعد والعاصفة والسيل والشلال مثلاً ولكنه توسل بجميع الوسائل التي سبق له ان استعان بها لاسترضاء أخيه الانسان لاكتساب عطفها ورضاها . لا جرم انه فسر كل شيء مستغرب مجهول بالمشاعر التي تجول في نفسه وتجول في نفس البشر اخوانه وعزا اليها ما عزاه اليهم وعامل هذه المجهولات التي اعجزه فهمها بنفس الطريقة التي عامل بها اخوانه ومشى حاله معهم

وعلاوة على ذلك فقد دلته التجارب على ان الطريقة التي نجحت في اكتسابه معونة البشر اخوانه واسترضاءهم قد نجحت هي ذاتها في اكتسابه معونة الحيوانات واسترضائها . وقد تجلى ذلك له في تدجين بعضها والعمل لتأنيسها . ثم ان الصراع الذي كان قائماً بينه وبين الحيوانات البرية قد أرشده حتى قبل مباشرته عمل التدجين هذا الى ان عقول هذه الحيوانات تشبه بعض الشبه عقول الناس من كان عليه ان يتصل بهم ويعاملهم . فاذا كان في وسعه ان يعيش مع الناس ويتعامل مع الحيوانات باتباعه بعض القواعد وسلوكه بعض السبل ، اليس من المعقول ان يستنتج استنتاجاً منطقياً خالياً من الارتباك والتعقيد ان هذه القواعد والسبل نفسها تنجح في فهم واسترضاء اشياء اخرى منتشرة حوله في الكون لا تقل غموضاً وغرابة ؟

وقد احتفظ الانسان بهذا الاتجاه العقلي المنطقي في جميع اعماله وطوال حياته ، واذ كان جاهلاً ان في الدنيا اسباباً غير شخصية تصدر عن قوى طبيعية عمياء فقد توهم الشخصية في كل سبب مرغماً ونسب الى الظواهر الطبيعية من حوله التي لادخل للناس فيها ايدي الاشخاص ، اذن فما دام السبب الذي يحدث النتيجة شخصاً فالواجب ان يكون شخصاً مثل سائر من عرف من الاشخاص — شخص حبيب وكره ، شخص عطف ونقمة ، شخصاً مكوناً من قوة مستغربة غامضة ، عليه ان يعاملها بطريقة من الطرائق . فاذا كانت هذه القوة ساخطة فالواجب استرضاؤها وتسكين روعها ، والطريقة المثلى الوحيدة التي تخطر بالبال هي الطريقة التي يسترضى بها البشر متى كان ساخطاً لذلك تخيل الانسان الطبيعة جميعاً حافلة بالارواح من نحله ، ثم ان شخصيته ذاتها لم تكن اقل غموضاً وتعمية بالنسبة اليه من ظواهر الطبيعة ووقائعها فهو اذا ما ساح سمع صوتاً يهزأ به يتردد من الروابي والغابات وهو الصدى الذي لايدهش أحداً منا ، واذا ما انحنى على البركة ليشرب رأى في اعماقها وجهاً ينظر اليه مثل وجهه او وجه من يكون معه من الرفقاء وهو الصورة المنعكسة عن سطح الماء التي لا يكترث لها احد منا ، واذا ما نام حلم في منامه انه يجول ويقوم بشتى الاعمال ولكنه عند ما يصحو يجد انه لم يغادر البقعة

التي نام فيها ، وفي بعض الحالات الاخرى يضطجع ثم يقوم ويمشي وهو نائم الى ان يصطدم بشيء من الاشياء فيصحو ، اذن فهذه الحوادث الطارئة والاختبارات المتتابعة التي مشى فيها ومال وتكلم هي في منطقه البسيط اختبارات حقيقية وحوادث واقعة لا اضغاث فيها . فكيف يفسرها ؟ كيف يستطيع المرء ان ينام ويمشي في آن واحد من غير ان يغادر مكانه ؟ والتعليل الوحيد الذي يخطر لهُ من جميع هذه المشاهدات هو انه شخص مزدوج مؤلف من قرينين — والقرين في العربية هو النفس او هو الشيطان المقرون بالانسان لا يفارقهُ ، وكلا المعنيين لا يبعد عن معنى الازدواج الذي قصدناه — ففي المنام يبقى احد قرينيه في موضعه والقرين الآخر يتمشى خارجاً ، ومعنى ذلك في حسابه ان لهُ روحاً وهذه الروح تلازمهُ في صحوه ، واما اذا نام او اصيب باغماء او ذهول فانها تغادر جسمه وتروح وتغدو بعيدة عنهُ ، وهي محجوبة عن نظره لا يستطيع مهما حاول ان يراها . ولكن اي برهان على وجودها يا ترى أصح وأسد من هذا البرهان المحسوس الملموس ؟

ثم انه بسائق العقل البسيط الذي يحمله في رأسه يستنتج ان روحاً تشبهُ هذه الروح تحل في الطبيعة كلها وهذه الروح هي شخص ذو خصائص ذاتية مثله ومثل رفقائه ، تحب وتبغض ولها شهوات وانفعالات وعواطف ويساورها الغضب وتشتهي الهدايا والمنح وتصاب بالهوى والوسواس ، اذن فهي شيء ينظر المرء اليهِ بالرهبة والخوف ويعقد معهُ اواصر الصلح والسلم والوئام

ثم هنالك حادثة الحوادث — هنالك الموت وما فيهِ من غرابة وغموض وابهام ، وقد دلتنا جميع الملاحظات التي جمعناها على أن الشعوب الابتدائية البالغة درجة التفكير في الامور تهتم بالموت ، فالانسان الاول وهو مقيم دائماً في وسط القوى الوحشية التي قضت عليها المدنية فيما بعد او أخضعتها ودجنتها لخدمة البشر قلما مات ميتة طبيعية حتف أنفه ، فاذا كتب له أن يعيش فيموت هذه الميتة فانها تكون حينئذٍ ظاهرة غريبة تفسر على هذا النمط المزدوج القائم على وجود آخر هو الروح المحجوبة أو القرين الخفي

والغالب أنهُ يموت قبل بلوغه أرذل العمر وهو سن الشيخوخة البالية اذ يقول انه لا يرى لذة في الحياة بل تكون الحياة على عكس ذلك لا تزال لذيذة حلوة والموت نكبة لا راحة ، ولما كانت الوحوش البرية الضارية والبشر الاشد منها توحشاً وشراسة واقفة لهُ بالمرصاد في كل ناحية للانقضاض عليهِ فالخوف الطبيعي الغريزي من الموت كان ابداً ماثلاً أمام عينيه ، ولما أخذ يفكر في هذه الاحوال والاشياء خطر لهُ هذا السؤال بالطبع وهو « ما هو الموت ؟ » فهل يجد الجواب الشافي عن هذا السؤال الاَّ في تلك الاختبارات التي تشبه الموت كثيراً ؟ لقد نام وأفاق ، ورأى في بعض الاحيان أناساً صرعوا في القتال فأغمي عليهم حيناً من الزمن ثم عادوا الى وعيهم ، ورأى آخرين أصيبوا بغشيان او دهشة وذهول فلما صحوا قصوا على الناس ما رأوا وما سمعوا ، أليس الموت شيئاً مثل النوم والاغماء والذهول الاَّ ان غياب الروح فيهِ عن الجسد أطول أمداً ؟ أولا تكون الروح أو

الذين في حالة الموت حية في مكان آخر ترى وتسمع وتتلذذ وتعي وتشتهي وتفعل وتحب وتبغض كما لو كانت في الجسد ؟ ثم تحدث حادثة منكرة فيس هذا سبب ظاهر ، فليت شعري لم لا يكون ميت من الاموات الساخطين قد أحدثها ؟ فقتل هذا الميت لما كان حيًّا انتقم لنفسه ، والآن وهو ميت وقد غضب واغتاظ فالواجب ان يسترضى ويبدأ روعه بنفس الطريقة كما لو كان حيًّا

وربما كان المتوفى رئيساً كبيراً أو حاكماً للجماعة مطلقاً فيخشى منهُ في موته بقدر ما كان يبجل في حياته وزيادة ، لان المعروف من أمره وهو ميت أقل بكثير مما كان يعرف وهو حي . لذلك لفَّتهُ الموت بالاسرار وحجبهُ بالطلاسم والمعميات فاحاطهُ بالاسباب الداعية إلى الذعر والرهبة ، وهكذا نشأت عبادة السلف أو بمثل هذه الطرق كانت الافكار الدينية الاولى الخالية من الانسجام للاعراب عن نفسها ، وهي أفكار طافحة بالمتناقضات مثل أفكار الرجل الابتدائي أو مثل افكار الطفل الصغير في أوائل تفكيره ، ومغشّاة مبهمة « ومتبلّلة » خليط بعضها فوق بعض تشبه العواطف والانفعالات والاندفاعات المتولدة في نفسه من اتصاله بالكون وما فيه من أشياء وأشخاص . على ان هذه الافكار هي جهود جهدها لانقاذ الموقف الكريه بشيء من العمل مهما كان نوعه ، هي بوادر تعليل نظري للعالم الذي يعيش فيه ، وهي المحاولات المتواطئة الاولى للحصول على الوسيلة التي يتمكن بها من اخضاعه والتسلط عليه . هي آراء منعكسة عن الجمعية البشرية التي هو جزء منها وعضو فيها ، ولهذه الآراء نظائرها في نفسه وفي نفوس الناس من حوله ممن يتصل بهم ، فالآلهة التي يصطنعها لنفسه يعملها على غراره وغرار اخوانه ولكنها اعظم منهم شأناً وأشد بأساً وأسدُّ حكمةً واكثر ابهاماً وأقل جلاء

وقصارى رأي الاجتماعيين الطبيعيين في نشوء الاعمال الدينية والعبادات هو ان اتصال الانسان الابتدائي الاول بالطبيعة وبالناس من حوله ادى الى استحداثها في نفسه فهما من صنعه ويبتدئان من عنده وينعكسان عن تجاربه . وكلما نما الطفل الصغير وأضحى على اتصال بالشخصيات الاخرى تعلم ان يكيف نفسه بحسبها وعلى مقتضى الاحوال التي تحيط بها فهو يرى انهُ اذا قام ببعض الاعمال استرضاها وعقد اواصر الوفق معها وان قام بغيرها أغضبها وأثار حفيظتها ، فهنالك اشياء تستدعي صدورها واخرى تسيئها ، ومن مثل هذه المفاجآت الاختبارية الدائمة يتعلم ماذا يعمل لاكتساب رضاء الشخص الآخر . وعلى اساس هذا الاختبار يستخلص لنفسه قاعدة عامة ويختار دستوراً يوافق جميع الناس . والآن وهو يعتقد ان الظواهر الطبيعية يسيبها اشخاص فانهُ يتبع في معاملته روح الجبل او روح العاصفة مثلاً نفس الخطة التي يتبعها في معاملة الناس . ويجب ان يكون الاشخاص الذين يحدثون هذه الظواهر ويديرون امرها مثل الاشخاص الذين عرفهم لذلك يتخذ اتجاهاً خاصًّا نحوهم ويستميلهم بالهدايا والقرابين ويسكن غضبهم او يكتسب رضاءهم ورعايتهم بالثناء عليهم والتضرع اليهم واقامة الصلاة لتمجيدهم

العناية بالصحة الشخصية

في العهد الفرعوني

للدكتور حسن كمال

١ — ﴿مقدمة﴾ كنا نعرف ان العناية بصحة الفرد اصبحت الآن غير قاصرة على الفحص وقت المرض ووصف الدواء . بل تعددت وتنوعت وأصبحت تعرف الآن بالطب الوقائي . يضاف الى ذلك الوسائل الحديثة في التشخيص والعلاج . وقد تغلغل الطب الوقائي حتى شمل حالات الانسان الخاصة كالمأكل والمشرب والمسكن ونظافة الجسم والعناية بالجلوس والنوم واستنشاق الهواء النقي والاهتمام بالالعاب الرياضية وغير ذلك مما لا يقع تحت حصر . وهذه الامور الشخصية لم تكن الى عهد قريب موضوع بحث فني ولاعناية طبية . لكن مكانتها اصبحت الآن حقيقة ثابتة لا تقل عن التطعيم ضد التيفودية او الدفتريا على سبيل المثال

٢ — وكنا نعرف ايضاً ان المشرب والمأكل والملبس وكثيراً من العادات الشخصية هي وليدة التربة والطقس والوطن وذات صلة وثيقة بمدنية الشعب ورقيّه الفكري واستقلاله السياسي . هذه كلها عوامل جدية في حياة الانسان المعاشية . وعليه نجد للقطر المصري ميزات خاصة منذ قديم الزمان . وهذه الميزات طبيعية واجتماعية . اما الطبيعية فلكثرة الخضراوات والفواكه وانتشار الزراعة والتعرّض للشمس وغير ذلك نجد ان قدماء المصريين كانوا يمرضون بما لهُ صلة بهذه العوامل كالديدان المعوية والبلهارسيا والانكلستوما . واما العوامل الاجتماعية فنتيجة نشاط العنصر المصري وذكائه وفطرته ابتكاره وشعوره بالسيادة . لذلك نجد اجدادنا شديدي العناية بكل ما لهُ علاقة بمظاهر السيادة والتفوّق مثل نظافة الجسم والمسكن ووسائل الراحة والنعيم والعناية بالملبس والصحة بل وحتى تجاعيد الوجه الدالة على الشيخوخة . وقد توسعوا في ذلك تشغلوا بعنايتهم حجرات النوم والدورات المائية والالعاب الرياضية وغيرها . وصحب كل ذلك تحسين وتنسيق وتهذيب على مر الايام حتى بلغ القوم في العناية بأشخاصهم درجة حسدتهم عليها الممالك الاجنبية . وسار هذا المجهود انموذجاً راعى في البلاد الراقية ايما مراعاة ولهُ فيها حرمة التقديس

لكن نكبات الدهر والغارات الاجنبية والاسراف في الترف أضعفت من نفوس المصريين — كما أضعفت من نفوس الرومان — فأنستهم فضل آبائهم واجدادهم وألهتهم عن النافع ووجّهتهم نحو الفساد وذلك منذ الفتح الفارسي عام ٥٣٥ ق . م

ولما بدأنا حديثاً نبحث عن مدنيتنا القديمة اتضح لنا ان كثيراً من العناية بصحة الفرد الحديثة انما يرجع الفضل فيهِ الى مجهود اجدادنا . وسيأتي ذلك مفصلاً ومدعماً بالصور الآتية بوضوح

١ — وليمة تبين المأكل والمشرب واستعمال الكراسي ومرود الخدم والموائد ولبس السيدات وقص شعورهن ٢ — الرسمان الايمن والاوسط يمثلان نوعين غير اعتياديين من عهد الدولة الوسطى والرسم الايسر يمثل الرداء المزدوج ٣ — ثلاثة نماذج الايمن من عهد اخناتون والاوسط من عهد امنحوتب الثالث ويشاهد فيهما الرداء الخارجي الطول من الداخلي . والايسر يمثل اللباس في عهد

قال هيرودوتس (٩١ — ٧٧) ان المصريين كانوا اكثر الناس اشتغالاً بالأمور الدهنية . يشربون مسهلاً كل يوم ثلاثة ايام متوالية . ويعنون بمداراة صحتهم وحفظها بواسطة المقيئات والمسهلات لانهم يعتقدون ويؤكدون ان كل الامراض تأتي من الاطعمة . واورد ديودورس الصقلي ما يؤيد هيرودوتس فيما ذهب اليه . والآثار المصرية والقراطيس البردية تحوي الكثير من المعلومات في هذا الموضوع

٢ — ﴿ العناية بالرأس ﴾ اهتمّ المصريون قديماً بحلق رؤوسهم رجالاً واطفالاً واحتفظوا للاخيرين بخصلة طويلة على احد الجانبين . وكان العمال والفلاحون يخرجون الى الحقول عراة الرؤوس. قال هيرودوتس وهذا خير السبب في صلابة جماجم المصريين وعدم انتشار الصلع بينهم . ولا يعني هذا ان افراد الطبقة المذكورة لم يلبسوا لباساً لرؤوسهم مطلقاً فقد وردت رسوم كثيرة تظهرهم بهذا المظهر في ظروف خاصة . اما سراة القوم فامتازوا بلبس الشعور المارية في الاحتفالات وغيرها. وارسل النسوة شعورهن طويلة ولم يحلقنها الاّ وقت الحزن . واخذ الرومان عن المصريين استعمال الشعر المستعار ولا يزال قضاة الانكليز يلبسونهُ في جلسات محاكمهم

واعتاد القوم ان يحلقوا لحاهم وشواربهم ولا يرسلونها الاّ وقت الاتراح . وجاء في التوراة ان سيدنا يوسف عليهِ السلام حلق رأسه لما استدعاه فرعون مصر من السجن . وكان هذا الحلق ضرورياً حتى انهم مقتوا اكل مرسل لشعره . واذا ارادوا ان يحقروا شخصاً رسموه بلحية وشارب. ولما كان حب النكتة غريزياً في مصر لم يسلم ملوكهم منهُ . فرسم القوم ملكهم رمسيس السابع بقبره في طيبة ملوّن اللحية كانها مرسلة لمدة ثلاثة ايام . وورد على الآثار رسم لرمسيس الثاني في مواقعه الحربية يمثله بلحية مرسلة قصد اثبات انهماكه في الحرب بدرجة أنستهُ حلق لحيته

واختار الكهنة النظافة المطلقة . فحلقوا اجسامهم كل ثلاثة ايام واستحموا مرتين صباحاً ومرتين مساءً كل يوم . واتبع كثير من الاهالي هذه التعاليم . وجاء عن يوسف عليهِ السلام انهُ طلب من اخوته ان يحلقوا لحاهم وينظفوا اجسامهم وقت استحضار والدهم لمصر مراعاة لعادات المصريين واحتراماً لها . وحقّر المصريون الاسيويين واليونانيين لارسالهم لحاهم . ورفضوا اكل حيوان ذبحه يوناني لهذا السبب . والخلافة اولى خطوات التمدين. والخلافون نسل الحضارة . ولا ادل على ذلك من عادة الرومان الذين كانوا يحلقون لحاهم عند بلوغهم سن المراهقة ويقدمونها الى آلهتهم اثباتاً لرشدهم. وعلى ذلك فخلاقة الرأس باكمله عادة مصرية قديمة . وهذا هو السر في ندورة امراض الشعر المتعددة عندهم كالقراع والاكزيما الجافة والسعفة (ringworm) . ويمتاز سراة القوم بلحاهم المستعارة ذات الاشكال المخصوصة. وكان افراد الطبقة الوسطى يزينون بلحى مستعارة لا يزيد طولها على خمسة سنتيمترات ولحى الملوك المستعارة طويلة وذات زوايا مستقيمة . ولحى المعبودات ملتوية الطرف السفلي

واعتاد النسوة ان يرسلنَ شعورهنَّ وان يضفرنها ضفائر رفيعة حتى لوحتي الظهر . وان يرسلنَ

شعر جانبي الرأس المغطى بنفس الكيفية على صدورهن من الامام . وكل ضفيرة عبارة عن مخرمات تعرف كما هي العادة الآن . وتثبت حول الرأس شبكة خفيفة للحلية وحفظ الشعر محله . وتزين هذه الشبكة احياناً بزهرة اللوتس . وكثيراً ما كانت ضفائر الرأس تثبت باشاط او دبابيس كما هي العادة الآن . اما الاشاط فكانت ثلاثة حدين احدها غليظ الاسنان وثانيهما دقيقهما . ويبلغ طول المشط عشرة سنتيمترات تقريباً . وهناك امشاط بحد واحد . والقصد من الاسنان الغليظة تسريح الشعر . اما الدقيقة فلتنظيفه من الحشرات . والمشط من اهم ادوات العناية بصحة الفرد . وابتكاره راجع الى قدماء المصريين . وتستعمل الامشاط الآن في مقاومة التيفوس والحمى الراجعة

واهتم القوم باطالة شعر المرأة واستعملوا لذلك زيت الخروع (ايبرس وصفة رقم ٢٥١) . وكذلك عنوا بانبات الشعر بعد سقوطه كما هو واضح بقرطاس ايبرس (وصفة ٤٦٤ — ٤٧٦)

٣ — ﴿ العناية بالعينين ﴾ ليس هذا مقام الاشادة بفضل قدماء المصريين في تشخيص امراض العيون وابتكار العقاقير الهامة التي لا تزال مستعملة للآن في الرمد الحبيبي وغيره . لذلك سأقتصر هنا على ما كان الفرد يقوم به في سبيل تجميل عينيه . ويشاهد ذلك بوضوح عند السيدات . والمعروف انه كلما زادت الرغبة في اظهار جمال الشيء كانت العناية به في حالتي الصحة والمرض عظيمة

اعتاد المصريون منذ اقدم العصور ان يكحلوا اعينهم . واتى الرومان فأخذوا عنهم ذلك . والقصد من ذلك تجميل العينين باظهارهما كبيرتين وذلك باضافة اطار اسود حولها . واعتقد المصريون ان الكحل يحسن البصر . وهذا يفسر كثرة المكاحل والمراود التي عثر عليها في المقابر المصرية وتعدد انواعها وتباين المواد المصنوعة منها كالحجر والخشب والخزف

وهناك نوعان من الكحل اخضر واسود . اما الاخضر ويعرف بالحجر الملكي Malachite (وهو المعروف كيمائياً باسم green ore of copper) احد املاح النحاس . واما الاسود فهو احد املاح الرصاص (يعرف باسم dark grey ore of lead او galena) والكحل الاخضر اقدم من الاول ولكن استعيض عنه تدريجاً بالاسود . واستعمل القوم كحلهم جافاً او ممزوجاً بالماء وذلك بعد سحقه جيداً في كلتا الحالتين . ويرتد استعمال الكحل الاخضر الى اقدم الازمنة المعروفة حتى عهد الاسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ — ١٢٠٠ ق. م.) . اما الكحل الاسود فبدأ استعماله منذ عهد الاسرة الاولى تقريباً ودام حتى العهد القبطي . وقد عثر على مقادير من الكحل بنوعيه مسحوقة وغير مسحوقة . ولم يعثر على الاثمد (antimony) الا في نموذج واحد من الكحل القديم . اما الكحل الحديث فمصنوع من هباب البخور او قشر اللوز او من حرق القرطم ويستعمل بلّ المرود بالماء ثم غمسه في مسحوق الكحل ثم وضع الكحل حول الاهداب . واقدم مراود عثر عليها يرجع تاريخها الى عهد الاسرة الحادية عشرة (٢١٠٠ — ٢٠٠٠ ق. م.) ويغلب ان القوم كانوا يكتحلون بأصابعهم قبل ذلك . وموطن الكحل الاخضر طور سيناء وصحراء العرب اما موطن الكحل

الاسود فاقليم اسوان وضاحية البحر الاحمر. وقد وردت وصفات عديدة في القراطيس الطبية خاصة بالعين كعتامة العدسة « ايبرس ٣٧٨ — ٣٨٠ » و احتقان العين « ايبرس ٣٩٠ » وتقوية البصر « ايبرس ٤٠٧ و ٤١٤ » والنمرة « ايبرس ٤٢٤ » وضيق الحدقة « ايبرس ٤٣٥ » والرمد الحبيبي « ايبرس ٣٥٥ الخ » والرمد الصديدي « ايبرس ٣٥٤ » وغير ذلك

٤ — ﴿ العناية بالاسنان ﴾ اهتم المصريون بازالة الالم وقت التسنين (ايبرس ٧٤٨) وبتقوية اسنانهم (ايبرس ٧٤٣—٧٤٤) وبتعطير رائحة افواههم بمضغ مزيج من الكندر واليانسون والعسل وغيرها (ايبرس ٨٥٣ ب) . ولم نهتد للآن الى استعمال السواك او الفرش لنظافة الاسنان . لكن يلاحظ ان المومياءات القديمة امتازت بسلامة اسنانها على اختلاف اعمارها . وذلك لان صحة الاسنان تابعة لصحة الجسم فاذا كان الاخير سليماً كانت الاسنان سليمة ايضاً

٥ — ﴿ العناية بالوجه ﴾ عثر على كثير من ادوات الزينة (التواليت) بالمقابر المصرية من قارورات واوان توضع فيها المراهم والاكحال والقطرات . وعثر ايضاً على عدد وفير من المرايا والامشاط والصناديق الصغيرة والملاعق والاطباق الصغيرة . ومراهم القوم المستعملة للوجه والجسم كانت عطرية ولا يزال بعضها عالقاً برائحته للآن . ووضع القوم مراهمهم في مواعين او اوان مرمرية او زجاجية او عاجية او عظمية او عجرية « ولكنسون ٢—٣٤٤ » . وحضّر القوم عطورهم بشكل زيوت او مراهم ورد ذكرها بكثرة على الآثار وفي مصنفات اليونان والرومان (لوكاس مواد مصرية قديمة ٨٥) . والمعروف ان العطور الحديثة عبارة عن محلول كحولي متباين النسبة مذاب فيه العطر . وهذا الاخير يستخرج من الزهر او الفاكهة او الاخشاب او اوراق النبات او حبوب النبات

اما عطور قدماء المصريين فتختلف كثيراً عن الحديثة لجهلهم بامكان ذوبان العطر في الكحول وبطرق تقطير الكحول بالاساليب الحديثة . ويجدر بنا ان نذكر في هذا المقام ان اقدم ذكر للتقطير هو الذي اورده ارسطو طاليس (Meteorologica I 9, 11 II 3) وذلك في القرن الرابع بعد الميلاد واحسن مادة لحفظ العطر بعد الكحول هو الزيت او الشحم . ولا تزال هذه الطريقة مستعملة في استخراج عطر الازهار وذلك بنقع ورق الزهر في الزيت او الشحم المدة الكافية ثم اذابة ذلك في الكحول ثم تقطيره . اما قدماء المصريين فاقتنعوا بنقع الازهار او ما شاكلها في زيت الزيتون او زيت اللوز وزيت الحلبج او الوقوم (Balanites aegyptiaca) او الشحم الحيواني . وولع المصريون برائحة المر واليانسون وصنعوا منها زيوتاً عطرية بكثرة كما رواه پلينيوس وثيوفراستوس

اما احمر الخدين فقد عثر على كثير من بقاياه على الواح بالمقابر وهو عبارة عن ملح حديدي يعرف باسم (red ochre او haematite او red oxide of iron) والغالب ان المصريات لوّن به خدودهن وشفاههن (ارمان ص ٢١٦ رسم ١٠١)

وتتجسم الهمة في ازالة تجاعيد الوجه في العبارة الواردة بآخر قرطاس ادوين سميث الجراحي

« ١٦٠٠ ق . م تقريباً » وتتلخص في غلي نبات يقال لهُ حماية حتى يتحمر اراً ثم دهن الوجه بالسمين الناجم من هذا الغليان ويقرب فعل هذا الدواء من « حسن يوسف » « المستعمل الآن عند العامة لهذا الغرض

ووردت عدة وصفات لملاسة جلد الوجه « ايبرس ٧١٧ – ٧٢٠ » وتحسين الجلد « ايبرس ٧١٥ »

اما المرآة وهي التي تعكس لهم صورتهم الشخصية وتشجعهم على العناية بمظهرهم وصحتهم الخارجية فابتكار مصري قديم كل شيء قديم مفيد . وكانت تصنع من النحاس المصقول بدقة وتعكس المرئيات بوضوح تام . وفي المتحف المصري مرآة قديمة يشاهد فيها الناظر تقاطيع وجهه جلياً . وكانت العادة في المرآة ان تكون مستديرة مثبتة في يد خشبية او معدنية

٦ – « العناية باليدين والقدمين » في مقبرة (صا) بسقارة (٢٦٠٠ ق . م) رسوم تمثل احد الاطباء يعالج اليد اليمنى لمريض يظهر على وجهه أثر الالم ، ورسوم اخرى تمثل علاج القدمين . ويظن (كابار) ان هذه الرسوم تمثل تقليم الاظافر

اما « القفازات » فالمعروف انها كانت مستعملة منذ عهد الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ – ١٣٥٠ ق . م) كما انها كانت ضمن الجزية التي قدمتها آسيا لمصر في عهد الملك تحوتمس الثالث (١٥٠١ – ١٤٤٨ ق . م) . وعثر على كثير من القفازات الكتانية الطويلة المحلاة بخطوط زرقاوية . ومقبرة (توت عنخ امون) تحوي كثيراً من هذه القفازات وهي معروضة الآن بدار تحف القاهرة

والقفازات ابتكار هام في الطب الواقي . ولو انها كانت تستعمل اولاً لتدفئة اليدين ووقايتهما من البرد الا انها لما صنعت اخيراً من المطاط وافادت كثيراً في عدم وصول جراثيم الامراض الى جروح العمليات من جهة وال يدي الجراح من جهة اخرى

اما « النعال » المصرية القديمة فعلى عدة اشكال . فنعال السيدات وافراد الطبقة الراقية كانت مجدولة ملتوية الطرف الامامي وتعمل من سعف النخل او سيقان البردي او سيور الجلد وتكسى بعد ذلك بقماش مرسوم عليه أسير اجنبي (ولكنسون ص ٣٣١) . وعثر على كثير من الاحذية في طيبة والغالب انها من العصر اليوناني وهي مصنوعة من الجلد الاخضر

وكثيراً ما كان القوم يغسلون ايديهم قبل الطعام وارجلهم قبل الدخول في الولائم والافراح (ولكنسون : ص ٧٦) . وجاء في التوراة ان سيدنا يوسف عليه السلام امر خدمه ان يغسلوا أرجل اخوته قبل تناولهم الطعام . حيث ورد بسفر التكوين اصحاح ٤٣ ما تعريبه :

« وأدخل الرجل الرجال الى بيت يوسف وأعطاهم ماء ليغسلوا أرجلهم » . واستعملوا لذلك الاباريق والاطشات كما يرى ذلك على الآثار . وأورد هيرودوتس ان امازيس وزأويه كانوا يغسلون أقدامهم في طشت من ذهب . ووردت على الآثار (ارمان ص ٢٣١ كتابه عن مصر) رسوم توضح أساليب غسيل الملابس وعصرها وتجنيفها مما يضيق المقام عن سردهِ هنا

وما دمنا الآن نتكلم عن العناية باليدين والقدمين جاز لنا هنا ان نذكر شيئاً عن استعمال الحناء

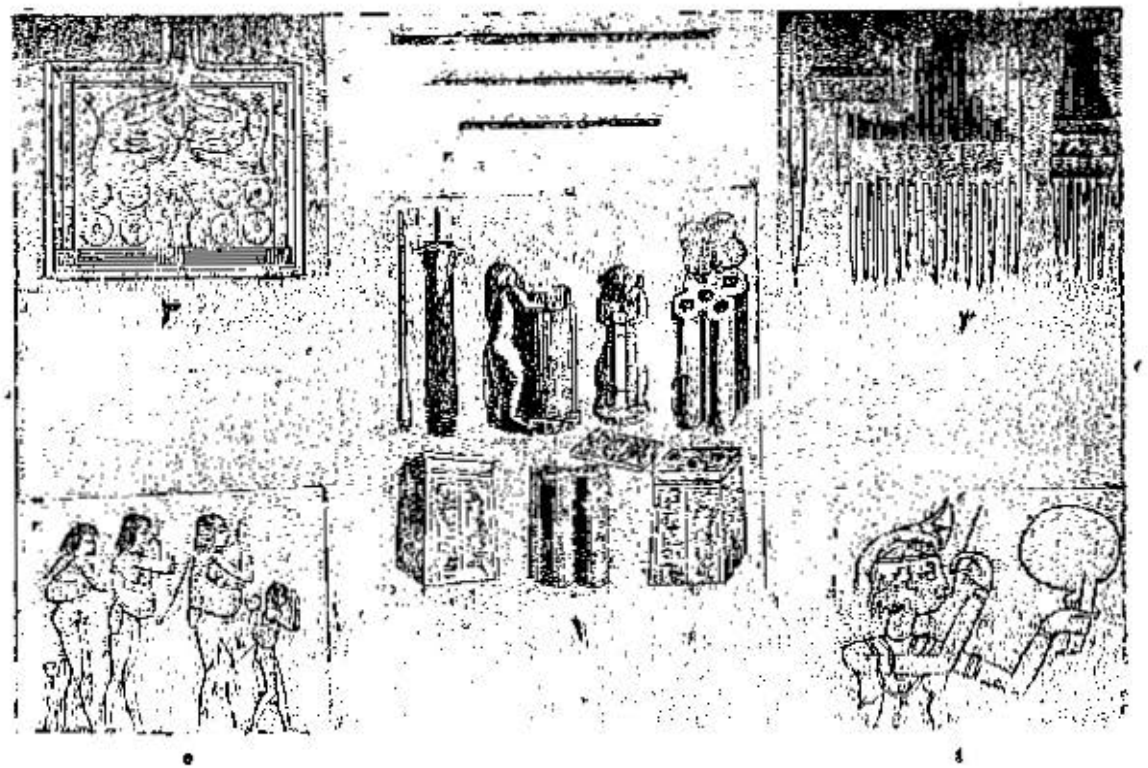

١ — مكاحل مصرية قديمة ومرود ٢ — مائدة قرابين عليها اطباق واوزتان وابريقان ٣ — امشاط مصرية قديمة ٤ — سيدة مصرية قديمة تتجمل مستعينة بالمرآة وترى وهي تخطط شفتيها ٥ — العناية بالاطفال وهي رسوم من طيبة

عند قدماء المصريين. فقد استعملها القوم كما تستعمل الآن وذلك بسحق اوراقها وتحويلها الى معجون باضافة الماء اليها ووضع هذا المعجون على راحتي اليدين واخمص القدمين والاظافر والشعر . واخذ الرومان عن المصريين طريقة صبغ الشعر بالحناء . وعثر الاستاذ اليوت سميث على شعر موميا (حنتاوي) (اسرة ١٨ — ١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) مخضبة بالحناء على الارجح . واثبت بانيل ان اظافر يدي موميا من عهد الاسرة الحادية عشرة (٢١٠٠ — ٢٠٠٠ ق . م) كانت مصبوغة بالحناء ايضاً . وعثر (نيوبري) على اقرع الحناء في مقبرة هوارة من عهد البطالسة

٧ — ﴿ الختان ﴾ وردت عملية الختان مرسومة على مقبرة بسقارة (٢٦٠٠ ق . م .) مما يشير الى ان المصريين كانوا لا يختتنون الا قبل الزواج بزمن قليل . الجثث المصرية القديمة يكثر فيها الختان وهكذا يكون اجدادنا قد سبقونا في اتخاذ الوسائل الجراحية الفعالة للوقاية من الزهري والسرطان

٨ — ﴿ الملابس ﴾ الملابس شأن كبير في صحة الجسم لانها تدفىء الجسم وتحفظ حرارة الجلد بقدر الامكان عند حدها الطبيعي وتمتص العرق . وهي تصنع الآن من الكتان والقطن والحرير والصوف . ومعظم الاقمشة المصرية القديمة التي عثر عليها هي الخاصة بالموتى ولما كان الكتان شبه مقدس عندهم كانت معظم تلك الاقمشة من الكتان . والكتان المصري القديم من النوع المعروف باسم Linum usitatissimum ويرجع تاريخه الى عهد البداري . اما الصوف فانهُ بالرغم عن قلة ما عثر عليهِ من منسوجاته فان سراة القوم صنعوا بعض ملابسهم منهُ . واما القطن فاقدم ذكر ورد عنهُ هو عن (بليني) — القرن الاول بعد الميلاد — واما الحرير فصناعته بدأت في الصين ومنها انتشرت الى الفرس ثم الى سواحل البحر الابيض المتوسط . هذا باختصار تاريخ هذه المواد الاربعة

أما تحوُّل الملبس فموضوع مشوِّق كل التشويق لانهُ ولد وترعرع في مصر . ففي عهد المملكة القديمة « ٣٢٠٠ — ٢٢٧٠ ق . م . » كان اللباس قصيراً ساتراً للعورة بادئاً من الخاصرة ومنتهياً عند الركبة . وحوالي عام ٢٥٠٠ ق . م . ظهر رداء آخر فوق المذكور واصلهُ الى منتصف الساق . وفي القرن السادس عشر قبل الميلاد وبعده زاد حجم الملبس حتى كسى الصدر والساقين . وملابس الملوك كانت تمتاز عن ملابس الامراء . وهؤلاء وكانوا يلبسون زيًّا مخالفاً لزيّ الفلاحين . ولما كان الصغار كثيري التشبه بالكبار في الزيّ اضطر هؤلاء الاخيرون أن يغيّروا ملبسهم محافظة على مكانتهم الاجتماعية كلما لاحظوا أن زيهم أصبح دارجاً . وهذا هو سرّ تغيّر الازياء « المودة »

لكن هناك احوال أخرى تحتم على الشخص تغيير ملبسه ككبر السن وما يتطلبهُ من التدفئة واتقاء تقلبات الجو . كذلك مقابلات الملوك كانت دائماً تتطلب هنداماً خاصًّا

لذلك نجد أن المصري بعد ما كان قديماً يستر نفسهُ بفراء الحيوانات كالفهود أخذ يلبس منطقة حول الخاصرة مثبت فيها من الامام كيس يستر بها عورتهُ . وفي ذلك الوقت كانت النسوة يسترن أجسامهن بملاءة . بعد ذلك ظهر اللباس القصير المنقوش على الآثار والذي يظن أنهُ كان مصنوعاً من

القصب أو الياف النخيل لانه يجري خطوطاً رأسية . ولما تعلم القوم في صناعة الكتان طبر الرداء على الآثار أبيض اللون أملس ومثبتاً حول الخاصرة بحزام . وفي عهد الاهرام زاد هذا الرداء طولاً . وحوالي ٢٦٢٥ ق م . زاد القوم على هذا الرداء بعض الطيات . وحوالي ٢٠٠٠ ق م صنعوا حزاماً لتثبيت الثياب حول الخاصرة انيق الشكل يشتهي تقليداً بالشوطة . ولما تفنن القوم في صناعة المهلهل من الكتان لبسوا ثوباً آخراً تحته لسترالعورة . اما الطاعنون في السن فكانوا يرتدون ثوباً كاملاً لجميع الجسم تقريباً . ومنذ سنة ١٥٥٥ ق . م انتشر بين القوم لباس الاثواب القصيرة الواسعة المثبتة في الخاصرة . واصبح للذراعين كامل الحرية في الحركة لان الجزء العلوي انضاف الى الجزء القديم لا يحيط بالعضدين بل يكسوهما حتى وسطهما . وهذه هي الخطوة الاولى في ابتكار الاكمام . اما الجزء السفلي فحافظ على جزئيه بدون تغيير من حيث احتوائه على جزئين داخلي وخارجي . لكن يلاحظ ان الرداء الخارجي اخذ يقصر تدريجاً من الامام ويزداد طولاً من الخلف

وفي سنة ١٣٨٠ « عهد اخناطون » ازداد الازار الداخلي طولاً وسعةً واما الزي الخارجي فثني الى اعلا وثبت طرفه في الخاصرة فظهر بشكل منتفخ . والازار الداخلي كان يجعداً بهيئة ثنايا صغيرة « تعرف الآن باللفظ الفرنسي (بليسه) . ويلاحظ ان طرفَ الحزام ينحدر اماماً الى اسفل السرة . وبعد زوال اخناطون ودولته بطل زي عصره وصنع القوم لباسهم الخارجي أملساً وزادوه طولاً عن قبل . هذا من حيث زي الرجال . اما لباس السيدات فيتكوّن من رداء واسع او قميص واصل الى الكعبين لهُ كمّان واسعان اوضيقان ملتصقان بالجلد . وهذا الرداء مثبت حول العنق برباط . وكنَّ يلبسنَ فوق ذلك رداءً آخر قصيراً مثبتاً في الوسط بحزام

اما نساء الطبقة الراقية فكنَّ يرتدينَ قميصاً مثبتاً بحزام ملوّن او شريطين على الكتفين وفوق هذا القميص كنَّ يرتدين جلباباً مهلهلاً من الكتان بأكمام طويلة ومربوطاً اماماً اسفل النهدين . وفي بعض الحفلات كانت النسوة يخرجنَ اذرعهنَّ اليمنى من الاكمامين ويتركنها عارية كما يشاهد ذلك في الرسم الوارد في طيبة المجود . واما الأطفال فاعتاد القوم ان يلصقوا في ملازمات ويحسارهم على ظهور امهاتهم او فوق صدورهن واعتادوا ايضاً استعمال التمائم لهم وذلك من ذهب او حجر بهيئة علامة العدالة او الميزان قصد جلب الفضيلة والذكاء وابعاد العين الخبيثة او نكد الطالع كما يشاهد الآن بين ظهرانينا

من ذلك يتضح ان الزي المصري القديم تتوفر فيه كثير من الشروط الصحية كعدم الضيق والخفة وموافقته مادته لمناخ القطر . وابتكر القوم طريقة عمل تمثال لنصف الجسم العلوي « كالمعروف الآن باسم مانوكان » صنعوا عليه الملابس كالذي عثر عليه بمقبرة توت عنخ امون . بهذه الطريقة كانت الملابس تقطع وتخاط وترسل لصاحبها جاهزة مطابقة لجسمه من حيث الطول والعرض وخلافه مما يزيد في مظهر الشكل رونقاً وجمالاً

« البقية في باب الاخبار الطبية »

تحديد الأدب

بقلم حليم متري

يستطيع هذا الجيل الصاخب بشتى المظاهر أن يلهم الاديب من المعاني والصور ومن الأفكار والآراء ما يؤهله لدرس معضلات الحياة. ويستطيع هذا الجيل أن يلهم الاديب من التعابير المستحدثة والاخيلة الرائعة ما ينتج به ، أدباً خالصاً ممتازاً ، يستطيع هذا الجيل ان يلهم الاديب هذا ويستطيع أن يلهمه اكثر من هذا ككل عهد من العهود أو جيل من الاجيال في تاريخ الحياة الانسانية. فقد لا يحسب الادب قوة ناقدة اذا لم يطرق هذا الكون بحثاً ودرساً. وليست الحياة قاصرة على العلم بحقائق الاشياء بل ليست الحياة متجهة دائماً الى النظر الفلسفي أو متجهة دائماً الى الهدف العلمي. فالحياة العقلية في الانسان بدأت بالدين وستنتهي حتماً بالعلم. وأقول ستنتهي بالعلم لأن العلم بعيد الغور لا يستطيع عالم في أي فرع من فروعه أو قسم من أقسامه ان يحدده ولا يستطيع ان يدل على نهايته. بل لقد استأثر العلم بكثير من الحقائق او ما يشبه الحقائق فلم يخرجها عن كونها « ظواهر اجتماعية » كغيرها من الظواهر العامة في الوجود. أليس يرى العلم في الفن أنهُ ظاهرة من ظواهر التاريخ؟

ثم أليس يرى العلم في الدين انهُ ظاهرة من ظواهر الاجتماع كاللغة يبحثها على الضوء الارضي الذي يبحث عليه نشوء الجماعة نفسها. ويعلل ذلك بأن الدين وما يشبه الدين واللغة وما يشبه اللغة انما درسا وجودهما كما درست الجماعة نفسها وجودها في الحياة . . . ! واذن فالعلم هو التحليل والتطور عماده البحث والاستقصاء بل ان وظيفة العلم التي يسعى لاثباتها وصف الظواهر وتحليلها الى عناصرها الاولى. فالحياة العقلية اذن لا تستطيع ان تنتهي الى العلم الا اذا مرت في مرحلة تطورها بالأدب والفلسفة. ولعل اتصال الادب بالفلسفة مما جعل له مكانة خاصة في تراث الثقافة العالمية. بل لعل اتصال الادب بالفلسفة مما جعل للحياة العقلية هذا الانتاج الفكري القوي الذي ينمو بتطور الحياة نفسها وينمو بما فيه من حيوية

أما الادب فهو الانتاج الفكري في قالب المنطق والخيال. وان كان التعبير عنهُ باللفظ المختار واعتماده على المادة والروح — اتضح هذا التعبير. ولا ينبغي للاديب أن ينحو نحواً خيالياً عامًّا فيكون تعبيره حسيًّا فرديًّا أو ينحو نحو المنطق فيكون تعبيره علميًّا تركيبيًّا ناتياً عن الروح الادبي. فطبيعة الادب اذن ان يمتزج مزجاً دقيقاً ليجمع بين هاتين الناحيتين وهذا المزج هو التصوير

الحقيقي للادب بل هكذا يجب أن ننشىء الادب ونتروّاه . فنشوء الادب كنشوء أي كائن حي يتخذ حياتهُ من طبيعته الاولى التي تحوي التراكيب والمعاني . فالتراكيب تهيىء رسمه وقيمة وجوده المادي . والمعاني تهيىء العقل ما يتضمنه من تعيين عبارة أو وصف خاطرة أو التبيان عن عاطفة . والادب اذن يستمد عنصريه من اللغة ومن العقل فاللغة لها نشوؤها الخاص ولسنا بصدد بحثه فرجع هذا الى «علم اللغات» والعقل له مناحيه واستنتاجاته ومظاهر تفكيره العامة .

***

والادب فن من فنون الجمال . غايته تصوير ما في النفس الانسانية من معان وأوضاع وما في الاجتماع من أساليب ونظم . وما في الوجود من آثار قيمة لها مكانتها . وما في الحياة بوجه عام من اخلاق وطبائع ومن أسباب ونتائج . على أن الادب في العصر الحديث يشمل مناحي جديدة في الدراسات النفسية السيقة فيعرضها على انها طائفة شائقة من البحوث الخالدة التي تستحق التسجيل والتي يجب ان يعرض لها بكل ما فيه من آداة للبحث . . . وفي هذا الجو نشأت الدرامة والقصة التحليلية وأشباهها من الآثار المستحدثة . والادب لكي ينتهي الى هذا كله يتخذ العلم والفلسفة سبيلاً لتوضيح هذه الموضوعات . بل يتخذ أداته الطبيعية لايداعها في أجزل اسلوب وأثرى معنى . وليس الادب حديثاً للفظ منمق أو عبارة منوشاة انما الادب أسمى من أن يقصر على هذه الألفاظ الجوفاء التي اتسم بها كتّاب العصر الماضي عند ما كانت «المقامة» وأشباه المقامة والهجاء والمديح في الشعر تطمو على هذا الفن الرائع . وحياة الادب في استيعاب شؤون الحياة نفسها فليس بدعاً ان يعرض الادب للاجتماع أو الاقتصاد أو التاريخ كما تحتكم للعلم أو كما تحتكم للفلسفة . فالادب مرآة الجيل اي الظواهر الحية بوجه عام . ولسنا بصدد حالات معينة أو طائفة من الآراء خاصة تدع الادب وقفاً على بحث دون آخر . واذا كان العلم لم يدع شيئاً مادياً أو روحياً الاّ وتناوله بحثاً واستقصاء ، فأحرى بالادب أن يصور المثل الأعلى لاتساع الامد العقلي وسبر غور الحقائق المعنوية في اطراء المعضلات الاجتماعية اذ انهُ من تحصيل الحاصل ان ينتهي الادب الى تقدير الالفاظ ودلالتها على المعاني . او المشتقات اللغوية فليس هذا موضوع الأدب . وليس هذا مجال البحث القائم على الاسلوب العلمي . ولكي نقدر هذا ينبغي ان نعلم ان هناك طبقة من رجال الادب تنتصر للاساليب القديمة التي محورها البهرجة والزينة . والتي تنفرد بالمديح حيناً وبالهجو حيناً او تفهم من الأدب انهُ آداة للكسب . ولعلّ هؤلاء يصورون احوال الناس وطرائقهم في الحياة كما تحكم المادة وحدها . وشر الأدب ما استعمل في تصوير وجهة خاطئة في لباس من الصدق وان كان في هيكل من هياكل البيان الرائق الجذاب . بل شر الأدب ما استعمل في الحياة لاكساب الشر معنى الخير وهو عنهُ نافٍ . ولعلّ في تاريخ الشعراء والكتّاب في عصور الادب المتباينة ما يقرر هذه النظرية . ولعلّ في تاريخ الشعراء والكتّاب ما يعبر بأجلى بيان عن ابتذال الادب اذا ما استخدموه في مباذل صهودهم وجعلوه

سبيل حديثهم وعلاقتهم بالخلفاء والامراء واصحاب السلطة ... ان العصر التي ساد فيها هذا الأدب لا وجه فيها بتاتاً لنهضة ادبية جديرة بالتقدير . فليس تحقير النفوس والإغراق في غير مستبق بأدب وان بلغ فيه الاسلوب حد الاعجاز . وليست الرفعة الكاذبة بمجدية خيراً على الحياة والواقع ، وان صورت بأطياف الطبيعة وكان الفن فيها حقيقة ملموسة . فادب المديح او الهجاء له أسلوب خاص فيه كثير من الإثم والمبالغة

بين التقليد والخيال

يجب ان نعلم ان هناك طبقة من الادباء تمجد هذا الروح القديم الذي سيطر على الحياة الادبية في العهدين الجاهلي والاسلامي . وقد انفرد هذا الروح بنزعة اللفظ المبهرج في مختلف المناسبات الادبية فحوته الرسائل الخاصة والعامة والاحاديث والخطب والمديح والهجاء في الشعر والنثر والتفاسير والسير والتاريخ بوجه عام . فالكتابة بأسلوب معين متشابه في كل مناسبة تثبت معنى التقليد وتحصر فيه ميزتها ولعل التقليد في الادب العربي يلمس لمساً شديداً في هذه الفصول التي كان يكلف الأدباء واشباه الأدباء وضعها في سبيل الامراء والخلفاء من اصحاب القوة والسياسة فكان الأدب التقليدي ادب فئة خاصة لا تظفر فيه بعواطف العامة ولا تلمس فيه الروح الانساني الشعبي بل تستطيع ان تجد فيه هذه الالقاب ومظاهر الثراء واخبار المجالس التي يكثر فيها السمر والشراب والتي اقتصرت عليها حياة بعض الخلفاء والامراء والتوابع والخدم . ولعل هذا تلمسه في كثير من ادب الشعراء وأخبار الادباء . هذا الادب الذي ساد في العصر الوسيط . على ان العامة كان لها كلف شديد باستطلاع القصص التي كانت تتلى عن الابطال والعظماء . وكان لها ولع خاص بهذه الموضوعات التي تصور حياة الناس ووقائع الملوك والقادة . وكان الكتّاب الشعبيون يثيرون بهذا شعوراً قوياً . فبدأوا يوضع الاقاصيص الخيالية التي لا تنطبق في كثير او قليل على الواقع والتي لا تخرج عن حد المبالغة في تصوير الوقائع والحوادث . ويجد الكتّاب والشعراء اذن في هذا انصرافاً عن هذا الادب الخاص الذي لا يعدو اصحاب السياسة وينحصر في مرضاتهم

على أن هذا اللون من الأدب الخيالي كان نتيجة لازمة لعهد الأدب التقليدي وان كنا نرى في الأدبين التقليدي والخيالي صوراً مشوّهة فيها كثير من التعنيف والتحريف عن الادب الواقعي . واني لألمس في اشباه « الف ليلة وليلة » هذا اللون الظاهر للأدب الخيالي . فالف ليلة وليلة من المصادر الدالة على النزعة الخيالية في الأدب . على ان هذا اللون الخيالي لم يترك غرضاً الا وعالجه في لفظ مسطح ودقة إداء وبلاغة تعبير

ولقد اعتمد الادب الاوربي على هذه النزعة الخيالية العربية التي اكسبته لوناً جديداً من الوان التأليف والتي كانت محط العواطف الانسانية الشعبية ترى فيه راحة وإقبالاً لمناحي غرائزها وتذكيرها

ولقد نشأ الأدب «الرومانتيكي» على انقاض الحياة العربية . وانك لتلمس فيه روح الأدب العربي في المعاني والآراء والنتائج .. ويعييك التحليل والبحث اذا أرجعتهُ الى الأدب اللاتيني .. لانهُ لا ينتمي اليهِ بحال

النزعة الانفرادية والادب القومي

الادب نوعان خاص وعام . فالادب الخاص ما يصور حياة جماعة او امة . والادب العام ما يصور حياة جيل ملخصاً في مجموع طائفة من الامم والشعوب . والادب العام هو الأدب الذي يحدد التفكير الانساني والعقلية الاجتماعية في شتى مظاهرها . فالادب العربي له نزعته الخاصة في العصر الاموي وله نزعة اخرى تغايرها المغايرة كلها في العصر العباسي على ما بين العصرين من مواضع للشبه ومناحٍ للتمثيل . ولقد زخر الأدب بلونيه الانشائي والوصفي في هذا العهد العباسي العظيم كما اتيح لهذين اللونين ان يظهرا ظهوراً واضحاً ايضاً في غضون الحياة العربية بالاندلس . فكان للادب من منثور الكلام ومنظومه روح خاص وطابع ممتاز في املاء الخواطر النفسية والمشاعر الاجتماعية . فكان الطابع الانساني لحياة هذه الطائفة الخاصة من الناس سبيلاً لانشاء الشاعر وسبيلاً لخلق الادب العصري المصور للحياة «الارستقراطية» التي سادت جو الامراء والخلفاء . كما تناول الادب الوصفي حياة هذا الادب الانشائي تناولاً عامًّا يحلل ما فيه من قوة وضعف ومن خيال وحقيقة . وبخلق هذا الادب الوصفي سادت الحياة الاجتماعية ظاهرة النقد في مناحيها المختلفة . ولقد نشأ الأدب العام بنشوء العقلية الشرقية متمثلة في الجنسين السامي والآري . ولعلك تجد هذا واضحاً في ادب القدماء المصريين . فهذه الناحية من حياتهم العقلية تجدها في قصص البردي والاقاصيص الدينية التي اخذت تنمو في صورها الذهبية وقد تزعمها الكهان والملوك والوصفاء . والادب الآري له نزعة خاصة من وجهة الخيال وفيه آثار الروح الشاعرة التي لا تحيى في جو التفكير المادي . والادب الآري يحوي فيما يحوي الادبين الهندي والفارسي والادب الهندي ادب الحكمة العالية والفلسفات الدينية والتصوف وله في الجوهر منزلة خاصة عند مؤرخي الآداب العامة . والادب الفارسي له تاريخ عظيم في سجل الآداب الشرقية وبه طائفة من صفوة الكتاب والشعراء المنتجين ويكفي ان نذكر على سبيل المثل منهم الشاعر العظيم الفردوسي صاحب الشاهنامة

والادب الذي يعبر عن رأي خاص لكاتب من الكتاب او جماعة من الجماعات هو الذي يدعو الى النزعة الانفرادية وأما الادب القومي فهو ادب خاص بأمة لا تستطيع ان ترده الى غيرها . فالادب العربي أدب قومي لا تستطيع ان ترده بحال من الاحوال الى الاغريق او اليونان وانما الادب الانجليزي ليس ادباً قوميًّا في نشأته لانهُ يردُّ الى الادبين اللاتيني واليوناني . على ان الأدب العالمي بصفة عامة ما هو الا المثل العليا الجديرة بالتسجيل والخلود . والمثل الاعلى في الادب يمثل النظرة الفنية له . فقد

تكون هذه النظرة خاصة بالحقيقة او بالجمال او بالدين أو بالطبيعة . نعم النظرة الفنية لا النظرة العلمية او النظرة الطبيعية او النظرة الفلسفية . فالنظرة الفنية نظرة المزاج ونظرة النفس وطبيعة الخلق واكمال الثقافة . واما ما عداها فنظرات فيها هذا اللون من الادراك العقلي الخاص بالنفس وكنه الاشياء او هذه الفلسفة التركيبية التي عبر عنها بادراك الحكيم الاجتماعي العالمي « سبنسر »

على ان نظرة الاديب في الحياة تحدد ادبه او تحدد عقليته الاجتماعية في الحياة والوجود وهذا ما يعبر عنهُ مواهب الاديب وطابع أدبه أو ما ندعوهُ « رسالة الأديب ». فايسن كانت له رسالة في حياته وان عرف عنهُ طابع «الهوسة» وشو يمثله من الوجهة الاجتماعية في هذا العصر وولز له رسالة « العالمية » و « وأتوفارنجر » له رسالة « الجنسية والنوع »

وعالمية الاديب تكوّن عظمة الأنتاج العقلي لأمة أو أمم ولشعب أو شعوب على ان الأدب الذي يمثل العالمية من فجر التاريخ هو الأدب الاغريقي الذي يدعو الى كثير من التأمل والدرس والذي يصور في مجموعه أرقى نزعات الآداب واقراها . قال اليوم يُعد غذاء طائفة كبيرة من اعلام الكتّاب وأئمتهم . بل ان طابع القوة لأدب هذا العصر يستقي خصائصه ومميزاته من عناصر الأدب الاغريقي

حرية الادب

هي روح البحث العلمي الذي يجعل من الادب فنّاً قائماً بنفسه فيهِ عناصر الاستقلال يتحدث عن الشعور والحس بل هذه الحرية ما ينبغي ان نتناول فيها الأدب كما نتناول ظواهر الحياة كلها نتناوله كما نتناول فنون الجمال وكما يتناول العالم الرياضي أو الطبيعي الموضوعات العلمية بالبحث والتحليل. يجب ان نُخضع الأدب للحياة لا أن نخضع الحياة للأدب . فالجوهر ان نترك هذا للمعتقد الباقي الذي صور الأدب في هيكل القداسة والالوهية . والذي لم يجرؤ اصحاب الأدب القديم ان يبحثوه على انهُ شيء يستحق البحث . ان هذه الحرية تتيح للأديب حقّاً وافراً من قوة البحث بل ان هذه الحرية التي تسود جو الأدب هي الفضيلة العلمية التي يستطيع الأدب ان يفخر بها والتي تُعد درّة التفكير في جبين الثقافة الحديثة

بين الادب والدين

الحياة كفكرة . و الحياة كمذهب من المذاهب . والحياة كما افهمها انا لاكما تفهمها انت . والحياة كحوار متصل بين اصحاب الأدب واصحاب العلم أو بين اصحاب الأدب واصحاب الدين جعلت العقول تتحفز للوصول الى معنى فيهِ شيء من الاستقرار وفيهِ شيء من الاقتناع . على ان الأدب الذي عاصر الدين من يوم بعثه كان ولم يزل عنصراً لازماً لنشره وكان ولم يزل سبباً لهذا

الضرام المستعر الذي يقوم بين اصحاب الأدب والفكر الحر وبين اصحاب الدين . فشاعر المعرة لا تستقيم آراؤه واصحاب الدين وقد كان الغزالي متهماً بالالحاد وان مات وهو حجة الاسلام وقد يكون هذا سبباً لتعريض اصحاب الأدب برسالة العقيدة أو المذهب الديني ولقد كانت كتابات روسو وفولتير وريتان نقداً عنيفاً للمذاهب والمعتقدات بل أن « جحيم دانتي » أروع صورة من صور الأدب المناهض للدين . مصدر هذا كله هذه الثورة التي طالما خبا أوارها في صدور الادباء المفكرين الذين يجعلون من اقلامهم سبيلاً لبعث الأدب الحي الذي يعبر عن مكنونات النفس الروحية وكان الادباء في اوربا في خفية هذا الصراع يسيرون على نمط زعيمهم الأكبر « ديكارت » عندما نشر كتابه « عن الاسلوب » واصبح من حق المفكرين ان يقيموا الحجج أمام اصحاب الدين ممن استولوا على سلطة العلم والفن والثقافة في وقت واحد . وقد قرر الأدب حقاً يرم اتيح للدولة ان تنفصل عن الكنيسة

بين الادب والسياسة

العلاقة بين السياسة والأدب قائمة على ممر العصور . لا سبيل الى قطعها . فقد تطغى السياسة على الادب كما تطغى على العلم أو الفلسفة . فالتاريخ يحدثنا عن هذا كله والتاريخ يحدثنا مثلاً عن فوز الأدب في فترات الخمود السياسي . والتاريخ يحدثنا ايضاً عن ازدهار الأدب في إبان النهضات السياسية . نعم قد تدعو السياسة الى نهوض الأدب أو الى اهماله وقد تكون السياسة باعثاً قوياً على نشاطه وذيوعه ولكن الادب في الحالين لا يكون صالحاً للتعبير عن المثل الأعلى الذي من اجله وجد . فالأدب قد يقرر هذه الحالات كلها وقد يعرض لها في شيء من التحليل والتفصيل

على ان هذه الحالات استحقت التسجيل والتقرير فهي صورة من صور الوصف المحدود بالزمان والمكان أو هي صورة نقدية لعصر من العصور ادعى للاثبات . وان كان الفن فيها مفقوداً أو شبيهاً بالمفقود

نعم قد تعتور الأدب فترات ركود أو خمود ويكون سببها هذه المحن السياسية وهذه الدوافع الخفية التي تحوط الجو الأدبي . ولكن الثورات السياسة التي تعرض للحياة الاجتماعية كثيراً ما تنهض بالأدب فيبرز في حلته الرائعة ومظهره الاعلى . وقد نرى ابلغ دليل نهضة الأدب الفرنسي الثائر عقب نهوض الثورة الفرنسية الكبرى متمشياً مع النهوض الاجتماعي الفكري في كل مظاهره وكذلك نهضة الأدب الانجليزي في اواسط القرن التاسع عشر في اعقاب عهد « البعثات » وبزوغ فجره في العصر الفكتوري المجيد

المعادن والتبعات الدولية

مكانتها في الصناعة

وصلتها بالحرب والسلام

يعتمد الانسان كل الاعتماد على الوسط الذي يعيش فيهِ . ولكن هذا الوسط قد بلغ من التعقيد في هذا العصر بحيث يتعرّض الانسان لنسيان العوامل الطبيعية والحيوية التي لا غنى عنها لحياتهِ . فارتقاؤهُ الاجتماعي الى المرتبة التي بلغها الآن ، قد استغرق نحو مائتي الف سنة ، كان همّهُ الاكبر في خلالها ، حاجتهُ الى الطعام ، والى وسط مؤاتٍ يعيش فيهِ ، ورغبتهُ في انجاب الاولاد . ولا تزال هذه البواعث بوجهٍ عام همهُ الاكبر الآن . الاّ ان التقدُّم الاجتماعي في القرون الحديثة ، وخبرة اسلافهِ المتجمعة ، وسعت نطاق الوسط الاجتماعي ، وجعلتهُ شديد التعقيد ، فأصبح يشتمل في ما يشتمل عليهِ على جميع الوسائل اللازمة لصحتهِ الخاصة وصحة جماعتهِ والاساليب التي لا غنى عنها لرفاهتهِ وسعادتهِ

فحياة ملايين من الناس في هذا العصر ، لا تعتمد على انتزاع المواد اللازمة للحياة من صدر الطبيعة بالسعي الفردي ، بقدر ما تعتمد على نظام اجتماعي ، يمكن الجماعة من جمع المواد الخام وتحويلها بالصناعة الى عروض وبضائع نراها اليوم اشدّ ما تكون حاجةً اليها ، بل لا غنى لنا عنها

في هذا العصر ، الذي انتظمت فيهِ الصناعة على اساس واسع النطاق ، وساء فيهِ التوزيع . يميل الانسان الى ان ينسى ان المواد الخام من حيث توزيعها الجغرافي ، وجودتها ، ومقاديرها ، مسيطرة على حضارتنا الحديثة

ويمكن ان تقسم مصادر الثروة الطبيعية الى قسمين عامين احدهما زراعيٌّ ، والثاني معدنيٌّ ، وقد ازداد مقام المواد المعدنية في ارتقاءِ الانسان الاجتماعي ، ازدياداً مطرداً حتى بلغ ذروتهُ في هذا العصر الذي اطلق عليهِ بعض الكتّاب اسم « العصر الآلي » او « العصر الميكانيكي »

ولا يحتاج الكاتب الى اقامة الدليل على انهُ لولا الفلزّات ؛ لما كان في المصانع آلات ومحرّكات ، ولا في الاسواق ما تنتجهُ المعامل من العروض . ومن خواص الفلزات metals انها تستخلص جميعاً من معادن Minerals . والمعادن التي لها قيمة اقتصادية مركزة في الغالب في أتربة وصخور تعرف باسم تبر او ركاز Ore . فاذا نقد التبر تعذّر على الانسان ان يصنعهُ . فالمعادن ، تختلف عن مواد الغذاء واللباس ، في انها مما لا يمكنه صنعهُ ، كما نصنع الحرير الصناعي بدلاً من الحرير الطبيعي .

ثم ان الوقود المعدني عبارة عن طاقة مخزونة تألبت عوامل طبيعية خلال ملايين من السنين على خلقها وفي وسع الانسان ان يستهلكها ولكنهُ عاجزٌ عن صنعها . فنفاد مصادر الثروة المعدنية ، مرهون بما يكشف منها، مما لم يكشف حتى الآن، وبمعدل استهلاكها . ومما لا ريب فيه ان الانسان لم يكشف حتى الآن جميع مصادر الثروة المعدنية . وقد ارتقت في العهد الاخير الاساليب العلمية في البحث عن المعادن المطمورة في احشاء الارض والاعتماد عليها زاد مايعرف من انواع الوقود والمعادن المخزونة

الا ان موضوع المصادر المعدنية كالفحم والنفط والمعادن الفلزية من ناحية توزيعها الجغرافي اهم جدًّا من الوجهة الدولية من موضوع نفادها وتعيين ميعاده

فاذا صرفنا النظر عن الفلزات الثمينة اي البلاتين والذهب والفضة ، وجدنا اثني عشر فلزًّا مهمًّا توجد في بركيات معدنية معقَّدة . ففي بيان احصائي لحكومة الولايات المتحدة الاميركية هنالك ٢٨ معدنًا تبلغ قيمتها سبعون في المائة من جميع المواد الخام المعدنية التي تتداولها التجارة . ويدل البحث الجغرافي الاقتصادي ، ان الولايات المتحدة الاميركية والامبراطورية البريطانية تسيطران على ثلثي مصادر المعادن التي لا ندحة عنها للصناعة في هذا العصر. وبكلمة واحدة ان الشعوب الناطقة باللغة الانكليزية قد فازت تدريجاً وبوسائل مختلفة بالسيطرة كلٌّ السيطرة او بعضها على الجانب الاكبر من ثروة الارض المعدنية . واهم هذه المعادن الاساسية في الصناعة هي الحديد والنحاس والالومنيوم والرصاص والخارصيني (الزنك) والقصدير والنيكل وتليها المعادن اللازمة للاخلاط المعدنية اي التي تستعمل لتقسية المعادن الاساسية وهي الانتيمون والكروم والمنغنيس والتنغستن

ويضاف الى ما تقدم معادن غير فلزّية مثل الفحم والنفط والنترات والفوصفات والبوتاس وغيرها مما لا ندحة عنهُ للنجاح الصناعي والزراعي

***

فاذا كانت الأحوال الدولية سوية ، فالولايات المتحدة الأميركية تملك مصادر جميع المعادن التي تحتاج اليها ، ما عدا فلزّات الاخلاط (الانتيمون والكروم والمنغنيس والتنغستن) والنترات . وقد يكون من بواعث الدهشة عند القرّاء أن يعلموا ان الولايات المتحدة الاميركية تنتج في الاحوال السوية ٧١ في المائة من محصول النفط العالمي ولكنها تستهلك اكثر مما تنتج ولذلك تحتاج الى الاستيراد . اما المواد المعدنية التي تستطيع ان تصدرها اميركا الى الخارج ، لان ما تستخرجهُ منها من مناجمها يفوق ماتستهلكه فهي، الفحم والفوصفات والكبريت. ويمكن ان يقال بوجهٍ عام ، ان الولايات المتحدة الاميركية على غناها بالثروة المعدنية ، تفوق أية دولة اخرى في مقدار ما تستهلكه منها

فاذا نظرنا الى المانيا وجدنا انها اصبحت بعد الحرب الكبرى ، ولا تملك مصادر للمعادن الفلزية تفي بحاجتها الداخلية . ففي بلاد مصادر محدودة جدًّا للنحاس والحديد والرصاص ، ثم انها تعتمد

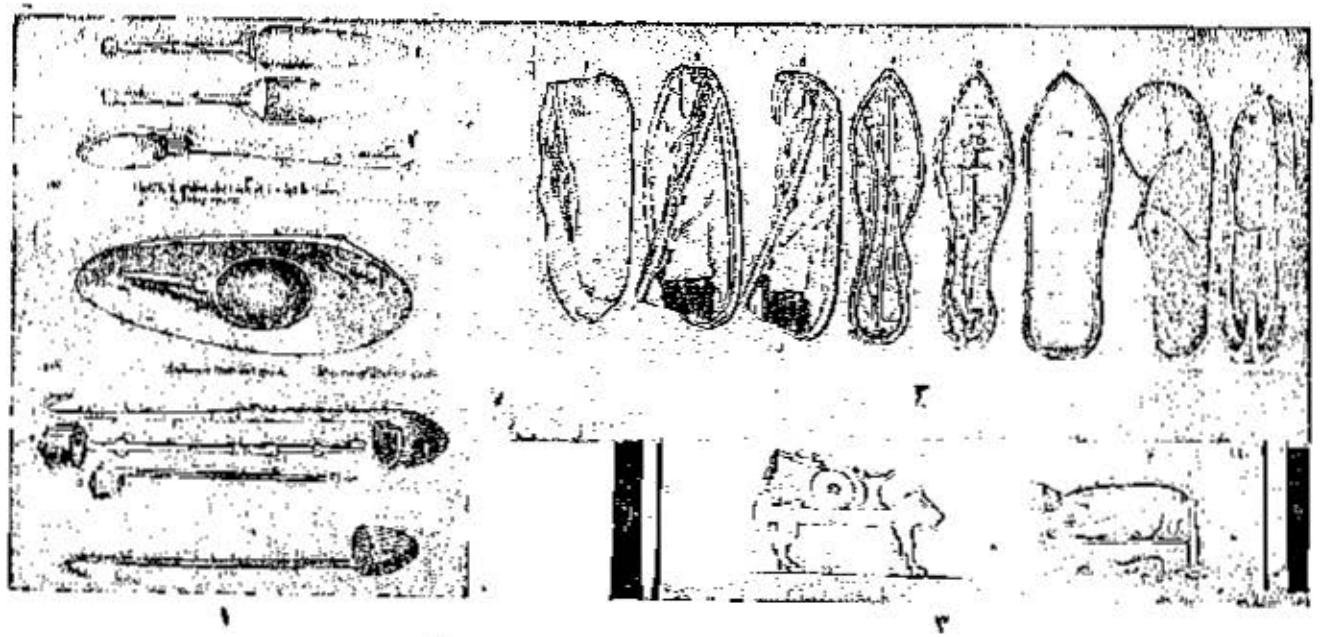

١ — ملاعق ومغارف مصرية قديمة ٢ — احذية ومداذل من العهد اليوناني في الغالب وبعضها اقدم من ذلك
٣ — (يمين) مضجع للنوم من عهد المملكة الحديثة. (يسار) سرير نوم بمعداته : وسادة . مسند للرأس . (ملشة) لطرد الذباب

كل الاعتماد على البلدان الاخرى في الحصول على سائر المعادن . الاّ انها غنية بالنحم والبوتاس وما يستخرج منهما يفوق ما تحتاج اليه منهما

أما فرنسا فلا تقل المانيا كثيراً من هذا القبيل . فهي تستخرج من أرضها من الالومنيوم والبوتاس والحديد اكثر مما تحتاج اليه منها ولكنها تحتاج ، كما تحتاج المانيا ، الى استيراد النفط وجانب مما تحتاج اليه من الفحم

أما انكلترا فما يستخرج منها من الفحم يفيض على حاجتها ، وحديدها يكفيها ، والمقادير المستخرجة من الرصاص والقصدير لا بأس بها . الاّ انها تحتاج الى استيراد كل معدن آخر . ولكن اذا حسبنا انكلترا قلب الامبراطورية البريطانية ، وجدنا ان ما يستخرج من الامبراطورية يفيض عن حاجتها جيداً ويصدّر الى الخارج ، الاّ الانتيمون والبوتاس والزئبق

قوة بريطانيا العظمى الاقتصادية تتوقف حقيقة على تماسك الامبراطورية البريطانية ، ومقدرتها على استخراج المعادن الضرورية اللازمة للصناعة من مصادر لها عليها سيطرة سياسية او اقتصادية . فاذا قربنت من هذه الناحية بالولايات المتحدة الاميركية امكن القول بأن ثروتها المعدنية تفوق ثروة اميركا ولكنها لا تملك مصادر هذه الثروة في بلاد خاضعة لسيادتها المطلقة ، بل هي موزعة في بلدان مترامية في جميع اقطار الارض ، وتماسك هذه الاقطار يزداد صعوبة عاماً بعد عام

***

اما الحالة في اليابان من ناحية ثروتها المعدنية فهي اهم مشكلة يواجهها العالم في هذا الميدان . ففي اليابان خارصيني ونحاس ولكن ما يستخرج منهما يكاد لا يكفيها . وليس في بلادها الاّ بعض ما تحتاج اليه من الحديد ومركبات الكروم وعنصر المنغنيس والفحم والنفط . اما في ما عدا هذه المعادن فانها تعتمد على الاستيراد من الخارج كلّ الاعتماد . ولذلك ترى اليابان مهتمّة كلّ الاهتمام بالفوز بحق استغلال المناجم في البلدان المجاورة لها سدًّا لهذا النقص في ثروتها المعدنية وعند ذلك يمكنها ان تستقلّ من هذه الناحية عن الدول الاجنبية التي تستورد منها ما تحتاج اليه

وليس في البلجيك من هذه المعادن الاّ الفحم والنحاس وعليها ان تستورد كلّ ما عداها من الخارج

وموقف ايطاليا من هذا القبيل لا يقل حرجاً عن موقف اليابان . فليست تملك سيطرة ما على منابع النفط ولا مناجم للفحم بل انها ليست احسن حالاً في ما يخصّ الحديد والرصاص . ولا يخفى ان ايطاليا واليابان في الفريق الاول من الدول ، وكلاهما تسعى للاحتفاظ بمكانتها رغماً عن عوزها الشديد في مصادر المعادن . والواقع انهما اسوأ حالاً من انكلترا نفسها لو فصلت هذه عن الامبراطورية البريطانية

وتختلف اسبانيا عن معظم الدول التي تقدّم ذكرها في ان ارضها تحتوي على مصادر غنية بالنحاس والحديد والرصاص والمنغنيس والزئبق . ولكنها لا تعنى الآن عناية كبيرة باستغلالها ولا يبعد ان تصبح باعثاً من بواعث الاضطراب بين الدول في غرب اوربا اذا ظلّت كذلك

فقد قال السر توماس هنلد ان «حدود الامم السياسية رسمت اصلاً بناءً على اعتبارات زراعية ولا صلة لها الآن بمصادر الثروة المعدنية داخلها» . وهذه حالة خطرة كان لها شأن كبير ولا يزال في التجارة والسلام الدولي . فالتقدم العلمي والساعي في صنع ادوات الحرب ومعدّاتها جعل المصادر المعدنية الطبيعية ، عاملاً خيرًا في اعداد معدات الهجوم والدفاع . خذ مثلاً على ذلك عنصر التنغستن فهو مادة لا غنى عنها في صناعة اجود اصناف الصلب واقساها . وهو يستخرج في الغالب من ركاز يدعى «ولفراميت» لا يوجد الاّ في بورما تقريباً . ومناجم الولفراميت في بورما خاضعة لسيطرة الشركات البريطانية . فلما نشبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ كان الالمان قد خزنوا من هذا الركاز ما يكفيهم سنتين . فلما نفد المخزون منهُ عمدت المانيا الى استعمال المولبدنوم بدلاً من التنغستن في صناعاتها الحربية . وكانت تستورده من بلاد محايدة هي بلاد النرويج . فردّ الانكليز على ذلك بشرائهم كلّ ما يستخرج من المولبدنوم في النرويج لمنعه عن المانيا . فعمدت المانيا الى فلز ثالث لا يساويهما في تقسية الصلب ولكنهُ يأتي بعدهما وهو عنصر النيكل وكانت تستورده من كندا — البريطانية ! — بواسطة البلدان الكنديناوية المحايدة . فحيلولة بريطانيا دون استعمال التنغستن في المانيا كان صدمة كبيرة لالمانيا . ولو استطاعت ان تمنع عنها واردات النكل كذلك لفاز الحلفاء في تقديم ساعة الظفر

فهذه المسألة العلمية الصناعية لها صلة وثيقة بالعهود الدولية التي قطعت حديثاً لحفظ السلم . وهذه العهود لن تنجح في تحقيق الغاية المنشودة الاّ اذا نظر رجال السياسة الى توزيع المعادن كأداة من الادوات الفعالة في ضبط المعاملات الدولية في المستقبل . لانهُ اذا كانت المعادن لا غنى عنها لحضارتنا الصناعية فهي جديرة بأن تخرص الشعوب غمار الحروب لاجلها . واذا كانت باعثاً من بواعث الحرب فالسيطرة عليها يجب ان تجعل أداة من أدوات السلم . وربط توزيع المعادن بالشؤون الدولية لا يحملنا على اقحام مسائل جدلية في الموضوع . فجميعنا تتفق على أمرين أحدهما رغبتنا في السلام . والثاني وضع بيان علمي للمعادن المطمورة في مختلف بلدان الارض ثم تنقيح كلما تغير نوع المعادن المسيطرة على الصناعة

ooo

والخلاصة التي يخرج بها الباحث مما تقدّم ان مصادر الثروة المعدنية في العالم يجب ان تعالج معالجة دولية . لانها اذا ظلت كما هي الآن موزعة توزيعاً غير متساوٍ بين الامم التي تحتاج اليها ، فالرغبة في الحصول عليها او الاستئثار بها لابدّ ان يبقى عاملاً من عوامل النزاع والحرب بين الامم

تأثير العلم

في الفلسفة الحديثة والفكر الحديث

لطه الباقر

العلم والصورة الكونية

مما يميز الفلسفة الحديثة عن سواها من الفلسفات السابقة مجابهتها طائفة كبيرة من الحقائق العلمية الجديدة عن الانسان وعن العالم . ومهما يختلف الناس في موقفهم تجاه الفلسفة والعلم ، بين تفضيل الواحد على الآخر ، او التعويل على الواحد دون الآخر ، فان محاولة التوفيق بين اثنين تقتضي من كل مفكر يأمل لطريقته الفلسفية انتشاراً وتابعين ، أن يعترف بصورة العالم كما رسمها العلم الحديث ، وان يجعل المعرفة العلمية اساساً وخطة كائناً هدفهُ ما كان . ومرد هذا السلطان ، سلطان العلم على الفلسفة ، هو ما احرزه من ثقة الناس باساليبه ونتائجه وما احدثهُ في حياة البشر من انقلاب . فالطريقة العلمية اصبحت المقياس الاخير لكل بحث وتفكير ، والانقلاب الصناعي الذي انتجه العلم ، والحقائق الغريبة التي جمعها عن الكون وعن الانسان ، كل ذلك حدا بالفلسفة الى الخضوع لارادة العلم سواء كان ذلك في تعيين موضوعات بحثها ام في قصرها على قبول ما تجمع لديه من حقائق عن الكون وعن الحياة

وسنرى في ما يلي أن ابرز واثبت طابع احدثهُ العلم في الفلسفة هو ما نتج عن الصورة التي رسمها العلم للعالم والحياة ، والتي يمكن اجمالها بعبارة « العالم الميكانيكي المتطور » . ولتفصيل اجزاء هذه الصورة وتحليلها ، نقتطف نبذاً من الحقائق العلمية عن العالم وعن الانسان

قال اللورد بلفور : « ليس الانسان ، كما ينص على ذلك العلم الطبيعي ، العلة الغائية لوجود هذا العالم . وليس هو المخلوق المحاط من السماء والوارث لجميع العصور . وما نفس وجوده إلاّ حادث عارض ، وما تأريخه الاّ فترة قصيرة في حياة احقر سيار . ومع جهل العلم بتلك الاسباب الاولى التي انتجت هذا المخلوق العضوي الذي نسميه انساناً ، بتحويل مركبات عضوية مائتة ، فاننا نعرف أنهُ منذ البدء تضافر الجوع والتناحر والتمسك على الحياة جنس يعرف أنهُ حقير وأنهُ لا شأن له في هذا الكون . لنستعرض الماضي فاذا نجد ؟ نجد ذلك الذي ندعوهُ تأريخاً ليس الاّ دماء ودموعاً ، اخطاء وفظائع وثورات . والمستقبل ! ماذا في المستقبل ؟ نعرف انهُ بعد فترة ، طويلة اذا قوبلت بحياة الفرد ، وقصيرة اذا قوبلت بما عرفناه عن حياة العالم ، ستنحل قوانا وسيزول مجد الشمس ، والارض

الخامدة لن تتساهل بوجود الانسان الذي ارتج عزلتها برهة ، اذ ستؤدي به الى العدم . وسيعقب هذه الطفرة التي احدثها الانسان في احدى زوايا العالم ، سكون وهدوء ، فلا مادة ولا خلود ولا أعمال ولا معرفة ، وحتى الموت نفسه والحب الذي هو أقوى منهُ ستكون كأنها لم تكن مطلقاً »

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

اما العالم الفلكي فنجده يقول : « ليس عالمنا الا وحدة من مجموعة عوالم كثيرة تقف امامها حيارى اذ لا تمكننا وسائلنا من البحث في تلك الابعاد حيث يسود الظلام المطبق . واذا كان توغلنا في تلك العوالم لا يجدينا معرفة عنها فانه مكننا من ان نعرف اننا كلما ابتعدنا عن عالمنا ازدادت ضآلة شأن الانسان . وعرفنا ثلاثة اشياء ايضاً : (١) اطراد الناموس الطبيعي في تلك الابعاد اللامتناهية (٢) انتفاء البينة على وجود غاية يمكن العثور عليها في أي جانب من جوانب الكون الفسيح (٣) ان معرفتنا عن الكون وبحثنا في ارجائه لا يزيدان أضأل أثر لوجود ذات روحية »

واذا سألنا البيولوجي أو السيكولوجي اجابنا : الانسان حي « كيماوي طبيعي » — Physico-Chemical — وما أمله وطموحه وحبه وخوفه وأثره وايثاره ومعرفته الا نتيجة تفاعلات كيماوية وقوانين تسيطر عليها فتكوّن الوان سلوكه وتصرفه » . والفيزائي ، وهو الذي كشف مجاهيل عالم الذرات المكوّن منها الانسان وعالمه ، يملي علينا الحقائق الآتية : « معرفة التركيب الذري كشفت لنا عن ظواهر كان حتى نفس وجودها غير منتظر قبلاً . وبهذه المعرفة الجديدة نجد صورة «المادية» — Materialism — واضحة غير مشكوك فيها . ونحن في كل بحوثنا ومعرفتنا لم نجد أي غاية للوجود . وكل ما نجده في هذا الوجود هو الاتساق والنظام الناشئين من اطراد الناموس الطبيعي وانتظامه حتى لو قلنا بأن الكون سائر الى الفناء النهائي فذلك لا يعني وجود أية غاية ، كما لا يستلزم وقوف الساعة وعطلها قصداً سابقاً . وأخيراً لا نجد في هذا الميدان الجديد من الكيشوف العلمية مكاناً لأي فاعل روحاني . نعرف عما تتكون المادة ونعرف انها طاقة ولكن الطاقة مادية من عالم المادة وليست من عالم الروح ولا يمكن ان تحلل الى الروح . فأين عالم الروح إذن ؟ »

يظهر من ذلك أن العلم في مكتشفاته ووسائله ما كشف عن أي أثر لصديق للانسان سوى الظواهر الطبيعية ، ولم يوفق خلال تنقله بين العوالم إلى أن يعثر على أية قوة إلهية تعنى بالانسان ، او على اي مبدأ يضمن للانسان نجاحاً في كفاحه وغاية من وجوده . فعين العلم لا ترى الانسان الا وحيداً في عالم نفس وجوده فيه عارض وصدفة . واذا كان ما يراد العلم صحيحاً ، فاذا حدا بالانسان ، من قديم الزمان حتى الآن ، إلى ان يشعر بأن هناك قوة معاونة تعنى به وأنها خلقت كل شيء من اجله ؟ الانثروبولوجي يجيبنا عن هذا السؤال بقوله : « نحن حيوانات اجتماعية من

نوع تلك التي تعيش قطعاناً ، وكذلك كان اجدادنا منذ عصور كثيرة . ولغريزتنا الاجتماعية هذه تنظر الى العالم فتدرك فيه الحنوّ والاخوّة والصداقة . هذا ما يحبرنا به دارسو الحيوانات الاجتماعية اثناء تدجينها بملاحظتهم ما يطرأ على عادات الحيوان الاجتماعي وعلاقة تلك الغريزة بوحدة ذلك الحيوان وحنينه الى قطيعه المفقود . وكذلك تكونت عند الحيوانات الاجتماعية غريزة البحث عن اصدقاء غير موجودين . فمن المحتمل إذن ، او قد يكون اكثر من المحتمل ، أن نشوء فكرة ذلك الصديق عند الانسان يرجع الى تلك الغريزة التي تتصف بها الحيوانات المجتمعة ؟ أي أن اصل الفكرة تشوق الانسان الاجتماعي الى البحث عن القطيع ، او دليل القطيع ، فتعدى في بحثه هذا حدود الارض الى ما وراء النجوم ؟

ولكن العلم وان يكن لا يجرؤ على نفي ذلك الصديق قطعاً فانهُ زعزع امل الانسان في العثور عليهِ وجعله وحيداً في هذا العالم الغريب . واذا لم يكن العلم قد نفى الصديق عن الانسان ، فاسبب هذا اليأس والتشاؤم ، او كيف استطاع العلم أن يزعزع أمل الانسان وايمانه ؟

استطاع العلم أن يزعزع ايمان الانسان وأمله لا لأنهُ قال لهُ او فرض عليهِ ان يلبذ الايمان ؟ فالعلم لا ينفي شيئاً ولا يثبت شيئاً إلاّ بعد التجربة والتمحيص . انهُ لم يقل ذلك مطلقاً ، ولكن هناك آثاراً ثانوية مصاحبة للعلم وقد كان من أثرها زعزعة أمل الانسان وايمانه . وهذه الآثار هي : —

١ . تغلغل الروح العلمية او العقلية العلمية والثقة التي حازت عليها بين الناس جعلهم يتخذونها المقياس المعول عليهِ في شتى القضايا حتى شمل تطبيقها البحث في كل فن . وهذه العقلية العلمية ، وما تتصف بهِ من شك وتجربة وتمحيص ، جعلت الانسان يقف بها تجاه الايمان والمعتقد كلهما قضية قابلة للتجربة والامتحان

٢ . وقد ينبعث ذلك الشك في الايمان من مصادر غير الروح العلمية ، كما حدث وكما يحدث لافراد ليسوا علماء وليسوا متعلقين بما تسميه العقلية العلمية . فتعرض الايمان للشك دوماً ، وتعلقنا بالايمان وبالأمل اللذين يحدوانا الى السير في حياتنا قانعين بل ومغتبطين ، كل ذلك جعلنا نبحث دوماً عما يقوي ذلك الايمان وذلك الامل في نفوسنا . ولطالما لجأنا الى وسائل شتى نعزز بها ايماننا ، فاخترعنا المنطق والفلسفة وصناعة الكلام ، بل والعلم ، سبيلاً الى الغاية نفسها . ولما تراكمت معرفة الانسان في هذا القرن ، ووصلت الى ما وصلت اليهِ من التشعب والتعالي والتقة ، لجأنا الى العلم نسأله ونريد منهُ أن يطمأننا في املنا وفي أمانينا وجعلناه الحكم في شكنا . ولكن بماذا أجاب ؟ لم يجب إلاّ باللاادرية القاسية والعجز ، وهو الذي نعتقد فيهِ القوي القادر ، فزعزع ذلك أملنا وتسرّب الشك إلى ايماننا

٣ . ولو اقتصر الأمر على لا ادرية العلم تلك لهان الأمر وسهل على كثير من النفوس أن تظل مشيعة بسعادة الايمان والأمل ، ولكن الأمر تعدى ذلك الى كشف حقائق علمية عن الحياة والكون

مثل « المادية العلمية » التي صدم بها العلم علم الروح ، ومثل قابلية فناء المادة ، وفناء العالم ، ونظرية النشوء والارتقاء ، إلى غير ذلك مما له تأثير في اضعاف ذلك الايمان فينا

تجاه تلك الحقائق العلمية عن الكون والحياة نشأت مواقف مختلفة للمفكرين وسبل متباينة للفكر الحديث والفلسفة الحديثة : فطائفة من الناس عزّ عليها أن تدع أي شك يتطرق إلى ايمانها وأبت ان تعترف بكل ما جاء به العلم عن الكون وعن الانسان . وهذه الطائفة المحافظة ليست موضوع بحثي ، وانما هناك فئات اخرى اثر فيها العلم فترك فيها نتائج مختلفة ، يمكن تصنيفها ودرجها كالآتي : —

١ — المتشائمون Pessimists

٢ — المتفائلون او المثاليون Optimists, Idealists

٣ — العمليون والطبيعيون Pragmatists. Naturalists

١ — المتشائمون

فالمتشائمون هم أول فريق ظهرت البوادر الاولى لنتائج تلك الحقائق العلمية في افكارهم ووجهة نظرهم في الحياة . ولما طبعت عليه نفوس هؤلاء من التشاؤم ، ولما امتازت به نتائج العلم الحديث من الاجماع على الاخذ بها ، كان لا بدّ ان نجد تلك النفوس صاخبة او تسمعها نادبة حظ الانسان وباكية على النهاية المحزنة لقصة الانسان على هذه الارض . فلسمع مثل تنسون يقول « إذا لم يكن هناك خلود فسأرمي بنفسي في اليم » . وفي ملحمته الذكرى In Memoriam — نجد العالم يعاني آلاماً قاسية ومستمرة . ولكننا نجد في شوبنهور مثل تلك النتيجة واضحة ، ففلسفته هي ابلغ تعبير عن عبث الجهود البشرية وعدم وجود غاية في الحياة وفي الطبيعة . وعنده ان خير الحياة هي الكفاح الأعمى والجهاد غير المجدي ، وان قوة فاشمة وغير مدبرة هي التي انتجت هذا العالم ومن يعيش عليه ، وهي التي يدعوها « بالارادة » . فهو يقول : « كل انسان وفترة وجوده في الحياة ليسا الا حلماً قصيراً لارادة الحياة المستمرة . وما الانسان الا صورة زائلة ترسمها الطبيعة في صفائها الكثيرة لا تسمح لها في الظهور الا برهة قصيرة تعود بعدها الى العدم لتفسح المجال لصور غيرها »[1] وقد يجد الانسان في العلم وفي الفن وفي مساعدة غيره من اخوانه تعزية وسلوة . ولكن شوبنهور يرى أن هذه نفسها لا تستحق ما يتناسبه الانسان في سبيل الوصول اليها : « فاذا شبهت الحياة بطريق متوهج بنار حامية إلا بضعة اشبار باردة فاننا المنخدعين من الناس يجدون في تلك الاشبار الباردة سلوة وتعزية ، ووجدنا الذين تنفذت انظارهم الى ما وراء ذلك الخداع فعرفوا حقيقة الكل ، ليس لديهم ما يتعزون به فيلتحبون من الطريق »

وبعد ان بكى هؤلاء المتشائمون كثيراً وندبوا طويلاً آل بهم الجزع والاعياء الى البحث عن

(١) « العالم كارادة وتمثيل » Die Welt als Wille und Vorstellung

التعلة والتعزية في الفن والجمال ، وصرف نسمع مثل والتر بتر — Walter Pater — في كتابه — Conclusion to the Renaissance — وريفان في — Examen d'un Conscience Philosophique — يبشرون بتجميل الفن والجمال كسلجا للانسان من تلك الحقائق العلمية المرة ، على انهُ وان ادعى اولئك المبشرون بأن تمجيدهم للفن والجمال هو لاجل الفن والجمال ، الاّ اننا نستطيع أن نلمس فيه صدى الصوت القديم القائل « لنأكل ونشرب ونكن سعداء فاننا غداً نموت » . وهكذا نجد هذه الابيقورية العصرية تتغلغل في روح العصر . اذ كل فلسفاتنا الاجتماعية حقاً ، ما هي الاّ وسائل مزخرفة للتمتع بالاكل والشرب والحصول على الغبطة في أحسن شكل ممكن . فروح العصر على وفاق مع الحيام ، سواء اعترفنا بذلك ام أبينا الاعتراف

٢ — المتفائلون أو المثاليون

يختلف هؤلاء عن المتشائمين في انهم وان كان كثير منهم سلم كما سلم المتشائمون بالصورة التي رسمها العلم للعالم ، فقد ظلّ بينهم فريق كبير شديد الرغبة عن التخلي عن معتقداته الموروثة وآماله القديمة : فاتجه هذا العدد منهم الى تلك النظريات التي انتجتها أخيلة الرمانتيكيين كرد فعل لصورة العالم النيوتونية في عصرهم . وهكذا نجد النزعة المثالية (idealism) قد نمت من جديد وأضحى أصحابها يحاولون ان يبرهنوا على ان العلم لم يقص قصة الحياة الكاملة ، وان الطبيعة عاملة مع الانسان لخيره وصالحه . اي ان هذه النزعة المتجددة كانت نتيجة تردد تلك الفئة بين التخلي عن آمالها كل التخلي ، وبين الصعوبة التي وجدتها في رفض الحقائق العلمية ، فهي توفيق بين المعرفة والامل ، اي بين العقل والعاطفة . ووجد هذا الفريق في « كانت » خير حل للمشكلة وخير توفيق بين العلم وبين املهم . فهم كانت يعترفون بأن كل ما كشفه العلم صحيح وحقيقي ضمن دائرة العلم ، الاّ ان عالم العلم ما هو الاّ عالم الظواهر ، ويكمن وراءه او يتخلله عالم الحقيقة الذي يختلف كثيراً عن عالم الحس . وعلى هذا فعالم الحقيقة ليس كما يصوره العلم ميكانيكياً لا غاية له ، وانما هو عالم روحي اخلاقي يضمن للانسان جهوده وكفاحه . فأضحى هذا المعتقد خير تعزية لكثير من النفوس ، ولا سيما تلك المتعلقة بالايمان والامل ، اذ استطاعت أن تبرهن به على وجود الله وان عجز العلم عن أن يجده ، وأن تسوّغ قواعد الحياة الاجتماعية والدينية

إلاّ انهُ بعد انقضاء جيل ، اي في مستهل القرن العشرين ، نجد تلك النزعة المثالية وقد اخذ عدد معتنقيها يتناقص ، اذ نرى انفسنا أمام جيل النشوء والارتقاء ، حيث الايمان القديم يخلي المكان لايمان جديد هو « تمجيد النشوء والارتقاء » . وكما يسم كل معتقد معتنقيه بطوابع مختلفة ، كذلك الحال في هذا المعتقد الجديد الذي احدث وجهات نظر مختلفة بين المؤمنين به : ففئة تجد فكرة النشوء وتعلق عليها الآمال ، وترى أن على الانسان أن يجعل اتجاه سيره وفقاً لنواميس الطبيعة ووفقاً

لسان النشوء ولا سيما بعد ان عرفت تلك النواميس . يحدثنا « سبنسر » عن ذلك فيقول : « إن اسمى شيء في الحياة هو السعادة البشرية . والمجتمع الذي يعنى بكل فرد من افراده يفوز بالسعادة العظمى . ونستطيع ان نخلق مثل ذلك المجتمع إذا أسسناه على مبادىء المنافسة والتزاحم الحر وعلى اطلاق امكان للفرد يفعل ما يشاء لصالحه . وسيكون مجتمع المستقبل المتطور متسماً بالوفاق مع النواميس الطبيعية ، وستكون مؤسساته على الساق والبيئة البيولوجية والطبيعية . » وفئة اخرى رأت ان في هذا الايمان الجديد خير ضامن لتقدم الانسان وارتقائه وبلوغه الكمال ، فراحا تعقد الآمال على الناموس الكوني في نشوء ذلك المجتمع الكامل . و « ماركس » يشبه سپنسر في تمجيد ناموس النشوء والارتقاء ، الا انهُ يختلف عنهُ في فهم ذلك الناموس ، اذ « سبنسر » يراه مفضياً الى « الفردية Individualism » في حين ان « ماركس » يراه مفضياً الى الاجتماعية والاشتراكية ، فيقبض فيه المال على آلات الانتاج ويستخدمونها لصالحهم . ففهم « ماركس » لناموس النشوء فهم مادي وليس فهماً بيولوجيًّا . وسواء أخذنا برأي ماركس الاجتماعي او برأي سبنسر الفردي ، فان كلا الرأيين يمثل لنا كيف صار الناس يؤمنون بان هذا العالم « الميكانيكي المتطور » ليس شرًّا كما حسبه المتشائمون ، وان الاعتقاد بهِ غير مفضٍ الى اليأس والتشاؤم وانما الى الأمل اللامتناهي

وهناك هذا الفريق الثاني ، فريق رأى ان لغوى نظرية النشوء هو التغيير والتجدد ، وعلى ذلك جعل هذا الفريق التجدد والتطور مثلاً أعلى . وعند هؤلاء ان ماهية التجدد هي الخلق والابتداع ، والانسان بموجب عقله وذكائهِ اعظم قوة خالقة ومجددة . فدعهُ اذن يعيش ويخلق وينتج . فاذا وقف نفسهُ على العمل والتجدد كان الانسان الطبيعي الحق

وهناك طائفة اخرى يمثلها نيتشه ، ارى الضرورة تقضي بابداء الملاحظات الآتية على موقفها

١ — ادرك نيتشه انهُ اذا اخذنا بفكرة النشوء وبما تجهزنا به من مقاييس اخلاقية ، وجب علينا ان ننشىء لنا مثلاً جديدة ومقاييس اخلاقية غير التي ورثناها والتي هي على طرفي نقيض والعالم المتطور الذي نعيش فيه فما كان حسناً في الوقت الذي كانت تحكم فيهِ العناية الالهية لم يعد كذلك في وقتنا. واذا اردنا ان ننشىء جيلاً نبيلاً قادراً على ان يسير والنواميس الطبيعية وجب علينا نبذ كل ما ورثناه عن الماضي والذي من شأنهِ الاستسلام والضعف ومعاكسة نواميس النشوء والارتقاء

٢ — وعلى هذا المنوال نرى نيتشه يمجد المستقبل ويتصور نشوء الانسان الكامل ، على انهُ لا يتوقع ذلك بتركنا الامر الى العوامل الطبيعية تخلق لنا من تلقاء ذاتها ذلك الانسان . بل علينا ان نكدح ونعد العدة للمستقبل ، يجب ان نفعل ذلك وان تطلب الامر منا ان نكون قساة . ونحن ان لم نفعل ذلك فالانسان بدلاً من ارتقائهِ الى كمال الآلهة ، سينحط الى مستوى الحشرات

٣ — اعتمد نيتشه اولاً على فلسفة شوبنهور ثم حرَّر نفسهُ من الانطباع بصورة الحياة كما رآها شوبنهور . ولكن اصالة نيتشه ، وهي التي تفرقهُ عن شوبنهور تبدو في رفضه الاخذ بالنتيجة السلبية التي

رآها شوبنهور ، وهي الانهزام في وجه الحياة المملوءة بالكفاح والتناحر الذين تفرضهما على الفرد « إرادة الحياة » الشوبنهورية . اذ بذينك العاملين سيظهر « السبرمان » . وتوقع ظهور ذلك الانسان الكامل هو الذي جعل نيتشه ينبت في الميدان مسوّغاً كل ما يكلفنا ذلك التناحر من التعاب ومسبغاً مأساة الحياة الحاضرة اذ سيعقبها في المستقبل الفرح العظيم

٤ — وكثيراً ما يتهم نيتشه بتأليه الجشع التجاري والقومية والوطنية، مشجعاً الحروب والتناحر بين الشعوب . ولكن لا شيء ابعد من هذا عن رأي نيتشه الذي يحتقر الصناعة الرأسمالية ويمقت الساسة والقادة المهرجين ، ويعتبر التوسع التجاري القومي ومعهُ الوطنية امراً انواع الشرور اذ يرى هذه الاشياء مائقة ومؤخرة لولادة ابن المستقبل — السبرمان —

٣ — العمليون او الطبيعيون

هذه الفئة اقرب الى المتفائلين منها الى المتشائمين . الا فرق واحد هو ان المتفائلين ، لا سيما النشوئيين منهم ، يؤمنون باستخدام قوى الطبيعة والتعاون معها لتقريب ذلك اليوم الذي يولد فيه الانسان الكامل

على ان العمليين — وهم يمثلون الفلسفة الحديثة وبوجهٍ خاص في امريكا — يرون ان الانسان في حاله هذا الذي يصورهُ العلم ليستطيع ان يعيش بذكائه وكفاحه حياة فردية او اجتماعية راقية . فعالم العلم لا يجب نبذه كما لا يجب تمجيده تمجيداً اعمى ، بل من الخير ان نقلد كسكن الانسان الطبيعي ومستودع مواد عمله وصناعته

واذا كان الانسان جزءاً من الطبيعة ونتاج قواها ، فانهُ ليستطيع ان يستغل تلك القوى لنفسه ، مستعملاً في ذلك عقله وذكاءه اللذين منحته اياها الطبيعة . فالنشوئيون عبدة المستقبل والعمليون عبدة الحاضر

ليست هذه الفلسفة وليدة اليوم ، لاننا اذا رجعنا الى الماضي القينا في ميدان الفلسفة اليونانية أفراداً اعتقدوا وقالوا بأن الحياة شيء يجب ان يستمتع به على ان تدار وتساس ميول الانسان الطبيعية وعواطفه . وفي فجر العلم الحديث نجد « بيكن » يبشر بتجيل العلم والعمل وباستخدام العلم لتسخير قوى الطبيعة لمنفعة الانسان . وهكذا نجد هذه النزعة «الطبيعية Naturalism» البيكونية وقد تحدث بنزعة اليونان في تلوين هذه الفلسفة العصرية التي يمكن ان نسميها بالعملية او الآلية Pragmatism or Instrumentalism والتي يفاخر الاميركيون بأنها فلسفتهم الخاصة بهم . وربما اعدت الكرة فذكرت شيئاً وافياً عن هذه الفلسفة الجديدة في الاعداد القادمة (جامعة شيكاغو)

مقام دراسة الشرق

في معاهد الولايات المتحدة الاميركية

جاء في خطاب لاحد العلماء الاميركيين منذ سنوات ما خلاصه ان الغرب يغالي في الاهتمام بفكرة اتصلت به من القرون الوسطى ترمي الى جعل التاريخ القديم قائماً على صرحين هما صرح اليونان وصرح الرومان. ثم انهُ حدا متأدبة الامة الى نقض هذا القول الناقص لان لمصر وأشور وبابل وفينيقية ودول الحثيين والفرس والعبرانيين نصيباً اغرق وأوفر من اليونان والرومان في تكوين العصور القديمة ولولا تحدر آثار هذه الشعوب الى فلاسفة الاغريق الذين تذوقوا طعمها وصبغوها بصبغتهم ثم اعطوها لاوروبة بواسطة الرومان لما كان لهذا الزمن ما يفاخر به من حضارة وعمران[1]

وان في الولايات المتحدة طائفة لا يستهان بها من جهابذة المستشرقين منصرفة الى دراسة الشرق درساً بعيد الغور، وحسب المرء ان يحضر اجتماعاتهم السنوية للوقوف على جهودهم الجبّارة في سبيل احياء ماضينا. وكان من حسن الطالع ان ضمتني جلسات الجمعية الاميركية الشرقية المنعقدة لسنتها المائة والسادسة والاربعين في مدينة فيلادلفيا في نيسان (ابريل) من الربيع المنصرم، فأعجبت بما لاحظته من رسوخ هؤلاء الباحثين الاعلام في معالجة الامور الشرقية لغوية وتاريخية وفلسفية وذهلت لما شاهدته من سعة اطلاعهم ونبض بيانهم في الاخذ بجميع المطالب العلمية ذات البال. وهم موفدون مما يزيد على مائة معهد وجمعية ومتحف منها امهات الجامعات والمتاحف الشهيرة والمكاتب الكبرى المنتشرة في طول البلاد وعرضها. ويوضح تضلعهم من العلوم الشرقية اختصاصهم الواسع فهذا مكبٌّ على اللغات السامية مثلاً وذلك لاختصاصه اللغة البابلية (الاكادية) فقط وغيره يعرف كل ما يُعرف عن العرب او اليهود او مصر وما اشبه. واليك بعض الموضوعات التي تناولتها مباحث الاعضاء اوردها على سبيل المثال غير جاعل انها لا تمثل الا ناحية يسيرة من نواحي منهاجهم: رسالة حسن البصري في القدر — بحث في نشوء كلمات ساميّة منها ادريس وصمورة ودليلة وناداب — مقابلة بين الشم عند البابليين واليهود والمصريين القدماء — نقوش سومرية (شمرية) تشير الى القربان — بحث في حياة الخصيان في القصور

وعبثاً نحاول وصف دقتهم وايجازهم واجادتهم المعنوية السائدة مناقشاتهم. فالروح العلمية المرفرفة على سير الاجتماع كانت حقيقة بالثناء العاطر حتى لاح لي ان افضل ما يقتنيه الشرق من ثروة روحية حرية بالخلود قد انتقل الى هذه الديار النائية فانطلق ابناؤها يتبارون في درسه وتحليله

(1) Julian Morgenstern, Journal of the American Oriental Society, Vol. XLVIII, No. 2, 1928, p. 105.

ولعلّ شغفهم به وانبائهم عليه السلام ما يحبق بموطنهم من مكاره اقتصادية وما يكتنفه من محن اجتماعية افضت اليها الازمة الحاضرة فوكّلهم مركباً خشناً لا تميمه نحن الشرقيين وقد تعوّدنا العيشة البسيطة والقناعة ولم يضلنا نير المعامل والمصانع ولاسطا علينا تيّار المادة الجارف.

ومما طالعتهُ رسالة وضعها باحثان من اعضاء الجمعية المذكورة احدهما استاذ في جامعة جونس هوبكنز العظيمة اتفق وادارة ذلك المعهد ان يقضي الشطر الاول من عامه في فلسطين منصرفاً الى البحث الاثري على ان يقفل راجعاً في الشطر الثاني ليتولّى منصبه التدريسي. والآخر استاذ كبير في جامعة بنسلفانيا. وقد اطلق الكاتبان تحت عنوان « الاستعداد لدرس الشرق الادنى وآثاره » ما لصباحث الاثرية الجارية في فلسطين من خطر الشأن على شريطة ان يكمل الدارس استعداده العلمي قبل مبارحة اميركا. ثم خصّا باباً من رسالتهما بالعراق واشارا الى اركان الملمّين بأحواله الجغرافية والتاريخية والاثرية ويؤخذ من كلامهما ان الشرق ينبوع عذب لا يرتوي ظمأ العالم منهُ الاّ اذا جاب اقطاره وشاهد بأم العين ميادين الحضارة الاولى في ربوعه الفتانة (١)

ولمستشرقي الولايات المتحدة مدرستان بارزتان في الشرق العربي تقومان باعمال الحفر والتنقيب وهذا بصرف النظر عن وفود البحث الاثري في وادي النيل من امد بعيد. الاولى في بيت المقدس والاخرى في بغداد. ولا يُظهر فضل هاتين البعثتين مثل الاطلاع على نتائج اعمالهما التي افضت الى تعديل جانب كبير من تاريخ الشرق القديم وافراغ اخباره في حلة قشيبة. والعدول عن كثير من الحقائق المسلم بها قبلاً وتفسير الشؤون الخطيرة تفسيراً ينطبق على مكتشفات المنقبين الاخيرة

ولا بدّ لنا في هذه الرسالة ونحن نسعى الى تصوير عناية العالم الجديد بالنهضة الشرقية وتاريخها المجيد ونحاول اكتناه مايساور الرأي العام فيهِ من آثار الروح السامية من العرض لمقام اللغة العربية. واول ما يتبادر الى الذهن المساعي الحميدة التي يبذلها العلامة الدكتور فيلبب حتي فما كاد يتسلم ابناء منصبه الخطير في جامعة برنستون حتى انبرى لاعلاء مقام العرب والتفرّغ لبثّ اخبارهم بين متصلة القوم. وياليت المجال يتسع لذكر اعماله. فانهُ عدا تأسيسه مطبعة عربية وجمعه شتات المخطوطات العربية من بعد ان حشد ما يزيد على الـ ١٥ الف مجلد عربي ثمين في مكتبة الجامعة استغل في ادّخار المال الكافي لتنظيم هذه المخطوطات وتولى الاشراف على وضع فهارسها وتقاويمها العلمية. ولا يقف عزمه عند هذا الحد بل انهُ ينوي اليوم بمشروع واسع النطاق يستغرق عشرات السنين ويضمن جمع جميع ما في البلاد من مخطوطات عربية ونشر جانب هام منها. والى كل ذلك فهو يدأب ليل نهار في تأليف كتاب مستفيض في الانكليزية يحوي بين دفتيه تاريخ الامة العربية والمرجح ان يفضي ظهور هذا السفر العتيد الى طور جديد في دراسة الحضارة الشرقية في هذه القارّة ويتضاعف العناية بآداب العرب وتمشهم

(1) W. F. Albright, and E. A. Speiser, Suggested Approach to the Study of Near East Archaeology, Philadelphia.

ولا جدال في ان الاوروبيين هم الذين سبقوا الى الفتوحات الباهرة في هذا المضمار فمنهم دي ساسي المتوفى في النصف الاول من القرن الاخير صاحب الايادي البيض على علم اصول اللغة العربية . وبعده قام في القرن ذاته ومن ابناء فرنسا ايضاً اديب فذّ لم يعدم ميوله الى الابحاث العلمية وقائمة مصنفاته وان كانت اليوم مفروغاً منها من الوجهة العلمية الاّ انها لا تزال حلقة مكينة في سلم ارتقاء المشرقيات عند اهل الغرب . نعني الكاتب الطائر الصيت ارنست رينان . فقد ألمّ بتاريخ فينيقية وتوغّل في شؤون بني اسرائيل منعماً نظراته في سفر ايوب وكان قد نشر قبل هذين المؤلفين بحثاً في تاريخ اللغات الساميّة . ومن آثاره « حياة المسيح » و « ابن رشد وعقيدته » وسواها مما هو معروف لدى القراء . وأما المستشرق الالماني تيودور نولدكه فانه شيخ المستشرقين قاطبةً ولد سنة ١٨٣٦ ومات عن عمر كبير وآثار خالدة في مختلف العلوم الشرقية التي تناولها وكانت ميوله جامعة شاملة فلم يهمل زاوية من زوايا المشرقيات بل طرقها كلها وصار حجة فيها

وفي مرتبة هؤلاء يعد العلامان هرغرونيه ودي غوبه وهما لا يقلان تدقيقاً وتنقيباً وهذا الاخير حسبه ما نشره من تاريخ الطبري في مجلدات سهلة المأخذ زينها بالفهارس والحواشي العلمية

ومن المعاصرين الانكليز علمان يجدر بنا الاشارة اليهما احدهما استاذ في جامعة كامبردج والآخر في اكسفورد اعني نكلسون وندّو مرغوليوث . اما الاول فأشهر مؤلفاته تاريخ الآداب العربية وله سوى ذلك ما يستحق الذكر مما نقله من الشعر الشرقي . وللاستاذ مرغوليوث جولات معهودة يشهد له فيها بطول الباع وقد أصدر تاريخ الدولة الاموية والدولة العباسية في لغته الخاصة نقلاً عن سلسلة جرجي زيدان التاريخية . الاّ ان درس المؤلفات الشرقية التي يصدرها المستشرقون منذ اكثر من قرن يحملنا على الاقرار للالمان بقصب السبق . ولكن احداث السياسة الاوربية والتضييق الفكري الذي يعانيه العلماء يحملان على الظن بان النشاط الفكري في اوربة في هذه الموضوعات التي لا يمكن ان تنهض الاّ في جو ملائم للبحث الحر سيتأخر لما انتاب حرية البحث في بعض بلدانها من مآس جسام

ثم ان عدد الفحول الالمان الذين أمّوا هذه البلاد على أثر الانقلاب الاخير يدعم قولنا . أو لم يهبط بعضهم ارض الاتراك كذلك طلباً للسكينة والامن . ومنهم من عجر مسقط الرأس قاصداً الى اميركا ولو لم يكن ممن استهدف لسهام الاضطهاد ، طامعاً عما في المهجر من بحبوحة العيش ووسائل النمو العقلي وسبل العمل الحرّ فما تقوم عليه النزعة الجديدة في الولايات المتحدة من الاعتناء بشؤون الشرق العلمية وما يغذيها من ميول صادقة لا تحفزها المطامع الاقتصادية والسياسية مضافاً الى ما يعتور الحياة الفكرية في القارّة الاوربية من الصعاب ينذر بانتقال معقل المشرقيات الى ما وراء بحر الظلمات في المستقبل غير البعيد

ولا ريب في انهُ اصبح لبلاد العرب ولغتهم وامتهم مكانة لم نعهدها من قبل . اما على شأن البلاد فلان اجماع رأي العلماء يميل الى حسبانها مهد الساميين . واهمية اللغة العربية راجعة الى كونها

مفتاح الفيلولوجيا السامية . واما مقام الامة فلانها اتقى العناصر التي يتمثل فيها الجنس السامي ولقد آلت هذه النظرية الجديدة الى قلب الاصول التي كان يتشى عليها العلماء في درس التوراة . واول من مهد السبيل الى هذه الفكرة Boscuke في القرن السابع عشر ثم تمّ Schultens فأيّده رجاراه في وضع حجر الاساس حتى اذا ما جاء القرن التاسع عشر تمّت الفكرة الجديدة على يد العالمين Wellhausen و W. Robertson Smith وقبل عشر سنوات ظهر كتاب الاستاذ مرغليوث احتوى ثلاثاً من محاضراته تحت عنوان « علاقات بين العرب والاسرائيليين قبل نهوض الاسلام » ابان فيه كثيراً من الغوامض واثبت ان الشيء الكثير من تاريخ العبرانيين وآدابهم يسهل فهمه اذا درسناه بعد انعام النظر في اللغة العربية ولغة عرب الجنوب

ثم كانت السنة الماضية فأصدر العلامة الاميركي مكدونلد كتابه في « عبقرية العبرانيين الادبية » وذهب فيه الى ان آداب اليهود لازالت على مرّ السنين مدينة في تكوينها للغة الضاد وتوسع في مباحثه فجعل حياة النبي داود واشعاره شبيهة بسيرة امرؤ القيس وقصائده ضارباً امثالاً كثيرة على القارىء اللبيب ان يرجع اليها لرؤية ما يتوسم فيه من تشابه بين الشعبين . وقد قال هذا العالم ان مفسري العهد القديم في السنين المقبلة يجب ان يكونوا من الواقفين على متون اللغة العربية

واخيراً ظهر مؤلف للاستاذ مونتغومري سماه « الجزيرة العربية والتوراة » اتى فيه بحقائق ثابتة وآراء طريفة تؤكد ما يقبله العقل وتقرّه الشواهد التاريخية والعلمية ان فهم تاريخ اسرائيل لا يمكن ان يتمّ الاّ اذا تمكن الطالب من تفهم احوال الجزيرة . وقد دفع المؤلف اقواله بمستندات فيلولوجية وتاريخية ولا غرو فهو من اساطين العلمين ثم تطرّق الى تفصيل قضية المناخ في الجزيرة وازدياد الجفاف فيها على مرّ السنين والقرون ثم عرض لعلاقات العبرانيين التجارية بأبناء البادية وطرق باب الحكمة العربية وقابل بين هذه وما يجده الباحث في صفحات ايوب والامثال ثم عكف على الاسباب التي ادّت الى افول نجم العز في جنوب الجزيرة بعد تألقه ردحاً طويلاً من الدهر في العصور القديمة وتخلص بآراء حصيفة في أثر الصحراء الجلي الظاهر في ديانة العبرانيين

ومهما يكن من امر فان العناء بالمشرقيات في هذه الديار لهو مقرون بقسط وافر من التشجيع والتنشيط ويؤمل ان يظفر بمقام يليق به وبالشرق الذي اوجده . وهاك كلام احد ائمة العلم الذين يؤبه لهم قال « يجب ان ندرس الشرق لانهُ لايزال مبعث النور والالهام ويجب ان نُعنى بتفهّم تعابير الساميين لان اللفظة من الفاظهم اشبه شيء بشحنة الكهربا التي بحار الفهم في قدر قوتها والاحاطة بماهية طاقتها . هكذا تعجز السنتنا الغربية عن ازاحة الستار عن المعاني السامية وفقه مكنوناتها لانها ذات مرام بعيدة تستعصي علينا ولا عجب فهي متصلة باعماق النفس ولا سبيل الى سبر غورها الاّ بعد امعان شديد »

جامعة بنسلفانيا — الولايات المتحدة ادورد جرجي

الاسطول والبحرية

أيام محمد علي

للدكتور علي مظهر

— ١ —

في الوقت الذي أخذت فيه دول كثيرة تمد عدتها للهجوم أو للدفاع وفي الايام التي ترى فيها الدول تأسس أساطيلها وعراكيها الحربية بالتنقل من مرفأ الى مرفأ ومن ثغر الى ثغر وفي الشهور التي تنادي فيها أمم بالويل والثبور وعظائم الامور لمن يعتدي على حرمة بلادها وتعدُّ ما استطاعت من بأس وقوة ومن رباط الخيل ترهب به اعداءها ؛ دع الطيارات والمصفحات والدبابات والمهلكات والغازات الخانقة والسامة ، وفي الوقت الذي تدعي فيه بعض الشعوب ملكية بعض البحار تتقول عنه (بحرنا) وتأبى الاّ أن تكون سيدة ذلك البحر الخضمّ — في هذا الوقت الذي ترى فيه كل تلك المعدات ولا ترى لمصر فيها معدات تذكر فلا أسطول ولا بحرية ، يجب علينا أن نرجع البصر ونقلب صفحات الماضي المجيد فنذكر ما كان لنا من قوة وبأس ومن أسطول وبحرية ليس في الماضي المتراخي في القدم أيام الفراعنة ومن تلاهم حسب بل وفي السنين القريبة منا التي يكاد يذكرها بعض المسنين ممن عاصروا بالعيش فيها والتي يذكرها أولاد من اشتركوا في خدمة مصر في تلك الأيام حتى انا لنكاد نرى خيال تلك العظمة ماثلاً أمامنا اذا ما عثرنا على شيخ هرم اشترك في جيش ذلك العهد أو حدثنا رجل من اعيان الارياف عن أبيه الذي كان قبطاناً في الاسطول المصري أيام محمد علي

واني لأذكر يوماً في هذا الشهر جلست في مصايفه مع عين من أعيان القيوم وكان الحديث ذا شجون ورحنا نتنقل من حديث الى حديث وكان جلستنا وكانت على بحر يوسف ونحن نرى مياهه النيلية الحمراء تتدفق أمامنا وتمر بسرعة كما مرّ قرن أو يزيد على تلك الذكرى السارة المؤلمة ، ذكرتنا بما كان لمصر من عز ومنعة قبل قرن من الزمان أيام أبي الشعب المصري في العصر الحديث فاخذ الرجل يحدثنا عن ابيه الذي كان قبطاناً لسفينة حربية من سفن الاسطول المصري اذ كانت البحرية المصرية أيام منشئها محمد علي كالنيل النجاشي وهو يزخر بمياهه ويتدفق في عظمته وجلاله وما أصبحت عليه البحرية اليوم فهي كقناة صغيرة تستمد مياهها القليلة بشادوف

يعمل فيه صاحبه بجهد ليروي فيراطاً وسهماً من الارض. ولعل رؤيا مياه بحر يوسف أمامنا وقشف وانتقال الخيال السريع هو الذي دعا ذلك السيد أن يحدثنا عن البحر والاساطيل والمراكب فتمر بالوسنان كشريط من اشرطة الصور المتحركة وأن يحدثنا عن الماضي والآباء والجدود . وليس ذلك السيد هو الخلف الوحيد من سلالة من اشتركوا في قيادة السفن الحربية أيام محمد علي أو في بنائها فأنت أينما سرت وبحثت عثرت على ذريتهم منتشرة من ساحل البحر الابيض المتوسط الى أقاصي السودان . وكان ذلك الحديث هو الذي أثار الذكرى لاقدم بحثنا عن البحرية المصرية قديماً وحديثاً وكنا قد نشرنا جانباً كبيراً منهُ قبل اليوم على صفحات المقتطف. فلنعد اليوم الى ذكر مفخرة من مفاخر الاجيال ونشر هذا الذكر الطيب عن تلك الايام السعيدة بعد أن شغلتنا أمور عن نشرها

محمد علي والبحرية المصرية

يمكن تقسيم الكلام على البحرية المصرية الى قسمين كل قسم منها يختص الكلام فيه على مدة فالمدة الاولى تبدأ بسنة ١٢٢٤ هـ الموافقة لسنة ١٨١٠ ميلادية وتنتهي سنة ١٢٤٣ هـ الموافقة لسنة ١٨٢٩ والمدة الثانية تبدأ من سنة ١٢٤٤ هـ الموافقة لسنة ١٨٢٩ ميلادية وتنتهي بولاية ابراهيم باشا سنة ١٢٦٥ هـ الموافقة لسنة ١٨٤٨ ميلادية

المدة الاولى

بعد أن لبث محمد علي والياً على مصر عدة سنوات ارسلت اليهِ الدولة التركية العثمانية أمراً بتوجيه حملة عسكرية على الوهابيين لاسترداد البلاد التي احتلوها من الحجاز خشية استفحال أمر دولتهم الناشئة في قلب جزيرة العرب . فرأى محمد علي ان نقل الجنود والمعدات الحربية من مصر الى الحجاز غير ميسور الا على ظهور المراكب عن طريق البحر الاحمر فبادر الى تشييد دار صناعة السفن بولاق لانشاء تلك السفن فأمر بقطع الاشجار الصالحة لبناء السفن وتجهيزها ثم تنقل مفككة على ظهور الابل الى السويس فتركب هناك ثم تنزل في البحر لحمل الرجال والعتاد الحربي والمؤن والذخائر وبذا يمكن أن يقال ان تلك السفن المنشأة كانت النواة الاولى للبحرية المصرية أيام ذلك الرجل العظيم وكان لتلك السفن فضل كبير في نجاح الحملة التي وجهت الى الوهابيين وجعلت لمصر مقاماً وهيبة في البحر الاحمر وثغوره

وقد ذكر الجبرتي في تاريخه في حوادث شهر ذي الحجة سنة ١٢٢٤ هـ ما نصه :

واستهل شهر ذي الحجة بيوم الاحد سنة ١٢٢٤ هـ (يوافق ٧ يناير سنة ١٨١٠ ميلادية) وفيه شرع الباشا (يريد محمداً عليًّا) في انشاء مراكب لبحر القلزم (البحر الاحمر) . فطلب الاخشاب الصالحة لذلك . وارسل المعينين لقطع اشجار التوت والنبق من القطر المصري القبلي والبحري وغيرها من الاخشاب المجلوبة من الروم (بلاد الاناضول) . وجعل بساحل بولاق ترسخانة (دار صناعة

للسفن) وورشات (معامل ومصانع) وجمع الصنّاع والنجّارين والنشّارين فيهيئونها وتحمل اخشابها على الجمال ويركّبها الصنّاع بالسويس سفينة ثم يتلفطونها ويبيضونها ويلفونها في البحر فعملوا اربع سفائن كبار احداها تسمى الاريق (تشبهها بالاريق وكانت عبارة عن سفينة بساريتين وقلوع مربعة واسمها عند الافرنج بريك) وخلاف ذلك داوات لحمل السفار والبضائع

ويفهم من كلام الجبرتي في حوادث سنة ١٢٢٧ هـ (توافق سنة ١٨١٢ م.) أن دار صناعة بولاق كانت تنشىء (المراكب الكبار والصغار التي تسرح في النيل من قبلي الى بحري ومن بحري الى قبلي ولا يبطل الانشاء والاعمال والعمل على الدوام وكل ذلك على ذمته (على حساب محمد علي باشا) ومرمتها وعمارتها ولوازمها وملاحوها باجرتهم على طرفه لا بالضمان كما كان في السابق. ولهم قومة ومباشرون منقيدون بذلك الليل والنهار)

ثم انهُ ذكر في حوادث تلك السنة عينها ما نصهُ:

ان الباشا ارسل لقطع الاشجار المحتاج اليها في عمل المراكب مثل التوت والنبق من جميع البلاد القبلية والبحرية فلبث المعيّنون لذلك في البلاد فلم يبقوا من ذلك الاّ القليل لمعالجة اصحابه بالرشا والبراطيل حتى يتركوا لهم ما يتركون فيجتمع بترسخانة (دار صناعة السفن ببولاق) الاخشاب لصناعة المراكب مع ما ينضم اليها من الاخشاب الرومية (من بلاد الاناضول) شيء عظيم جدًّا يتعجب منهُ الناظر من كثرته. وكلما نقص منهُ شيء في العمل اجتمع خلافه اكثر منهُ

وعاد الجبرتي فذكر في حوادث سنة ١٢٣١ هـ (توافق ١٨١٦ م.) ما نصه: والعمل والانشاء بالترسخانة مستمر على الدوام والرؤساء والملاحون يخدمون فيها بالاجرة وعمارة خللها واحيالها وجميع احتياجاتها على طرف الترسخانة. ولذلك مباشرون وكتّاب وامناء يكتبون ويقيدون الصادر والوارد. وهذه الترسخانة بساحل بولاق بها الاخشاب الكثيرة والمتنوعة وما يصلح للعمائر والمراكب ويأتي اليها المجلوب من البلاد الرومية (الاناضول وغيره) والشامية. فاذا ورد شيء من انواع الاخشاب صحوا للخشابة بشيء يسير منها بالثمن الزائد ورفع الباقي الى الترسخانة. اهـ

ففي دار صناعة السفن ببولاق كان انشاء البحرية المصرية الاول ايام محمد علي وفيها انشأ سفناً كباراً حتى رأى انشاء دار الصناعة بالاسكندرية. ويقال ان ذلك المجهود الهائل من نقل الاخشاب من مختلف بلدان مصر والشام والاناضول وبقية البلاد التركية الى بولاق لعمل السفن مفككة لتنقل على ظهور الجمال كان يستدعي استخدام نيفاً وعشرة آلاف من الابل كان يهلك بعضها اثناء العمل فيعوض بغيرها وامكنهُ بذلك ان ينشىء ثماني عشرة سفينة كبيرة كاملة العدة وانزالها الى الماء في مدة عشرة اشهر [1] وذكر اسمعيل باشا سرهنك في كتابه (حقائق الاخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٢٢٦) بعد الكلام عن دار صناعة بولاق ما نصه:

(١) المسيو فيلكس مانجان Mangin في تاريخه عن مصر مطبوع بباريس سنة ١٨٣٩

وشيد بالسويس مباني لصناعة السفن انشأ بها اربع سفن جسيمة من نوع الاريق اوهي سفن بساريتين وقلوع مربعة ، واحدى عشرة سفينة اخرى من نوع السكونة اوهي سفينة بسارية واحدة لها قلوع مربعة ونصف سارية ذات قلوع شرطية . ثم توجه الدفتردار (يعني محمداً عليًّا) بنفسه الى السويس لمشارفة ما بها من السفائن سنة ١٢٢٥ هـ . وهناك امر بضبط ما بها من المراكب وما يغيرها من سواحل البحر الاحمر لاستعمالها في الحملة الوهابية . وروى سرهنك باشا رحمهُ الله (ص ٢٢٨) يذكر عودة الوهابيين للقتال بعد تعهدهم بالكف عنهُ فقال ما نصه : واستعد محمد علي باشا لقتالهم واعد السفن ببولاق مصر لحمل الجنود بالنيل الى مدينة قنا للتعبير من هناك الى ثغر القصير وجعل على هذه القوة ولده ابراهيم باشا (١٢ شوال سنة ١٢٣١ هـ — ٣ سبتمبر سنة ١٨١٦ م.) ثم ركبوا اسطول البحر الاحمر الى ينبع اهـ . وهذه كانت الحملة الثانية لمحاربة الوهابية كما يفهم من سياق الكلام . ويظهر ان الفرق في عدد السفن التي امر محمد علي ببنائها في رواية مسيو فيلكس مانجان ورواية سرهنك باشا وهو ثلاث سفن هو الذي اخذه محمد علي مما وجده بالسويس كما يشير الى ذلك الباشا في روايته هذه

الاسطول المصري في البحر المتوسط

على ان محمداً عليًّا كان ذا نفس وثّابة طموحاً الى انشاء دولة كبيرة بعيد النظر لحماية بلاده فرأى ان ينشىء اسطولاً ضخماً الى جانب الجيش الذي كوّنهُ للمحافظة والدفاع عن البلاد والفتح كما رأينا من سيرة ذلك الرجل العظيم

ولما كانت مراكبه التي اصبحت تمخر البحر الاحمر لا يمكنها ان تسير الى البحر المتوسط اذ لم تكن القناة قد انشئت وتشئ . ولما كان يعلم أن بلاده في حاجة الى اسطول يحمي شواطئها الشمالية والى بحرية ليستعين بها على نقل المتاجر والمعدات ولتكون صلة وصل بين مصر وغيرها من الدول الاخرى لهذا رأى ان ينشىء عمارة مصرية واسطولاً قويًّا يمخر عباب البحر المتوسط بين افريقية وآسيا واوربا

فلجأ اولاً الى شراء سفن حربية من الخارج واوصى على انشاء بعضها في ثغور اوربا مثل مرسيليا وليفورن وبريستا وجنوه وسلمها بالمدافع وعهد بقيادتها الى قباطين من الاسكندرية والاتراك كانوا بالسفن التجارية . اما ملاحوها ونوتيتها فكانوا من المتطوعين . وعهد الى بعض الضباط من فرنسا وايطاليا في تدريب البحارة وتعليمهم . يضاف الى ذلك سفينتان حربيتان كان السلطان محمود العثماني قد اهداهما اليه . اما السفن التي احضرها محمد علي بواسطة بعض تجار الفرنج فكانت من نوع الفرقاطة والقرويت والاريق على مثال السفينتين اللتين اهديتا اليه من السلطان

وكان في الاسكندرية دار صناعة قديمة تبنى بها بعض السفن من طراز قديم وجعل شاكر افندي الاسكندري رئيساً للهندسة فيها وضمَّ اليه رجلاً عرف ببراعته في فن بناء السفن وكانوا من مشهوري

المعلمين بالاسكندرية يسمى الحاج عمر فجعله محمد علي رئيساً للانشاء وعمارة السفن وجعل الحاج احمد اغا ناظراً على بناء السفن . ولما حضر المسيو بيسون Besson وكان من ضباط السفن الحربية الفرنسية الى مصر في سنة ١٨٢١ وعرض خدمته على محمد علي جعله ملاحظاً للسفن التي امر بصنعها في دور صناعات السفن بأوربا . وقد حاز ثقة الباشا (محمد علي) وارتقى حتى انعم عليه برتبة البكوية وعرف بالقبس اميرال بيسون بك (اعني نائب امير البحر) . وأوجد ادارة خاصة للاساطيل المصرية وجعل صهره محرم بك محافظ الاسكندرية رئيسها مع احتفاظه بعمله كمحافظ

واشترى محمد علي عدة سفن شراعية لنقل الذخائر والمهمات كانت تجلب الاخشاب اللازمة لدار الصناعة الجديدة بالاسكندرية وقد كانت على الشاطىء الشرقي من الميناء الغربية جهة خط الصيادين بالاسكندرية. وجعل بها معامل للحدادة والنجارة والقلفطة وغير ذلك مما تحتاج اليه السفن الحربية . وكانت تلك السفن الشراعية تجلب الاخشاب اللازمة من سواحل بلاد الاناضول

وقد اشتركت السفن التي انشأها محمد علي في الاسكندرية مع السفن التي أمر بانشائها في دور صناعة السفن باوروبا أو التي اشتراها والسفينتين اللتين اهديتا اليه من السلطان في وقعة ناڤارين ببلاد موره باليونان في يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ م

ويرى صاحب السمو الامير العلامة عمر طوسون الذي يعنى عناية خاصة بأعمال جده الكبير ان السفن الحربية التي اشتركت في تلك المعركة كانت اربعاً وثلاثين قطعة غير سفن النقل التي بلغت اربعاً واربعين ، وقد عرف الامير الجليل من سفن محمد علي الحربية قبل موقعة ناڤارين اسماء خمس فرقاطات وهي

(١) شير جهاد (٢) رشيد (٣) ثريا (٤) احسانيه (٥) جهادية وستة قراويت وقولتات هي :

١ — بلنك جهاد — ٢ دهر جهاد — ٣ ناڤارين — ٤ چيلان — ٥ وشنطن — ٦ تماح

وقد سمى امين باشا سامي في كتابه تقويم النيل ج ٢ اثنتين من الفرقاطات المذكورة باسم سوريا والحربية بدلاً من ثريا وجهادية

ولا يسعنا الا شكر سموه أجزل الشكر على هذا البحث القيم وعلى الصور التي سمح لنا بنقل نسخ منها لبحثنا هذا كما توجد بعض الصور لفرقاطات محمد علي الاولى في كتاب (فرقاطات محمدعلي الاولى من سنة ١٨٢٤ — سنة ١٨٢٧ لجورج دونين

Les Premières Fregates de Mohamed Aly 1824—1827 par Georges Donin

فليرجع اليه من يريد

ولما كانت موقعة ناڤارين البحرية من الشهرة التاريخية بمكان فقد رأينا أن نتكلم عليها قبل انتقالنا الى الدور الثاني من الكلام على البحرية والاسطول المصري أيام محمد علي وموعدنا العدد التالي ان شاء الله

هي الصبا

للشاعر رشيد ايوب

بكتكَ عيونُ السحابْ اذا ادمعي لم تفي
ربيعيَ بشرخ الشبابْ اذ الحب لم ينطفي
وقلبيَ كالموقدِ

ويا سيفَ عمري اذا ذكرتُ زمان الصفا
اقول عداك الاذى عفا الله عما عفا
وممَّا جَنَتْهُ يدي

وانت زمان الحريفْ فياحزن روحي عليكْ
مشيت بقلبي الضعيف بما قد تبقَّى لديكْ
من الامس نحو الغدِ

وجاء زمان الشتا وهبَّت رياح الشمالْ
فقلت لنفسي متى يحطُّ الغريبُ الرحالْ
ويمضي الى المرقدِ

حمامة وادي الغرامْ بحقِّ الحنان الملاحْ
قفي فوق تلك الخيامْ وصيحي المعنَّى استراحْ
وراح بلا موعدِ

أوراقه فوق الغصونْ بجمرتها تصطلي
انا قد برتني السنونْ واصبت في معزلٍ
ولا جر في موقدي

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمد مصطفى الدمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية ترتيبها في معجم والآن عنّ لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

شجر النَّارَنْج

بفتح الزاء وكسرها فارسيته (نَارَنْك) ولعلّ أصله مشتق من السنسكريتية (نَاجْرَنْجا) (Nagranga) وبالهندية (نَارَنْجي) (Narungee) تتفرع شجرته اقل من شجرة البرتقان كثيراً. وفروعها الصغيرة خضراء اللون فاتحة. ولأوراقها ذنيبات (اعناق) للواحد منها جناحان متميزان اكبر كثيراً منهما في ورقة البرتقان. وكذلك أزهارها بيض اكبر واذكى رائحة. وثمرتها في حجم البرتقانة الاّ ان سطحها اكثر خشونة ولونه اصفر برتقاني يكون فاقعاً عند النضج. ولبها ذو عصارة حامضة مرّة مقسوم الى ١٢ فصًّا أو ١٤

اسمه العلمي (Citrus aurantium, L., Var. Bigaradia, or amara, L.) (سيتروس اورانتيوم بيغارادیا او أمارا) او (Citrus vulgaris) (سيتروس ولغاريس) وفصيلته الذابية (Rutaceae) (روتاسية) وبالانجليزية (Marmalade, Sour, Bitter, or Seville Orange:) وبالفرنسية (Bigaradier, ou Oranger amer)

قيل موطنه القديم جبال هيمالايا بالهند واصبح الآن يغرس في جميع المناطق الحارة وجنوب اوربا وجزائر آسورة بالمحيط الاطلنطي وجزائر الهند الغربية ومصر والشام والسودان وغيرها من اجل ثماره وأزهاره واوراقه. اما ثمارة فيصنع منها نوع من المربى والطريقة في ذلك ان يبتدأ بتقطيع النارنجات الناضجة الى انصاف ثم الى ارباع وتنتزع ألباب الارباع وبذورها وتُرمى ثم تقطع القشور الى شرائح رفيعة وتنقع في الماء اربعاً وعشرين ساعة وبعدئذٍ تغلى في ماء جديد بمقدار ثلاثة ارطال وربع من الماء لكل رطل من النارنجات حتى يصير لونها اصفر كالكهرمان ثم تغلى

ثانية مع سكر مقداره ثلاثة ارطال عشرين دقيقة اخرى ويستمر في غليها حتى تصير فالوذجية تتكون مربى النارنج . وبعبارة اخرى يؤخذ لكل رطل من النارنجات ثلاثة ارطال وربع من الماء وثلاثة ارطال من السكر . وقد يصنع من القشور نوع من الحلوى تحفظ مكشرة . ويسمى العنصر المرّ في قشر النارنج (هسپريدين) (Hesperidine) وفي بذوره (ليمونين) (Limonin)

وشجر النارنج يحصل من زهره الابيض الطيب الرائحة بالتقطير على زيت طيار ذكي الرائحة جداً يسمى (زيت نيرولي) (Neroli Oil) يدخل في صنع الروائح العطرية الثمينة وكثيراً ما يحصل عليه في جنوب فرنسا من زهر النارنج والبرتقان معاً فيكون بنسبة نصف جرام الى جرام واحد من الزيت من كل كيلوجرام من الزهر . وقد قدّر بعضهم ما ينتج من الفدان من زهر النارنج في بعض البلدان بخمسين جنيهاً وهو ربح وفير

ويستقطر من الاوراق والاغصان والثمار الناضجة الصغيرة زيت طيار آخر يسمى (زيت پتيجران) (Petitgrain Oil) يدخل في الروائح العطرية قليل اجوده يأتي من پاراغواي بأمريكة الجنوبية

ويستقطر من الأزهار كذلك ماء الزهر المعروف وهو هاضم للطعام مضاد للتشنج والصداع هذا الى ان منقوع الاوراق مع اوراق البرتقان دواء مسكّن معروف في الطب . والنارنج بالنسبة الى ثماره ثلاثة اصناف :

١ — (النارنج العادي) والنارنجة منهُ كبيرة عصارية مرّة ولونها اصفر برتقالي فاقع وهو الذي يربّب عادةً

٢ — (النارنج الورديّ) وسطح النارنجة منهُ متألل بلا نظام وهو نادر في مصر

٣ — (النارنج الحلو) شجرته كبيرة والنارنجة منه اصغر منها في العادي ويمتاز بمدم حموضة لبه بل بحلاوته في مرارة وبرفرة عصارته . قيل إنهُ كان في حديقة احمد طوسون باشا ابن محمد علي باشا بشبرا فكان يسمى (النارنج الطوسوني) ويسمى ايضاً (بالنارنج اليوسفي) نسبةً الى يوسف افندي الذي كان محافظاً لرشيد على عهد المرحوم محمد علي باشا وصار بعد ذلك امين مخزن في جزيرة كريد مع العساكر المصرية

شجر البرغموت

صنف من النارنج اوراقه شبيهة بأوراق الليمون ولهذا يقال لهُ في مصر (ليمون الجرجون) ورقتهُ مستطيلة قمتها حادة او مفرجة حافتها مسننة قد يكون لذنبيها جناحان . وأزهار البرغموت صغيرة ذكية الرائحة جداً . وثمرتهُ في شكل الكمثرى مستديرة من قمتها ضيقة من قاعدتها طولها نحو ستيمترات وعرضها سبعة تقريباً مقعرة عند اتصالها بالغصن . قشرتها رقيقة ملساء اوعجية سطحها اصفر اللون فاتح . لبها ابيض تقريباً رائحته ذكية جداً وطعمهُ حمضي قليلاً

اسمهُ العلمي (Citrus aurantium, L., var. Bergamia, Risso) (سيتروس اورانشيوم برغاميا) من فصيلة النارنج واسمهُ بالانكليزية (Bergamot) وبالفرنسية (Bergamotier)

موطنهُ الصين وهو نادر في مصر وكثيراً ما يزرع بكلابريا في جنوب ايطاليا. اما ثمارهُ فيستقطر من قشورها زيت طيار ذكي الرائحة ثمين يقال له (زيت البرغموت) (Bergamot Oil) يدخل في تركيب الروائح العطرية جاء في بعض المراجع انهُ يحصل على ثلاثين اوقية منهُ من كل الف ثمرة وان ثمن هذا المقدار من الزيت جنيه ونصف الى جنيهين بحسب درجة نقاوته

هذا وقد يستخرج من الأزهار زيت آخر ايضاً له استعمالات كالسابق

وهناك صنف آخر من هذا الشجر مشهور بزيت أزهاره الذكي الرائحة جداً وارتفاع ثمنه وهذا الصنف يسمى بالفرنسية (بيغارديه) (Bigardier) قيل إنه يستقطر جرامان فقط من هذا الزيت من كل كيلو جرام من الزهر وان ثمن الرطل منه يتراوح بين ١٢ و١٨ جنيهاً

شجر البُرْتُقَان

أو (البُرْتُقَال) او (النَّارَنْج الحلو) وفي الشام (البُرْدُقَان) قيل إنهُ مشتق من التركية (بورْتُقَال) او (بُورْتُوقَال) او أنهُ نسبة للبورتغاليين الذين نشروه بين الناس بعد سياحاتهم الكثيرة الى بلاد الهند موطنهُ الاصلي فقد سماهُ فورسكال[1] (نارنج البرتغان) ويسميه الاسبان الى الآن نَارَانْجًا (Naranja) ومازال اهالي نيقوسية عاصمة قبرص يسمونهُ (بورتغالي)

ترتفع شجرته من ٨ اقدام الى ١٢ قدماً أوراقها مستطيلة خضراء اللون قاتمة. وأزهارها تنبثق على الاغصان فرادى او مجتمعة بثلاثها (وريقات التويج فيها) بيض نخينة كثيرة العدد الريتية المصفرة وثمرتها البرتقالة المعروفة سطحها اصفر واليهِ تنسب الصفرة البرتقانية ولبها حلو سكّري مقسوم الى ٨ فصوص او ١٠

اسمهُ العلمي (Citrus Aurantium, L., Var. sinensis, Hall. Cit., or dulcis Volk.) (سيتروس اورانشيوم سينانسيس او دولسيس) وفصيلته الذابية (Rutaceae) (روتاسية) وبالانجليزية (Common, or Sweet Orange) وبالفرنسية (Oranger)

موطنهُ قديماً في الجنوب الشرقي من آسيا وفي رأي في الهند الشمالية واصبح الآن يزرع في جميع المناطق الحارة وجنوب اوربا وجزائر آسورة بالمحيط الاطلنطي وجزائر الهند الغربية ومصر والشام والسودان وغيرها كما اصبحت تجارته تمور ويح وفير والبرتقان يؤكل عادة طازجاً كفاكهة

(١) بيتر فورسكال (Peter Forskal) الرحالة والعالم الطبيعي السويدي ولد في سنة (١٧٣٦ — ١٧٦٣ م.) وبعد ان اتم علومه في جامعة جوتنجن بالمانيا ارسله ملك الدانيمارك في بعثة علمية الى مصر وبلاد العرب فوضع كتاباً في نباتات مصر وبلاد العرب وتوفي في ريمان شمالي بالطاعون في يوم من بلاد اليمن

او يعتصر منهُ شراب او يتخذ منهُ نبيذ في بعض البلدان . ويحصل من قشوره بالتقطير على زيت خيار رخيص يعرف (بزيت البرتقان) يدخل في تركيب بعض الروائح العطرية الثمينة

ويحصل من أزهاره الطازجة كما في النارنج على زيت نيرولي الذي يدخل في صنع الروائح العطرية ويستقطر من اوراقهِ وثماره الصغيرة زيت عطار آخر استعماله كالسابق ويستخرج من الازهار ماء الزهر المعروف بفوائده في الطب في حالات التشنج والصداع . قيل إن الرائحة الخاصة في عسل شبه جزيرة سورّنتو القريبة من نابولي بايطاليا انما ترجع الى اعتماد النحل من زهر البرتقان فيها

هذا وشجر البرتقان قد يكبر فيعمر طويلاً فقد جاء في بعض المراجع انهُ عمّر في قرطبة باسبانيا نحواً من ٧٠٠ سنة وان شجرة منهُ كانت معروفة باسم (جران بوربون Grand Bourbon) بقرطاي عمرت نحواً من ٤٦٠ سنة. أما خشب البرتقان فابيض اللون يضرب الى الصفرة صفيق صلب جيد في الصقل جميل المنظر عطري الرائحة لا يفتك به السوس يصلح للنجارة بعض الاثاث ولكنهُ لا يعتمد للتغيرات الجوية

وعلى الاجمال فالمنتفع بهِ من شجر البرتقان انما هي الثمار والأزهار والاوراق والخشب . وهو بالنسبة الى ثماره اصناف كثيرة اهمها :

١ — (البرتقان البلدي) في مصر شجرته قوية كثيرة الثمر وهو جيد الطعم برجه عام

٢ — (البرتقان السكّري) شجرتهُ غير شائكة وهو متوسط الحجم او كبيره قليل البذور معروف في مصر

٣ — (برتقان القديس ميخائيل) كبير الحجم قشرته رفيعة ولبه احمر قاني وطعمه جيد قيل في كثرة ما تنتجه شجرة واحدة منهُ إنها حملت عشرين الف برتقانة في السنة في جزائر آسورة بالمحيط الاطلنطي

٤ — (البرتقان ابو سرّة) ويعتبر اجود اصناف البرتقان كبير وفي طرف قمة الواحدة منهُ نكتة شبّهوها بالسرّة ولبه كثير العصارة يكاد يكون بلا بذور وشجرتهُ غير شائكة تقريباً تبكر في حملها وقد انتشر في مصر حديثاً

٥ — (اليافاوي) ويقال له (الشاموتي) يمتاز بكبر البرتقانة وحجمها البيضي ولبها العصاري الكثير وبقلّة البذور فيها او عدمها

٦ — (البرتقان الاحمر) ويقال له (أبو دم) وهو متوسط الحجم ذو لب قرمزيّ اللون قاني شبيه بالدم قليل البذور شجرتهُ غير شائكة معروف بمصر

٧ — (برتقان بلنسية) صنف مستحدث شجره مشهور بطول وقت إنتاجه خلافاً للمعتاد

٨ — وثمّ نوع من البرتقان الياباني يقال لهُ (كومكوات) (Kumquat) من الفصيلة نفسها اسمهُ العلمي (Citrus japonica, Thunb.) (سيتروس جابونيقا) ذائع في اليابان والصين ونادر

في مصر ترتفع شجرته من مترين الى ستة امتار واوراقها صغيرة رفيعة اهليلجية الشكل مستطيلة حافاتها ذات اسنان كبيرة . وثمراتها صغيرة الواحدة منها في حجم حبة كبيرة من العنب الافرنجي المسمّى بالانجليزية (Gooseberry) أي عنب الاوز الذي هو نوع من (الريباس) (Ribes) والحبة سطحها اصفر برتقالي فاقع برّاق وقشرتها رفيعة حلوة الطعم ذات رائحة خاصة ولبها مزّ الطعم مقبول مقسوم الى خمسة فصوص

واهل اليابان والصين يزرعونهُ ويحسنون اكل ثماره ذات القشور الحلوة والالباب المزّة وكثيراً ما يصنعون منها نوعاً من الحلوى المحفوظة مسكّرة او يتخذون منها مربى

شجر يوسف افندي

او (البرتقان اليوسفي) نسبةً الى رجل ارمني كان يسمى يوسف افندي ارسله المرحوم محمد علي باشا الى فرنسا لتعلم فن الزراعة الاوروبية فلما عاد في سنة ١٢٤٨ هجرية جلب معهُ صنفاً من البرتقان من مالطة غرسهُ بحديقة شبرا التي وقف بها وطعّم منهُ اصنافاً اخرى اهمها النارنج فتكاثر منه شجر يوسف افندي

وشجرة يوسف افندي ترتفع من ثلاثة امتار الى اربعة . فروعها رفيعة وأوراقها رمحية الشكل ملساء برّاقة تفوح منها وهي غضة رائحة عطرية . ثمرتها كالتفاحة حجماً وشكلاً . قشرتها رفيعة وسطحها اصفر اللون يضرب الى الحمرة تنزع بسهولة . وفصوصها سهلة الانفصال طعمها حلو لذيذ

اسمهُ العلمي (Citrus nobilis و Lour. Syn. Citrus delicious, Ten.) (سيتروس نوبيليس او سيتروس دليسيوزا) من فصيلة البرتقان والانجليزية (The Mandarin) وبالفرنسية (Mandarinier) موطنه الهند الصينية والآن عمّمت زراعته في الهند وفلوريدا واوربا ومصر والشام والسودان وغيرها من اجل ثماره التي تؤكل فاكهة

وهو بالنسبة الى ثمره اصناف عديدة اهمها :

١ — (اليوسفي البلدي) معروف في مصر اغلبه حلو الطعم كثير العصارة والمظنون انهُ الاصل في الاصناف المصرية

٢ — (الملكي) صنف امريكي معروف بمصر نادر كبير الحجم جيد

٣ — (الهندي) ويعرف (بالسنترا) (Sumra) نادر في مصر مشهور بحلاوة طعمه

٤ — (الياباني) ويقال له (الساتسوما او الانخوس) (Satsuma or Unchus) كبير الحجم يكاد يكون بلا بذور وينشأ على اغصان شجره في شكل عناقيد كبيرة وهو نادر في مصر

٥ — (السيلاني) ويعرف (بالنارنجان) (Nas-naran) في جزيرة سيلان الثمرة منه صغيرة الحجم أو متوسطته ولها طعم عطري خاص

سير الزمان

قناة السويس

مكانتها من الناحية الاستراتيجية

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

طبيعة الحبشة الجغرافية

وصلتها بمنتها الحربية

ملخص تاريخي

لصلة الحبشة باوربا

الدستور السوفياتي

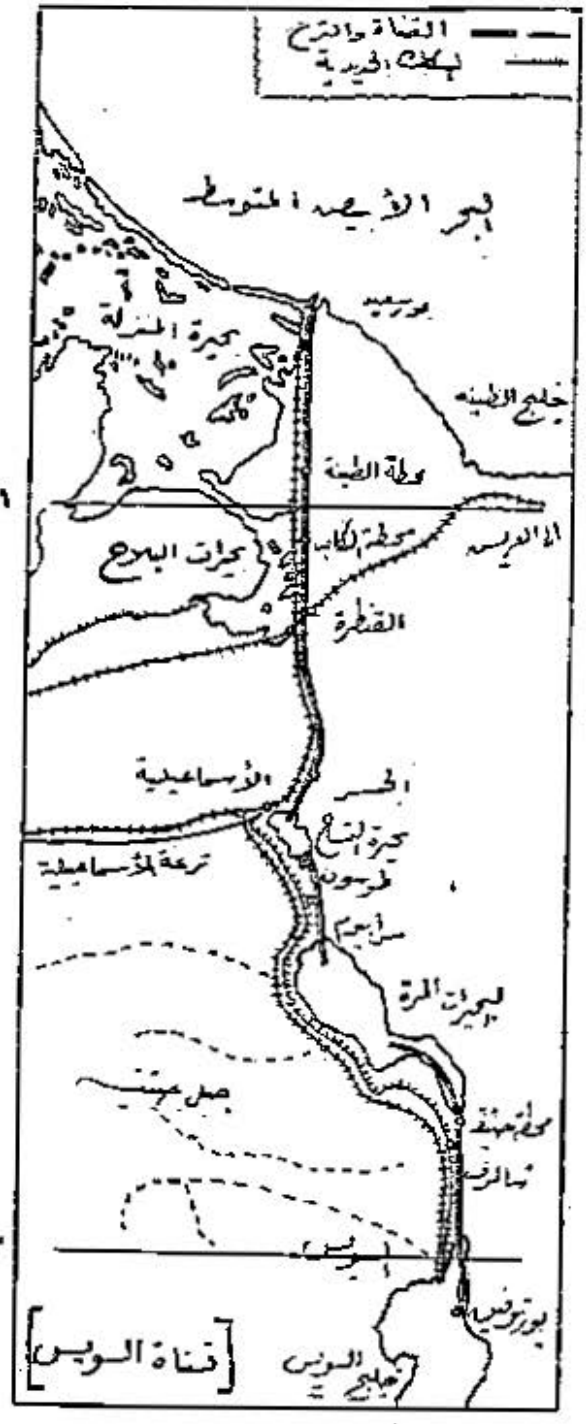
القناة والترع
الملك الجديدة
البحر الأبيض المتوسط
بورسعيد
بحيرة المنزلة
خليج الطينه
دمياط
٣١
بحيرات البحر
الإسماعيلية
القنطرة
الإسماعيلية
البحر
بحيرة التمساح
ترعة الإسماعيلية
فايد
سرابيوم
البحيرات المرة
جبل عتاقة
السويس
بورتوفيق
خليج السويس
قناة السويس

قناة السويس

مكانتها من الناحية الاستراتيجية

للملازم الاول عبد الرحمن زكي

لا جدال في مكانة قناة السويس كحلقة اتصال بين اوربا وآسيا فهي أقصر طريق يصل بين الممتلكات البريطانية في الشرق وبريطانيا . وقد قال بسمارك (Bismarck) انها « كالعامود الفقري ». وعلاوة على ذلك فالقناة أهم العوامل الرئيسية في تشكيل سياسة بريطانيا الخارجية وتسلطها عليها يفسر لنا للانجليز من مكانة متفوقة في الشؤون العالمية

ولتقدير قيمة تمسك الانجليز بالقناة يجب ان لا يغيب عن بالنا ذلك المبدأ الاساسي لسياسة بريطانيا الخارجية وهو المحافظة والعمل على توسيع الامبراطورية . فالهند تعد العقد الاساسي في الامبراطورية فاذا اطمأنت انجلترا الى سيادتها هناك فان همها الاول ينحصر في حراستها وتأمينها بجميع الوسائل الممكنة . وقد عرفت كيف تستفيد من قوتها البحرية فوضعت يدها على جميع المواقع الاستراتيجية الحيوية في طريق مواصلاتها التي تربط المحيطين الاطلانطي والهندي واستحوذت على مستعمرة الكاب من الهولنديين عام ١٨٠٦ فضمنت سيادتها على طريق الكاب ثم وضعت يدها على جبل طارق مفتاح البحر المتوسط (١٧٠٤) ثم على مالطة عام (١٨٠٠) وقبرص (١٨٧٨) وباستيلائها على عدن (١٨٣٩) وجزيرة بريم (١٨٤٧) والصومال الشمالي (١٨٨٤ — ٨٦) وسرقطرا (١٨٨٦) حولت البحر الاحمر الى بحيرة انجليزية . واخيراً ساد نفوذها على مصر فضمت آخر حلقة من حلقات المواقع العسكرية (١٨٨٢) وبذلك ضمنت بريطانيا سيادتها على الطريقين السلطانيين العظيمين الى الشرق وهما قناة السويس والكاب

وقد وجّهت حملة نابليون الى مصر عام ١٧٩٨ انظار انجلترا الى ما لموقع مصر من المقام الاستراتيجي كمركز هام للدفاع عن الهند فاتبعت سياسة الاحتفاظ بالامبراطورية العثمانية وعدم الاضرار بها وتوثيق الصلة بين السلطان العثماني والوالي المصري . وكان اهم اسباب تلك السياسة خوف انجلترا من الروسيا لكي لا تضع يدها على تركيا وترسخ قدمها في البحر المتوسط فتسيطر على العالم الاسلامي وتعرض طريق المواصلات الى الهند للخطر . فمثل هذه الاعتبارات الامبراطورية حملت انجلترا على مقاومة النفوذ الفرنسي في مصر واقتنع رجال السياسة البريطانيون بان استقلال سياسة الامبراطورية العثمانية وسلامة أراضيها أمر حيوي لا تدحة عنهُ لسلامة الاملاك الانجليزية في الشرق

وبينما كانت انجلترا تبذل كل نفوذها لعرقلة مشروع شق قناة السويس كانت قد صممت أن لا تدع أية فرصة لاية دولة لاسيما فرنسا أن يكون لها المقام الاول في البلاد المصرية . فحماية الهند

كما قدمنا تقتضي ان تكون جميع المنافذ المرسلة اليها في أيدٍ انجليزية. ولما تسلّم «فردنان دلسبس» امتياز القناة ظلت معارضة انجلترا لها قوية واستمرت في خطة المقاومة اثنى عشر عاماً. وبالرغم من كل مساعيها في تلك الناحية تم شق القناة وواجهت بريطانيا الأمر الواقع فوجدت في انشائها ما لا يطاق لمرقعها . . . ثم سلطاني أقصر ما يؤدي الى امبراطورية الهند يقع في قبضة اجنبية ومصدر ارباح لرجال الامبراطورية كما وجد رجال ملاحتها غضاضة لا تريحهم في العمل مع شركة فرنسية وهم الذين يقبضون على نواصي الحركة التجارية وكان عليهم ان يدفعوا ضرائب المرور الثقيلة ويتبعوا تعليمات شركة القناة وينفذوها بكل دقة

ومن هنا نشأت الحماسة لشراء اسهم الخديو اسماعيل باشا ليكون لانجلترا صوت مسموع في ادارة القناة. وعلى الرغم من انها أصبحت أكبر مساهم فيها لم تخضع القناة لمراقبتها بل استمرت القناة فرنسية كما استمر النفوذ الفرنسي في مصر قويًّا. لكن انجلترا استطاعت بعد أعوام قليلة الانتفاع بنمو الحركة العرابية في مصر فوضعت يدها بلباقة على أهم موقع جغرافي في العالم وضمنت مراقبة القناة الفعلية. ولما أصبح لانجلترا النفوذ السامي في مصر اتبعت سياسة أخرى تجاه الباب العالي. فقد كانت فيما قبل راغبة في المحافظة على «الرجل المريض» وهو مشرف على الموت. اما اليوم فعادت لا تعبأ به لأنها نالت ما أربها ولم تر في بقاء تركيا ضماناً ضروريًّا لحماية الهند وغدت السياسة الانجليزية ترى أنهُ من مصلحتها فك الصلة التي تربط السلطان بالخديو ورمت الى اكتساح نفوذه نهائيًّا

وكانت انجلترا قد خطت الخطوة الاولى في هذا السبيل بتأييد تلك السياسة فمنعت الباب العالي من ارساله تجريدة عسكرية لاخماد الثورة العرابية عام ١٨٨٢ وتظاهرت بأنها ستؤدي تلك المهمة بقواتها الانجليزية وتثبت عرش الخديو ثم جاءت حملة استرجاع السودان عام ١٨٩٨ فلم تظهر في الميادين العسكرية سوى الجنود المصرية والانجليزية وتمت الاتفاقية المصرية الانجليزية في يناير ١٨٩٩ وكأن تركيا لم يكن لها دخل مطلقاً! فكانت هذه الاعمال دلائل قوية على ان انجلترا حلت محل تركيا في نفوذها بمصر. ثم كان للسلك الشاذ الذي اتبعته انجلترا في مسألة حادث العقبة عام ١٩٠٦ ودلت نتائجهُ على ان انجلترا قد أصبحت صاحبة الكلمة العليا في مصر

أهمية موقع مصر

كانت لمصر مكانة استراتيجية خلال كل العصور التي مرت بها ولقد قال نابليون ذات مرة أن من يكون صاحب مصر يكون سيد الهند. وكانت حملته على مصر عام ١٧٩٨ تهديداً لا يمكن لانجلترا ان تنساه. ولما شقت القناة أصبحت مصر بحكم الطبع ذات أهمية عظمى لانجلترا وأصبح واضحاً جدًّا ان الدولة التي تسيطر على مصر لا بدَّ لها من ان تسيطر على القناة أيضاً. وذكر «أدوارد ديسي» (Edward Dicey) ان مصر من ضروريات الامبراطورية التي لا غنى عنها» قال ذلك في عام

١٨٧٧ قبل الاحتلال البريطاني . « فاذا أصبحت للانجليز اليد المطلقة في مصر فالواجب يقضي بأن تكون لها مكانة ممتازة بين البحر الاحمر وحدود الهند . فذا تم لبريطانيا تقوية مركزها العسكري في مصر استطاعت ان تصد اي هجوم يوجه الى الهند من وادي الفرات . والشيء الوحيد الضروري لانجلترا هو ضمان حرية الملاحة في القناة » وقال كاتب انجليزي آخر « ان مصر هي مركز العملة لسياستنا الخارجية فهي في منتصف الطريق من الناحيتين السياسية والبحرية الاستراتيجية وبين امبراطوريتنا الشرقية والغربية فهي نقطة التوازن التي توفق بين علاقاتنا الخارجية وممتلكاتنا الامبراطورية » . ولذلك نجد في مصر انها من أسهل الامور إرباك الحالة السياسية او تأمينها فاذا تحققنا من مقام انجلترا في توزيع التجارة الشرقية استطعنا ان ندرك لماذا حاولت الوصول الى حفظ القناة بعيدة عن حرية تدخل الدول في تدبير دفتها ولماذا سعت السنين الطوال وجاهدت من دون كل جهاد سياسيًا وعسكريًا وأدبيًا واقتصاديًا لتسود القناة من جميع النواحي . ولم يرض اصحاب النظرية الامبراطورية بأقل من الرقابة الفعلية عليها »

وذكر « ديسي » في مقام آخر ان: « فكرة الحياد لا تتفق مطلقاً مع حاجاتنا فأي تأويل مبهم لتلك الكلمة يضعنا في مركز يزداد سوءًا . فالضمانات الدولية مهما تعني قيمتها ليست كفيلة بتأمين صلاتنا الحرة مع الهند او بعبارة اخرى لضمان امبراطوريتنا . ولما كانت الطريق الى الهند بفضل القناة تقع خلال شبه جزيرة سيناء ، ولما كان المتسلط على شبه الجزيرة يتحكم في القناة وجب علينا لطمأنينتنا ان نضع ايدينا على شبه الجزيرة . فنحن نرى انفسنا بين عاملين اما ان نرى طريقنا الى الهند مهدداً في زمن الحرب وإما ان نحتل مصر . ومن هذه الورطة لا ارى مفرًا »[1]

وبانتهاء القناة اصبحت الطريق الرئيسي الى الهند فكان ضروريًا ان ترغب انجلترا في مراقبتها وجاء منطق التاريخ فجعل هذه الحقيقة واضحة وبموجب هذه النظرية دافع ديسي في كتاباته فقال:

يجب علينا بكل الوسائل ومن جميع النواحي ان نعمل على وضع القنال تحت ايدينا . وهذا هو الغرض الحقيقي الذي نسعى اليه ويجب ان تكون قاعدة كل مفاوضة في المستقبل مؤسسة على هذا المبدأ . لقد حكم القضاء بأن تكون انجلترا سيدة القنال كما اصبحت سيدة مصر . وضد القضاء المحتم يضيع سدى كل ما تعمله الآلة والبشر سواء أكانوا في السويس ام كانوا في بناما[2]

عقب ذلك اثيرت في انجلترا مسألة القناة من ناحية حيويتها للمحافظة على الامبراطورية وفي عام ١٨٧٧ تساءل غلادستون (Gladstone) اماذا نعمى ان تكون النتيجة لو وقفت انجلترا مساعيها تجاه القناة . فكان الرد عليه بأن الضربة تكون قاضية لما يليها من التأثير في التجارة والرخاء

(١) مجلة القرن التاسع عشر يونيو ١٨٧٧ . مجلد ١ صحيفة ٦٨٤ (٢) مجلة القرن التاسع عشر غسطس ١٨٨٣ مجلد ١٤ صحيفة ٢٠٥ من مقال بعنوان «لماذا لا نشتري قناة السويس؟»

والرفاهية العالمية . فنحن أعظم ناقلي المتاجر وأول امة تجارية في العالم المسيحي وسنكون في مقدمة الخاسرين

وكان من رأي « السر شارلز دلك » (Sir Charles Dilke) ان القناة تكون غير مأمونة في حالة اعلان الحرب ضد دولة بحرية كبيرة . فالقناة كسبيل من سبل المواصلات في زمن الحرب تصبح واهية كخيط العنكبوت فان سفينة او سفينتين تغرقان فيها او مقداراً من الديناميت ينفجر فيها بالقرب من خليج السويس او بعض طوربيدات تكمن في اثناء الليل تكفي لسدّها . وثمة غير هذا من العراقيل البحرية التي يسهل ارتكابها . كل هذه تساعد سد المرور خلال القنال وتحرم السفن من اجتيازه مدة ايام او اسابيع وتمنع التنقل بواسطة البحر المتوسط باستثناء الجنود من دون عتادهم الحربي ويكون من الصعب جداً المحافظة على حرية الملاحة في القناة حتى لو كانت داخل حدود الامبراطورية البريطانية . كما ان واجب حراسة القناة يستلزم تخصيص قوة كبيرة من الجنود لحمايتها ومراقبة المنافذ المؤدية اليها بواسطة جزء كبير من الاسطول . لكننا لا نملك حقوقاً خاصة تتعلق بالقناة وليست لنا قوة نمنع بها العدد الضخم من السفن التجارية التي تتعمد اغراق نفسها في منتصف القناة » (١)

قال المؤلف الانجليزي جورج هوبر (G. Hooper) في مقال نشره في مجلة الخدمة المتحدة عام ١٨٩٠ ان القناة غيرت الموقف البريطاني الى ما هو أسوأ حالاً فقد صحت لدول ثانوية أخرى بالذهاب الى الهند بسهولة وكانت الاحوال الى قبيل انشائها تجعل للانجليز سيادة لا نزاع فيها في تجارة الشرق . . . وقناة السويس أصبحت اليوم من اسباب انتقال العنيف . ونحن اليوم اذا رأينا فردنان دلسبس نشع من تمثاله هالة المجد التي تعترف بنبوغه وتفوقه فأنا نراه ايضاً كمعبود اقيم لتفرقة البشر . ولقد انشئت القناة ضد رغبة انجلترا وصممت في الاصل لكيدها ولطمنها في صميمها . ومن المحتمل جداً انها كانت انتقاماً فعّالاً من معركة وترلو نجح نابليون الثالث في توقيعه

ولم يتفق الكابتن ماهان Capt. Mahan مع من قالوا بالتخلي عن طريق القناة لعدم تأمينه في زمن الحرب لانهُ مع كل ما يلحق بالقناة حتى ولو انتهى الامر الى ردمها لا يغير سير الاحوال الطبيعية التي جعلت لمصر مركزاً استراتيجياً المسر الرئيسي بين الشرق والغرب وهو يعتقد انهُ من الخطأ الشنيع ان تسحب انجلترا يدها من مصر

ان موقع مصر العسكري ليس لهُ مثيل في توسطه فركزها يسمح بحشد اكبر عدد من القوات العسكرية لتوزيعها الى اي مكان في حالتي الدفاع والهجوم ومنها تحوّل الى جبل طارق والهند . ومصر ملتقى لاستقبال المواد من جميع الموارد فلا تستطيع بحرية أية دولة ان تعارضها وتقطع عليها خط الرجعة . وهذه الموارد اذا لم تبالغ في عددها قلنا انها تجيء من ميدانين او ناحيتين

(١) كتاب مشكلات بريطانيا العظمى . لندن عام ١٨٩٠ ص ٦٥٧ — ٦٥٨ Problems of Great Britain

هما طريق البحر الاحمر والبحر المتوسط . فأي اسطول يمكنه الجمع بين الاثنين ؟ واذا امكن عرقلة طريق البحر المتوسط بقيت طريق البحر الاحمر اقصر السبل الى الهند واستراليا والكاب وموارد تلك البلاد تكفيها بل تزيد على ما تتطلبه وتستطيع البلاد مدة طويلة بينما يكون البحر المتوسط مقفولاً . ولا ننسى ان لبريطانيا طريقاً آخر هو طريق الكاب رغماً عن طوله . وعلى كل حال فالمواصلات تبقى مستمرة كما هي . وهي خطة تقضي بها السياسة الاستراتيجية في حالة الدفاع فقط وليست في حالة الهجوم . والحل الوحيد لانقاذ الموقف للدولة تضع يديها على مالطة وجبل طارق ان تسيطر بقواتها على مصر وتعزز مركزها فيها . وهناك في الهند واستراليا والكاب تؤسس مصادر للامدادات الضرورية

وسواء أكانت القناة حيوية ام غير حيوية لانجلترا فهذه ترى ضرورة السيطرة عليها لمنع كل دولة من عرقلة مواصلاتها الى الشرق . وقد كانت روسيا زمناً طويلاً اكبر مهدد لانجلترا في الهند . ونحن نذكر لها محاولتها العنيفة في الشرق الادنى ومساعيها لكسب ميناء تطل على البحر المتوسط ولفتح المضيقين (البسفور والدردنيل) لسفنها الحربية وتدخلها في شئون البلقان ومطامعها في الحبشة . كل هذه الامور اثارت ظنون انجلترا وشبهتها وخوفها . فانهُ بعد فتح القناة بدأت روسيا تهتم بشئون الحبشة ورغبت في تحويلها لحمايتها لتعارض بها سيادة بريطانيا على الطريق البحري نحو الشرق ولتعمل على مقاومة نفوذها لكي تجعلها قاعدة استراتيجية لها في حالة نشوب حرب بينها وانجلترا

وفي اثناء الحرب التركية الروسية (١٨٧٧ — ٧٨) حذر لورد دربي (Derby) الروسيا ضد أي هجوم تحاول القيام به على قناة السويس وارسلت بريطانيا اسطولاً انجليزيًّا الى الاستانة . وفي يونيو ١٨٧٨ وضعت انجلترا قدميها في قبرص وهي اقرب جزر البحر المتوسط للقناة وجعلتها قاعدة للعمليات الحربية في شرق البحر المتوسط . وظلت مسألة المضيقين سنين طويلة من أهم عوامل الشقاق والمنافسة بين الانجليز والروس ولكي تظل انجلترا صاحبة النفوذ في حماية القناة والملاحة في البحر المتوسط بقيت تقاوم كل محاولة تبذلها روسيا في سبيل السماح لها بمرور السفن الحربية من المضيقين . وهذا يفضي بنا الى عام ١٩٠٢ لما حصلت الروسيا من السلطان على الاذن بمرور أربعة سفن طوربيد من الدردنيل والبوسفور للانضمام الى اسطول البحر الاسود فخشيت انجلترا هذا المبدأ . وفي يناير التالي قدم « السر . ن . أوكنور » مذكرة للباب العالي يطلب الحق في الحصول على نفس الامتياز لمرور السفن الحربية الانجليزية اذا اقتضت الاحوال

وفي عام ١٨٨٨ تألفت شركة المانية تحت اشراف « البنك الالماني » واشترت من الانجليز خط السكة الحديدية الممتدة من حيدر باشا الى ازميت ثم توالت فيما بعد باسم شركة سكة حديد الاناضول لانشاء فرع الى انقره . ولم تمض عشر سنوات حتى انتهى الالمان من مد ما يقرب من الالف كيلو

متر من الخطوط الحديدية داخل تركية الاسيوية. وفي مارس ١٩٠٣ تسلّم البلك الالماني امتيازاً آخر لانشاء خط فرعي يصل بين قونيه والخليج الفارسي. وهذا المشروع الذي عرف باسم سكة حديد بغداد وضع الاستعماريون الالمان فيه املهم لاحياء الامبراطورية العثمانية اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وبذلك تحدّت سكة حديد بغداد سيادة انجلترا في الشرق واصبحت اسرع وسيلة للنقل الاوربي تنافس به منافسة جدية الحركة التجارية في قناة السويس. ويحصول الالمان على منفذ بحري مطل على الخليج الفارسي يستطيعون تهديد المصالح البريطانية في تلك الجهة. ويستطيع ذلك الخط ان يتصل فيما بعد بسكة حديد سوريا والحجاز فتهدد مواصلات الامبراطورية وتوقعها اضراراً جسيمة. لكن لم يخف على انجلترا نتائج النيّات الالمانية فاستطاعت عام ١٨٩٩ الاتفاق مع أمير الكويت على ان لا يعقد أية اتفاقات دولية بدون موافقة المستشار البريطاني المقيم. وكان لذلك العمل نتيجة سريعة في احباط المشروع الالماني لمد الخط الى الخليج الفارسي

وقد ادرك كتاب الالمان ما لسكة حديد بغداد من المكانة الاستراتيجية وكان من اشد المتحمسين لها الدكتور بول روهرباخ (Dr. Paul Rohrbach) الذي اشار مراراً خلال كتاباته الى الاخطار التي تلحق بالامبراطورية الانكليزية بسببها وكان مما ذكره انه يمكن مهاجمة انكلترا واصابتها بطعنة نجلاء في البر من اوربا في مكان واحد وهو مصر. وليس معنى خسارة مصر ان تختتم سيادتها على قناة السويس وانها سيطرتها على مواصلاتها الى الهند والشرق الاقصى فقط بل من المحتمل اصابتها ايضاً او فقدها لمستعمراتها بأفريقيا الوسطى والشرقية. والذي غزو مصر بقوة اسلامية كتركيا مثلاً كان يؤذي المصالح الانكليزية ويعرض سيادتها على الستين مليوناً من المسلمين في الهند للزوال. ولقد اشار اللورد كرومر الى خطر هجوم يقوم به الاتراك على القناة ومصر من ناحية شبه جزيرة سينا وذلك منذ عام ١٩٠٦ عقب جفاء العلاقات السياسية بين بريطانيا وتركيا بسبب حادث الحدود. ومنذ ذلك الحين بدأ اهتمام هيئة اركان حرب الدفاع في بريطانيا بتلك الاعتبارات المهمة ودرس العسكريون خطط الدفاع عن القناة متوقعين كل الاحتمالات وقد رأينا كيف شعرت بريطانيا قواتها في اثناء الحرب العظمى دفاعاً عن القناة لصد هجوم الاتراك والالمان عليها حتى لا تشل مواصلاتها المستمرة مع الهند واستراليا وزيلندا الجديدة وانقت بذلك الضربة التي وجهت اليها

وبانتهاء الحرب العظمى ماتت فكرة الهجوم من تلك الناحية الصحراوية ولم يعد هناك ما يخيف انجلترا بما اصبح لها من التفوق العسكري وبما انشأته من المطارات في العراق وفلسطين وشرق الاردن حتى العقبة

وهناك كثيرون يقولون أنه من المحال تدمير قوة انجلترا في حرب واحدة. ولكن قد يكون من الممكن تنفيذ هذا العمل في الاراضي المصرية. وان انشاء قناة السويس كان مصيبة لانجلترا وكان السياسيون الانجليز قد تنبأوا بهذا الخطر فعارضوا في شقها. ولا شك أنه اذا قدرت هزيمة

انكلترا في مصر لدوت نتائج الهزيمة من جبل طارق الى سنغافورة . واذا تدمر مفتاح انعقد انهار كل البناء وانذاك ضرح القوة الانجليزية في العالم(١)

البحر الابيض المتوسط

ترى اليوم انجلترا أقوى دول البحر المتوسط بما تحتفظ به من القوات الكبيرة في قواعدها البحرية الموزعة بين جبل طارق ومالطة وقبرص والسويس وحيفا فهي تشرف على جميع انحاء هذا البحر الذي يريد داخل ايطاليا تسميته « بحرنا » (Nostro Mare) ولا تتمامى ان لفرنسا في ذلك البحر مدة مصالح تشرف عليها بقواعدها البحرية في قورسيقا وبزرتا وأوران والجزائر . كما نذكر أيضاً وصايتها على سوريا . كذلك لايطاليا قواعد بحرية في جزر الديدوكانيز ورودس وجنوة وسبنا وناپولي وهي لا تتنع بمقامها الحالي . وسياستها في البحر المتوسط ترمي الى زيادة نفوذها ورفع مكانتها ليكون لها المقام الاول بين دول البحيرة الايطالية ! وكثيرون من الكتاب الايطاليين تجد في كتاباتهم عن الدولة الايطالية الناشئة قولهم ان نصف سواحل فرنسا او اسبانيا تطل على البحر المتوسط فاذا اغلق في يوم من الايام في وجه الايطاليين باقدام انجلترا على اقفال جبل طارق والسويس استطاعت الجمهوريتان اللاتينيتان ان تعيشا ولا تهلكا لاتصالها بمياه المحيط الاطلانطي ولا تشل حركة اعمالها بأي حال من الاحوال . لكن ايطاليا وهي من دول البحر المتوسط القوية تمتد كقنطرة في عرض البحر وتطل كل شواطئها على ميادة وليست لها سواحل تمس بحاراً أخرى . فايطاليا تعتمد عليه كل الاعتماد بل وحياتها تتوقف على المقاصد الطيبة التي يضمرها الايطاليين من بأيديهم مفاتيح هذا البحر . وهي جبل طارق والسويس ومن أقاموا لهم قواعد قوية لا غراض امبراطورية ليست قومية في مالطة وقبرص مثلاً . والنتيجة المحتمة هلاك شعب تعداد سكانه ٤٣ مليوناً في شهور قلائل اذا اوصدت انجلترا منافذ البحر لتنفيذ أغراضها العدائية فتصبح ايطاليا سجينة وتمنع عنها واردات الحنطة والفحم وزيوت الوقود والحديد وجميع المواد الهامة الضرورية لحياة شعب متمدن حديث

فنحن نرى اليوم مشكلة ايطاليا في البحر المتوسط معقدة كل التعقيد . وان عراكاً تظهره الأيام المقبلة لأجل السيادة فيه بين اصحاب الحق او من يدعيه امر محتمل الوقوع عاجلاً او آجلاً وسنرى انجلترا عاملة في سبيل تحقيق أغراضها الى النهاية . وقد قال السير آرثر ويلرت عام ١٩٢٨ : ان البحر المتوسط هو المركز الاستراتيجي للامبراطورية فاذا فقدنا حرية المواصلات فيه من جبل طارق الى قناة السويس تتكلك العامود الفقري لسياستنا الاستعمارية »(٢)

(١) من مقال لدكتور بول روهرباخ بعنوان "Das grössere Deutschland" نشر في ١١ سبتمبر ١٩١٥

(٢) من كتاب "Aspects of British Foreign Policy" للسير "Arthur Willert" طبعت في نيويورك عام ١٩٢٨ — ص ٢٢

طبيعة الحبشة الجغرافية

وصلتها بمنعتها الحربية[1]

يرى السفير موسوليني ان ايطاليا مسوقة بالحاجة القاسرة ، اقتصادية وشعبية ، الى بسط سيطرتها السياسية على الحبشة . الاّ انّ ما عرف عن الاحباش وتمسكهم باستقلالهم ، يجعل كل محاولة التوسع الايطالي متعذرة الاّ بعد نزاع عسكري واسع النطاق مع جيوش الامبراطور هيلاسلاسي. وقد كانت اقوى الوسائل التي اعتمد عليها الاحباش في الدفاع عن بلادهم طبيعتها الجغرافية والطبوغرافية ولا يخفى ان وسائل الحرب الحديثة قد اضعفت من شأن عوامل الاقليم والطبوغرافيا في الخطط العسكرية ، في الاحوال العادية . ولكننا كلما تعمقنا في درس النهج الذي يحتمل ان تنهجه الحملة الايطالية في الحبشة مالنا ما للعوامل الطبيعية من الشأن في مسيرها ومصيرها

ليس لايطاليا الاّ قاعدتان تستطيع ان ترتكز عليهما في حملتها على الحبشة وهما مستعمرتاها الافريقيتان اي الاريترية والصومال الايطالي . فالاولى على ساحل البحر الاحمر الى الشمال من الحبشة والثانية على ساحل المحيط الهندي الى الجنوب وعلى مقربة من خط الاستواء

ففي الاريتريا حشد موسوليني الجانب الاكبر من الحملة الايطالية الافريقية ومنها شرع في محاولته اكتساح الحبشة . ليس لمستعمرة الاريترية في حد ذاتها اي قيمة حقيقية من الوجهة الجغرافية. اما من الناحية الاقتصادية فكانتها قائمة على انها تسيطر على منافذ التجارة من شمال الحبشة وهي تجارة مقدارها يسير على كل حال . ولكن مكانتها من الناحية العسكرية كبيرة لانها تجهّز الايطاليين بقاعدة للاعمال العسكرية معتدلة الجوّ ، وترسّخ اقدامهم في شمال النجد الحبشي . فاسمرا عاصمة الاريترية بلدة متوسطة على ارتفاع سبعة آلاف قدم ومتوسط حرارة جوها السنوي ستون درجة بمقياس فارنهيت (اي ١٥ درجة مئوية) ولذلك يسهل على الاوربيين ان يقطنوها . الاّ ان ما يصدق على اسمرا لا يصدق على مرفإ مصوّع ، حيث تشتدّ الحرارة في معظم شهور السنة . واكبر الصعاب التي يتعرّض لها سكان الاريترية قلة الماء فيها الناشئة عن قصر فصل الامطار

اما بلاد الصومال الايطالي في الجنوب فتختلف كل الاختلاف عن مستعمرة الاريتريا . فهي جزء من تلك المناطق الشبيهة بالصحراوية التي تحدق بالنجد الحبشي من ناحية الشرق ومنها بلاد الصومال البريطاني والصومال الفرنسي وسواحل الاريترية وولايات الحبشة الشرقية الشمالية والشرقية الجنوبية . ففي الصومال الايطالي لست تجد جبالاً ذات شأن . فانخفاضها وقربها من خط الاستواء

---

(١) ملخص فصل للسير سكتا Scaetta صاحب المباحث العلمية في شمال افريقية وقلبه وشرقها وهو الان استاذ علم الاقليم البيولوجي Bioclimatology في جامعة بروكسن في بلاد البنجيك . وقد نشر في عدد اكتوبر من مجلة الشؤون الخارجية Foreign Affairs الزمبة الاميركية

يجعلان سكانها متعذرة على البيض . وسكانها الاصليون يعيشون على الزراعة يعالجونها بأساليب ووسائل بدائية، ورعي القطعان . واصلح مقاطعاتها للزراعة واديا نهر جوبا ونهر وابي شبيلي . فهذان النهران يأتيان من النجود الداخلية عاء القري وتربة حصبة تسمد الارض التي ترسب فيها . فالجيش المتقدم من مقادشيو عليه ان يسلك هذين الواديين او ان يخترق منطقة جافة طولها نحو ٣٠٠ ميل قبل ان يصل الى آبادوال وال وغرلوغوبي حيث تظهر على سطح الارض المياه المتحلبة تحت الارض من النجود الشمالية . فهذه الآبار من الناحية الستراتيجية لها مكانة عظيمة جداً

ooo

اما النجد الحبشي ، وهو بوجه عام ما كان يملو اكثر من خمسة آلاف قدم فوق سطح البحر، فهو الجانب الوحيد من بلاد الحبشة الذي يصلح لاستعمار البيض. هنا يقطن الاحباش المسيحيون المتكلمون لغة الاحرية ، المسيطرون على القبائل القاطنة في الولايات التي تحيط بهذا النجد . والنجد نفسهُ مكوّن من صخور رسوبية مرتفعة تعلوها طبقة صخرية من اصل بركاني . وثمة جبال كثيرة يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف قدم ، وبوجه خاص في الشمال ، وعدة جبال يبلغ ارتفاعها خمسة عشر الف قدم . والى الشرق ، بين النجد والبحر منخفض صحراوي من الارض يعرف بمنطقة الدناكل ، وهو منطقة جافة وبيئة بعض اجزائها اوطأ من سطح البحر ، ولم يفلح في اختراقها حتى الآن الا فريقان من الرحالين الاوربيين احدهما بقيادة لودفيكو نمبت Nesbitt وقد دعاهُ عتر الخليقة الجهني » . وتضيق هذه المنطقة الى الجنوب فتصبح كأنها خندق يفصل النجد الحبشي عن النجد الصومالي . فالطرف الجنوبي من هذا المنخفض اثل مناعة على الغزاة من منبسطه الشمالي وقد سلكتهُ غزاة « الجلا » مراراً من القرن السادس عشر حين ارادت طوائف منهم ان تغزو الحبشة . يضاف الى هذا ان النجد الصومالي لا ينخفض انخفاضاً فجائياً في هذه الجهة . فالعقبات الكبرى التي قد تعترض تقدم الايطاليين من هذه الناحية ، هي طول المسافة وقلة الماء ، اكثر منها طبيعة البلاد الطوبوغرافية

اما في الشمال فعلى كل قائد ينوي ان يغزو الحبشة من ناحية الاريتريا ان يحسب حساب الخنادق الطبيعية التي خدّدها نهر التاكاز وروافده في النجد الحبشي . ولما كانت هذه الروافد تعترض في اتجاهها خط التقدم العسكري ، ولما كان عمقها يزيد احياناً على نصف ميل ، فانها ولا شك تعرقل اي تقلقل عسكري في الحبشة وراء عدوه وبوجه خاص لعدم وجود جسور او طرق لعبور هذه الخنادق. فاذا شاء القائد ان يجتنب هذه الصعاب فعليه ان يوجه جيشه من شرق هذه المنطقة عن طريق ماكال وعجدلا . وهذه هي الطريق التي سلكتها حملة الجنرال نابيير Napier الانكليزي ضد الامبراطور ثيودوروس سنة ١٨٦٨

وتقسم الاحباش بلادهم ثلاث مناطق اقليمية

اولاها يسمونها «دبجا» وهي تشتمل على جميع البلدان التي تعلو اكثر من ثمانية آلاف قدم من سطح البحر . ويدخل في نطاقها جانب كبير من شمال النجد الحبشي والحاشية الشمالية من النجد الصومالي . هنا نجد قطعان البقر والغنم مراعي على مدار السنة . ولكن بعض الثقات يرتابون في هل يصلح اقليم هذه المنطقة لسكنى البيض من جنوب اوربا . ويختلف متوسط الحرارة السنوية من ٤٠ الى ٦٠ ميزان فارنهيت (٤ ٪ — ١٥ ٪) ميزان سنتغراد اي ان جوّها بارد

والثانية ترتفع من ٤٨٠٠ قدم فوق سطح البحر الى ٨٠٠٠ قدم . وتعرف عندهم باسم «وينادينجا» وفيها يختلف متوسط الحرارة السنوية من ١٥ ٪ الى ٢٠ درجة مئوية (سنتغراد) . هذه المنطقة المعتدلة تشتمل على جانب كبير من قلب النجد الحبشي والمناطق العليا من حوضي نهر جوبا ونهر وبي شبيلي . وفي جوانبها توجد آثار الحراج الاستوائية التي ابقي عليها بعد ان اغتالت النار والقطع معظمها . هنا تكثر الحبوب والعنب والثمار الليمونية ويقول الاحباش انهُ في الامكان جني ثلاثة محاصيل في السنة . واذاً فهذه البقعة اصلح ما تكون لسكنى الاوربيين

اما المنطقة الثالثة فيختلف ارتفاعها من ٢٨٠٠ قدم فوق سطح البحر الى ٤٨٠٠ قدم وتعرف عندهم باسم « كولا » . هنا يختلف متوسط الحرارة السنوية من ٢٠ درجة مئوية الى ٢٥ . والاحباش يرون هذه المنطقة شديدة الخصب فاذا دبرت لها اساليب الري الحديث زادت خصباً . فثمة صنف جيد من البن يزرع في اعاليها ، والقطن وقصب السكر يزرعان في مواطيها . وهي اقل صلاحاً لسكنى الاوربيين من المنطقة الثانية ولكنها في الوقت نفسه اصلح لتجهيز ايطاليا ببعض المواد التي تحتاج اليها اذا احسن تدبيرها وبوجه خاص القطن

اما المناطق التي اوطأ من المناطق الثلاث المتقدمة فشديدة الحرارة ومتوسط الحرارة السنوية هناك ٣٠ درجة مئوية . وقطنها في الغالب قبائل رحّل مقلقة للامن ولا تهمُّ الاوربيين

***

ثم هناك اعتبار عسكري كبير الشأن . فالنجد الحبشي يرتفع احياناً الى قنن ذاهبة في الجو ، وينخفض احياناً اخرى انخفاضاً فجائيًّا الى اودية عميقة ذاهبة في جوف الارض كما قدمنا . وليس بين المرتفعات والمنخفضات سهولٌ ما او ان السهول قليلة وضيقة . فالنجد مضرّس تضريساً شديداً الاّ في منطقة بحيرة تانا ومنطقة البحيرات الى الجنوب من اديس ابابا . فلستَ تجد في النجد الحبشي اماكن يمكن ان تتخذ قواعد كبيرة لمناورات جيوش جرّارة

ومن الحقائق التي يجب على قيادة الجيش الايطالي ان تحسب لها حساباً في خططها نوع من التربة الحمراء توجد عادة في البلدان الاستوائية . وهي كثيرة في الحبشة في الاماكن التي يقلُّ ارتفاعها عن

٦٠٠٠ قدم . ففي فصل الجفاف تكون هذه التربة جافة صلبة في الظاهر ولكن اقل ضغط تمرّ عليها يحولها دقيقاً دقيقاً . فاذا سقط رذاذ تحوّلت الى معجون زلق كأنه صابون ، فيعسر السير فيها حتى مشياً . وفي هذه الحالة يتعذر على اية مركبة ان تعتمد في طريق شديدة الانحدار . وان قافلة من الدبابات او سيارات النقل اذا فوجئت وهي في طريقها بهطول مطر غزير ، لتضطرّ ان تلبث في مكانها حتى ينحبس المطر وتشرق الشمس وتجفف التربة . وهذا يفسّر تعذر القيام باي اعمال حربية في الحبشة قبل سبتمبر وهو الشهر الذي ينتهي فيه فصل الامطار

مما تقدم من وصف الحبشة الجغرافي والطوغرافي يستطيع القارىء ان يتصوّر الخطة العسكرية التي يجب ان يجري عليها من ينوي غزو الحبشة . فالقوة الزاحفة من سواحل المحيط الهندي ، عليها بعد ان تجتاز سواحل الصومال الايطالي واوغادن ، ان تجعل هدفها الاول احتلال الجانب الشمالي من النجد الصومالي وهو يقع في ولاية هرر . فاذا اتخذت وال وال وغرلوغوبي قاعدتين لها استطاعت ان تسلك وادي جوبا ووبي شبلي وهي كما تقدم ، تؤاتي ذلك من ناحيتي الجو والماء

فاذا فازت باحتلال هذه المنطقة مكّنها ذلك من السيطرة على فاصل النهرين الرئيسيين في الصومال الايطالي ، وعلى ذلك الجانب من نهر هواش الذي يسير في وادي الرفت ، وهو الوادي الذي تقطعه سكة الحديد من اديس ابابا الى جيبوتي . حتى اذا لم تحتل القوة الغازية سكة الحديد ، فانها تستطيع ان تسيطر عليها باحتلالها للجانب الشمالي من النجد الصومالي

***

اما الهدف الذي تتجه اليه القوة الزاحفة من الاريتريا فيجب ان يكون احتلال الجبال الى الشمال والشرق من بحيرة تانا . لانه ما زالت هذه البلاد الوعرة في ايدي العصابات الحبشية فلا تجرؤ اية قوة على التغلغل الى قلب النجد الحبشي لئلا تتعرّض مؤخرتها لهجوم العصابات . وقد يكون من العوامل العسكرية في هذه الناحية ، ان انهار الاتبرة والتكاز والنيل الازرق تنبع في هذه المنطقة ، ومياهها — وخاصة مياه النيل الازرق النابع من بحيرة تانا — منصرة اوثق اتصال بحياة مصر . فازاحج ان بريطانيا تحتفظ بسياستها التقليدية في صدد هذه المنطقة وهي منطوية في عدة معاهدات وتصريحات رسمية وقاعدتها عدم التسليم لاية دولة اوربية بأقفال السلام فيها

ولابدّ للجيش الايطالي الزاحف من شق الطرق وبناء الجسور والاّ تعذّر عليه ان يجني فائدة ما من استعمال الدبابات والسيارات المسلّحة . الاّ ان هناك صعوبة هندسية كبيرة ، ولكن التغلّب عليها غير مستحيل ، وهي وجوب نقل المواد اللازمة في بناء الجسور مسافات طويلة من ايطاليا الى مصوع ومن مصوع الى اسمرا الى المناطق التي يحتلّها الجيش الزاحف . يضاف الى هذا ان الجسور نفسها ، والطرق الجبلية ، والمستودعات ، معرّضة دائماً للسيول تجرفها في تدفقها

وليس ثمة ما يقي منها . فعلى المهندسين العسكريين يقع معظم التبعة في نجاح الحملة أو خذلانها

ولما كانت حاملات الجيشة الوراعية لا تكاد تكفي الاحياش انفسهم ، وما يحتاجون اليه يسير بالقياس الى ما يحتاج اليه جيش اوربي ، فلا يعقل ان تستطيع القيادة الايطالية الاعتماد عليها في جانب من مؤونة الجيش . ولذلك سوف تضطر الى استيراد كل ما يحتاج اليه الجيش من الخارج وهو عمل شاق وكبير النفقة

***

يتضح مما تقدم ان تقدم الجيوش الايطالية في زحفها على الحبشة يتوقف على شق الطرق الصالحة للفرق الميكانيكية بين القواعد الحربية المتقدمة وقواعد الذخيرة والمستودعات على الساحل . لذلك يكون كل تقدم سريع من ناحية الاريتريا محفوفاً بالخطر . ومع ما جهزت به الحملة الايطالية الافريقية من وسائل الحرب الميكانيكية ، فان فتح اي بلاد يقتضي احتلال المراكز العسكرية الهامة وتنظيم ادارتها وابقاء حاميات كبيرة فيها . فاللبث في كل من هذه المراكز قبل التقدم الى غيرها يفسح المجال لمهندسين فيشقون الطرق ويوصفونها . ولا يستطيع الجيش الايطالي ان يجني الفائدة كل الفائدة من تفوقه في الاسلحة الميكانيكية الا على هذا النمط

ولا ننسى أن أحد العناصر التي تسهل زحف الجيش الايطالي او تؤخره ، مدى المقاومة التي يبذلها الاحباش وعنفها . والاحباش يقوفون خصومهم في ملاءمتهم لاحوال البلاد . ففي وسعهم ان يجتازوا مسافات شاسعة مشياً يعجز عنها البيض الاوروبيون . فهم يستطيعون ان يقطعوا مسافة تختلف من ٣٥ ميلاً الى ٤٠ ميلاً في اليوم ويمضوا في ذلك بضعة ايام متوالية . ويستعملوا صنفاً خاصاً من البغل الاهلي يتصف بخفة الحركة والصبر والاكتفاء بيسير من الغذاء . واستعانة يمكنهم من نقل المدافع الرشاشة والمدافع الجبلية الى قمم منيعة فيعرقلون تقدم العدو باستعمالها من اعاليها

ان اساليب الحرب الميكانيكية ، ورجال المشاة المتنقلة باعيانها الحديثة ، تفقد اكثر جانب من تأثيرها في مثل هذه الاحوال . اي ان القوات الغازية يجب ان تستعمل جماعات كبيرة من رجالها للتغلب على عصابات اقل منها عدداً واضعف عدة ولكنها متصفة بخفة الحركة ومعرفة البلاد . ولما كانت طبيعة البلاد الطبوغرافية ما هي ، فالراجح ان الاحباش لا يعمدون الى التجشم بل على الضد من ذلك يجدر بهم ان يعتمدوا على التفرق والتخفي والتسلل . فاذا جروا على هذه الخطة واستطاعوا ان يستدرجوا خصومهم الى الاودية والخنادق الطبيعية وهناك يمزقون شملهم . ولا ريب في انهم سيحاولون في الوقت نفسه ان يعرقلوا الصلة بين فرق العدو المتقدمة وقواعده الاساسية

ان سر نجاح الاحباش في مقدرة الامبراطور على الاحتفاظ بحرية حركة جيوشه وسرعتها . فاذا استطاع ذلك ، اضطر الايطاليون أن يهاجموا معاقل منيعة بطبيعتها . وهذا من شأنه ان

يقلّ من سورة جيش غير متعوّد الاجهاد البدني في بلاد مرتفعة . يقابل هذا انهُ اذا اتيح للعدو الزاحف ان يحتلّ بعض هذه المناطق المنيعة، فتزداد الاحباش يضطرون حينئذٍ ان يغامروا بطوائف كبيرة من جيوشهم لاسترجاعها ، وفي هذه الحالة لا تجدي شجاعة الاحباش كثيراً ضدّ المدافع الضخمة والرشاشة وقنابل الغاز

ولا ينتظر ان تجنى فائدة كبيرة من اسراب الطائرات الايطالية ؛ لقلة الاهداف التي تتجه اليها. فلا يحتمل ان تفاجيء جموعاً كبيرة من جيوش الاحباش لان المتوقع ان هذه الجموع لا تحتشد الاّ ليلاً . وليس هناك مدن كبيرة او مراكز آهلة تصلح ان تكون اغراضاً تتجه اليها الطائرات وتلقي عليها قنابلها . والراجح ان جلّ الفائدة التي يمكن ان تجنى من اسراب الطائرات الايطالية فائدة معنوية ، اذ قد يكون مشهد هذه الغارات الطائرة وهي تطلق مدافعها الرشاشة مما يبعث الهلع في الجيش والشعب على السواء

نعم للطائرات فائدة كبيرة في استطلاع حركات العدو ، وقد تكون عوناً في حركة المشاة ، ولكن مدى طيرانها محدود بما يمهد لها من المطارات . وقد تجد القيادة الايطالية ان جميع هذه العوامل تقضي بالاقلال من الاعتماد على الطائرات في ادراك اغراضها . ولكن يجب ان نذكر انهُ لم تنشب حرب كبيرة بعد اتقان الطائرات الحديثة بين احوالها واحوال الحرب الايطالية الحبشية شبه ما ، ولذلك فالحكم في هذا الصدد مرهون باختبار سلاح الطيران الايطالي في الحبشة

***

ثم ان موسوليني يجب ان يحسب حساباً لطول فصل الجفاف في الحبشة لتحقيق اغراضه الاولية والنهائية. فهل ادراك الغرض النهائي وهو اخضاع الحبشة قاطبة ، مستطاع في فصل واحد؟

لقد بيّنا في ما تقدم ان الجيش الزاحف من الشمال عليه ان يحسن القواعد التي ترتكز عليها مواصلاتهُ مع اسمرا ومصوّع ويبقي فيها حاميات كبيرة . وان تقدّمهُ لذلك لابدّ ان يكون بطيئاً في البدء . وان التقدم من الجنوب قد يكون اسهل منهُ في الشمال ولكن الجيش الزاحف مع ذلك يحتاج الى تأمين طرق مواصلاته بعد انشائها . وانهُ بعد احتلال الولايات المحيطة بقلب النجد الحبشي يكون الايطاليون في بدء مغامرتهم الحقيقية في الحبشة لا في نهايتها .فاخضاع الحبشة يقتضي اخضاع الاحريين والدوعيين وهم شعوب وقبائل شديدة الشكيمة يجري حب الاستقلال في دمائهم ويضيفون الى منعة معاقلهم الجبلية الوعرة ، كرهاً للاجانب يغذيه شبانهم المتعلمون في اوربا واميركا . واذن فالراجح ان لا يكفي فصل واحد لادراك الاغراض النهائية التي وضعها موسوليني نصب عينيه وعندئذٍ يتحوّل النزاع الى حرب عصابات قد تطول سنين . فاخضاع ليبيا ؛ وهي اقرب الى ايطاليا، وليس فيها الاّ ٢٠٠ الف مسلم للقيام بحرب العصابات، اقتضى من ايطاليا عشرين سنة . وفي هذه الحالة تضطرّ الحكومة الايطالية ان تنفق بدرات من الاموال ومهج الوف والوف من ابنائها

خريطة لبلاد الحبشة

والبلدان المحيطة بها وبعض مواقعها الحربية

فصول الرواية

ملخص تاريخي

لعلاقة الحبشة بأوربا من اواسط القرن الماضي الى الآن

١٨٦٧ الحملة البريطانية بقيادة السر روبرت نابيير (لورد بعدئذٍ) Napier وهي حملة جرّدت على الامبراطور ثيودورس لاطلاق سراح بعض الانكليز الذين اسرهم وكان بينهم قنصل بريطانيا . وقد دخلت الحملة مجدلا في ١٣ ابريل سنة ١٨٦٨ فوجد قائدها الامبراطور ثيودورس وقد انتحر . وفي مايو سنة ١٨٦٨ غادرت الحملة بلاد الحبشة

١٨٧٥ اشترت حكومة بريطانيا نصيب الخديوي اسماعيل من اسهم شركة قناة السويس (راجع تأثير هذه الصفقة في مقام بريطانيا في مصر في مقالة « قناة السويس ومكانتها من الناحية الاستراتيجية صفحة ٤٧٣ من هذا العدد)

١٨٨٢ ثورة عرابي باشا في مصر واحتلال انكلترا للقطر المصري

١٨٨٩ معاهدة اوتشالي (Uccialì) بين الحبشة وايطاليا . عقدت هذه المعاهدة مع منليك بعد ارتقائه عرش الحبشة بتأييد من الايطاليين . ثم فاوضوه في تحديد العلاقة بين الحكومتين فانتهت المفاوضات الى معاهدة اوتشالي . وقد جاء في النص الايطالي لهذه المعاهدة ان منليك يتخذ من الحكومة الايطالية سبيلاً له في جميع مفاوضاته من الدول والحكومات الاخرى . وهذا معناهُ بسط الحماية الايطالية على الحبشة . ولكن يظهر ان النص الاحبري كان يختلف عن النص الايطالي في هذا الصدد . ولما اخذ الايطاليون يتقدمون في ولاية « التيجرة » ويحاسنون بعض الزعماء من خصوم منليك، ثبت لمتتبعي الحالة ان اغراضهم تتعارض ورغبة الامبراطور منليك في الاحتفاظ باستقلاله . ولذلك اعلن منليك الدول في سنة ١٨٩٣ بالغاء معاهدة اوتشالي

١٨٩٦ معركة عدوة . ولكن الايطاليين مضوا في تقدمهم . فكان من اثر هذا التقدم توحيد الامبراطورية الحبشية وضم صفوفها بزعامة منليك . وفي شهر مارس من سنة ١٨٩٦ التقت قوة ايطالية مؤلفة من ١٤٥٥ جنديًّا وضابطاً بقوة حبشية مؤلفة من ١٠٠ الف مقاتل على مقربة من عدوه فهزم فيها الايطاليون شر هزيمة فعقدت بعدها معاهدة في اديس ابابا الغيت بمقتضاها معاهدة اوتشالي واعترف باستقلال الحبشة المطلق

وقضى منليك الاثني العشرة السنة التالية في التغلّب على القبائل الخارجة عليه

وعقد المعاهدات مع الدول الاوربية لتعيين الحدود بين الحبشة والبلدان المجاورة لها الخاضعة لبريطانيا وفرنسا وايطاليا

١٨٩٧ ففي شهر مارس من سنة ١٨٩٧ عقدت معاهدة مع فرنسا عيّنت بمقتضاها حدود الصومال الفرنسي . وفي شهر مايو من السنة نفسها عقدت معاهدة مع بريطانيا لتعيين حدود الصومال البريطاني . وقد نصّ فيها على ان قبائل الصومال البريطاني التي تدخل مقاطعتي هرر واوغادن في طلب المراعي لها حق في استعمال المراعي والآبار التي في هذه المنطقة . وعقدت في السنة نفسها معاهدة مع ايطاليا لتعيين حدود الصومال الايطالي ولكنها لم تنشر وانما ذكرت في معاهدة الحدود سنة ١٩٠٨

١٩٠٠ في شهر يوليو من سنة ١٩٠٠ عقدت معاهدة مع ايطاليا لتعيين حدود الاريترية من ناحية الحبشة

١٩٠٢ وفي شهر مايو من سنة ١٩٠٢ عقدت معاهدة مع بريطانيا لتعيين حدود السودان وفي الشهر نفسه عقدت معاهدة اخرى مع بريطانيا لتعيين الحدود بين السودان والحبشة وبين السودان والاريترية

١٩٠٦ المعاهدة الثلاثية بين بريطانيا وايطاليا وفرنسا وقد تعهّدت فيها هذه الدول الثلاث بالمحافظة على سلامة الحبشة ، وان لا تعمد احداها الى التدخل في شؤونها من دون الاتفاق مع الدولتين الاخريين وحددت فيها منطقة نفوذ كلٍّ منها في الحبشة
وقد اعترضت الحبشة على هذه المعاهدة

١٩١٩ عقدت معاهدات الصلح ولم تمنح ايطاليا مستعمرات ما في افريقية وفقاً لمعاهدة لندن السرية التي عقدت قبيل دخولها الحرب الكبرى في جانب الحلفاء فكان ذلك مدعاة لامتعاضها وتبرمها

١٩٢٣ انتظمت الحبشة في جامعة الامم باقتراح فرنسا وتأييد ايطاليا . وكانت بريطانيا قد عارضت في انتظامها اولاً ثم سلّمت به مجاراة لرأي الاكثرية . وكان وزير خارجية فرنسا يومئذٍ المسيو هانوتو الذي كان وزيراً للمستعمرات يوم حادث ڤشودة . وقد قيل ان تأييد فرنسا وايطاليا لانتظام الحبشة في الجامعة كان غرضهُ احباط خطة بريطانيا في الحبشة او ما فُسّر على انهُ خطتها هناك عند ما دعت الى السعي لالغاء الرقّ فيها

١٩٢٥ تبادلت الحكومتان البريطانية والايطالية مذكرات في صدد اتفاق على بناء سد على بحيرة تانا وشقّ طريق من حدود السودان اليها وانشاء خط حديدي ايطالي بين الاريتريا والصومال . وإلى القارئ الفقرة المهمة من مذكرة السفير البريطاني نقلاً عن مجلّة الشؤون الخارجية Foreign Affairs الربعية الاميركية

« لذلك لي الشرف بناء على تعليمات وزير خارجية جلالة الملك ان اطلب الى معاونتكم تأييدكم ومساعدتكم في تأديس ابابا قبل الحكومة الحبشية للحصول على امتياز لحكومة جلالته (الحكومة البريطانية) ببناء سد على بحيرة تانا مع حق بناء طريق للسيارات لنقل الرجال والموظفين ومؤونتهم من حدود السودان الى السد

« يقابل ذلك ان حكومة جلالته مستعدة ان تؤيد الحكومة الايطالية في الحصول من الحكومة الحبشية على امتياز ببناء سكة حديدية من حدود الاريترية الى حدود الصومال الايطالي ويكون من المفهوم بيننا ان سكة الحديد هذه وكل ما يلزم لها من الاعمال لبنائها وتسييرها يكون لها حق مطلق في اجتياز طريق السيارات التي اشير اليها في الفقرة السابقة

« فتحقيقاً لهذين الغرضين يصبح من الضروري ان يبعث بتعليمات مماثلة لممثلي بريطانيا وايطاليا في الحبشة ليعملا مشتركين امام الحكومة الحبشية للحصول على الامتيازات التي ترغب فيها حكومتا بريطانيا وايطاليا في بحيرة تانا وبناء سكة الحديد التي تصل الاريترية بالصومال الايطالي ولكي يكون منح هذين الامتيازين في وقت واحد . فاذا فازت احدى الحكومتين بامتيازها الخاص الذي تسعى اليه واخفقت الاخرى يتعين على الحكومة التي فازت بما تطلب ان لا تتهاون في سعيها الحثيث لتحقيق ما تتطلبه الحكومة الاخرى

« فاذا تمّ لحكومة جلالة الملك (بريطانيا) بمساعدة حكومة ايطاليا الحصول على الامتياز الخاص ببحيرة تانا من الحكومة الحبشية فهي (اي حكومة بريطانيا) مستعدة ان تعترف بانشاء منطقة نفوذ اقتصادي ايطالي في غرب الحبشة خاصة بها وفي كل المنطقة التي تجتازها سكة الحديد المذكورة آنفا . ثم انها تتعهد بأن تؤيد طلب حكومة ايطاليا لامتيازات اقتصادية في تلك المنطقة امام حكومة الحبشة »

وقد قبل السفير موسوليني القواعد التي ذكرت في هذه الوثيقة الرسمية ولكن فرنسا عارضت فيها لان معاهدة ١٩٠٦ الثلاثية تنص على حظر اي اتفاق ثنائي خاص بالحبشة . ولما كان هذا الاتفاق او مشروعه قد تمّ بين ايطاليا وبريطانيا مرددون علم فرنسا فقد عارضت فرنسا فيه وبوجه خاص لانها لم تكن صديقة لايطاليا حينئذٍ . وكذلك اعترضت عليه الحبشة من طريق جامعة الامم فلم يعمل به

١٩٣٨ عقدت معاهدة تحكيم بين ايطاليا والحبشة والمادة الاساسية فيها تنص على ما يلي:

« تتعهد الحكومتان ان تعرضا للمصالحة والتحكيم الخلافات التي تنشأ بينهما والتي تتعذر تسويتها بالاساليب الدبلوماسية المألوفة من دون اللجوء الى القوة المسلحة .

وعلى الحكومتين ان تتبادلا مذكرات في صدد الاسلوب الذي يتخذ لتعيين المحكمين »
وفي ٧ اكتوبر من هذه السنة توّج الرأس تفري ملكاً . وماتت الامبراطورة زوديتو في ابريل سنة ١٩٣٠ فتوّج امبراطوراً في ٢ نوفمبر من السنة نفسها ، متخذاً لنفسه لقب هيلاسلاسي الاول

١٩٣٠ في شهر اغسطس من سنة ١٩٣٠ وافقت حكومة الحبشة على تنفيذ الاتفاق الخاص بتجارة السلاح الذي وقع في « سان جرمان آن لاي » سنة ١٩١٩

١٩٣٤ سبتمبر : اتفقت ايطاليا والحبشة على الامتناع عن الاعتداء
نوفمبر : اعتذرت الحبشة عن مهاجمة القنصلية الايطالية في غوندار
دسمبر : اصطدام جنود صوماليين ايطاليين بجنود احباش في وال وال

١٩٣٥ يناير : عقدت ايطاليا وفرنسا اتفاقاً في روما تنازلت فيه فرنسا لايطاليا عن جانب من اسهم سكة حديد اديس ابابا وصرّحت ان مصالحها في الحبشة محصورة في ما يتعلّق بهذه السكة
فبراير : بدأت ايطاليا تمدّ حملتها الافريقية
مارس : رفضت ايطاليا طلب الحبشة ان يعهد الى جامعة الامم في تحقيق حادث وال وال . وقطعت المفاوضات المباشرة بين الحبشة وايطاليا
ابريل : مؤتمر ستريزا واتفاق فرنسا وبريطانيا وايطاليا على موقف مشترك في صدد المشكلات الاوربية
مايو : عين مجلس جامعة الامم لجنة للمصالحة والتحكيم
يونيو : ذهب الكابتن ايدن الى روما وعرض على موسوليني اعطاء الحبشة منفذاً الى البحر في زيلع في الصومال البريطاني لقاء ما يتنازل عنهُ النجاشي من اراضي الحبشة لايطاليا فرفض موسوليني ما عرض عليهِ
يوليو : اجّلت لجنة التحكيم اجتماعاتها . والّفت حكومة ايطاليا اتفاق الخاص بجعل انغطاء الذهب للنقد ٤٠ في المائة . ناشد البابا الحكومات للاحتفاظ بالسلام . حظرت بريطانيا تصدير السلاح الى كلتا ايطاليا والحبشة
اغسطس : ١٨ منهُ . عقد مؤتمر في باريس بين ممثلي حكومات بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، فاخفق في محاولتهِ الوصول الى تسوية لان ايطاليا رفضت ان تنظر في المقترحات التي عرضتها فرنسا وبريطانيا . وجاء في بيان من الحبشة ان النجاشي عرض ان يتنازل عن مقاطعة اوسا مقابل اراض تمنحها الحبشة في ناحية اخرى

١٩٣٥ ٢٢ اغسطس : قرّرت الوزارة البريطانية ان تنتدب من جامعة الامم موقتاً يمثّلها
٣١ منهُ : اذيع نبأ الامتياز الذي منحهُ النجاشي في الحبشة للمستر ريكيت الانكليزي نائباً عن طائفة من اصحاب المصالح المالية في انكلترا واميركا . ففسّر هذا العمل عند اذاعته على انهُ سعي من انكلترا « لحلب البقرة قبل تسليمها لموسوليني » فكذّبت وزارة الخارجية البريطانية اي صلة لها بهذه الصفقة وطلبت الى وزيرها المفوّض في اديس ابابا ان يشير على النجاشي بامساك الامتياز وافضى تعقّد الحالة الناشئة عن ذلك الى انسحاب شركة فاكوم منهُ وكانت صاحبة اكبر نصيب فيهِ . وقرّر انكلستغرس الاميركي ان يحظر توريد الاسلحة الى كلا الفريقين المتحاربين

سبتمبر : ٣ منهُ . قدّمت لجنة التحكيم — وكان السير بوليتيس البوناني قد اختير محكماً خامساً فيها — تقريرها في حادثة وال وال فاذا هو لا يأتي اللوم على احد الفريقين

٤ منهُ : عين مجلس جامعة الامم لجنة الخمسة للبحث في الموضوع واقتراح تسوية

١١ منه : القى السر صموئيل هور خطبته في الجمعية العمومية لجامعة الامم متعهداً فيها بالنيابة عن الحكومة الانكليزية باستعداد بريطانيا « لتدفع المشترك عن عهد الجامعة كاملاً » واعربت سائر الدول عن مثل هذا العزم

١٨ منهُ : قدمت لجنة الخمسة تقريرها . فقبلته الحبشة اساساً للمباحثات . ورفضته ايطاليا رفضاً باتّاً

٢٣ منه : اعلنت ايطاليا زيادة جيشها الى مليون جندي ، ووجوب استعداد الامة لاستدعائهم عند الدعوة اليه . وشرعت انكلترا في تعزيز اسطولها في البحر المتوسط

٢٥ منهُ : اعلن الرئيس روزفلت قائمة بالمواد الحربية التي يحظر تصديرها الى البلدان المتحاربة

٢٦ منهُ : اجتمع مجلس جامعة الامم واقر بالاجماع مقترحات لجنة الخمسة واذ يمضي في السعي لحل النزاع الايطالي الحبشي بمقتضى المادة الخامسة عشرة من عهد الجامعة (مادة المصالحة Conciliation)

٢٩ منهُ : ردت بريطانيا على فرنسا بأنها مستعدة ان تشترك في كل مقاومة اجماعية لدولة معتدية بحسب عهد الجامعة

اكتوبر : ٣ منهُ : تخطت الجيوش الايطالية حدود الحبشة

الدستور السوفياتي الاشتراكي [1]

للاستاذ وليم بنت منرو [2]

— ٢ —

٣ : تمثيل الحرف — أهم ما يمتاز به نظام الحكم السوفياتي هي القاعدة المتخذة اساساً للتمثيل السياسي . فاننا نرى بريطانيا وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة وغيرها من الدول الرأسمالية البرلمانية تتخذ الموقع الجغرافي اساساً للتمثيل فيجري الانتخاب من قبل جميع الناخبين في الالوية والاقضية والنواحي المتكونة منها الدولة بحسب المناطق او الدوائر الانتخابية التي تعين على أساس جغرافي . والنائب المنتخب على هذه الصورة يمثل لواءه فيه فلاحون وعمال صناعيون وعمال مناجم وموظفو سكك الحديد واصحاب حرف حرة وتجار وملاك وأصحاب معامل الى غير ذلك من انواع الطبقات الاقتصادية، فهو يمثلهم كهيئات من السكان بلا التفات الى احوال معيشتهم اليومية المتباينة ومصالح طبقاتهم المتضاربة . والسبب في تطبيق هذا التمثيل هو ان النظرية الجغرافية تعتبر ان مصالح المصوّت تتأثر بالمكان الذي يعيش فيه وليس بالحرفة التي يعيش عليها

اما النظام السوفياتي فيتخذ من الحرف اساساً للتمثيل السياسي ، ومع ان المناطق الجغرافية تستعمل ايضاً في التمثيل الحرفي الا أن استعمالها ليس إلاّ لتسهيل عملية التصويت الحرفي . وفي هذا النوع من التمثيل يصوت الاشخاص ذوو الحرف المختلفة كل على حدة مع افراد حرفتهم : فعمال المناجم يصوّتون في فريق وعمال الحديد في فريق آخر والجنود في فريق ثالث والفلاحون في فريق رابع الخ . . . كل بحسب اختصاصه الحرفي ينتخب ممثليه من طبقته . فلا يمثل عامل المناجم او الفلاح المنتخب الى مؤتمر سوفيت الاتحاد مدينة موسكو اوتفليس او البلدة التي يأتي منها بل يمثل افراد فريقه بالمهنة بلا إلتفات الى محل الاقامة . وهذا النوع من التمثيل اقرب الى التمثيل الحقيقي لمصالح الناخبين من التمثيل الجغرافي بكثير وهو يعد افضل اسلوب للتمثيل جرب في العالم لانه يمثل حقيقة مصالح كل فريق حرفي تمثيلاً صحيحاً حالة ان التمثيل الجغرافي خلو من معنى الدمقراطية الصحيحة وصيانة مصالح الناخبين بل هو حيلة تفوز بواسطتها الطبقات المثرية الاقطاعية والبورجوازية في البلاد الرأسمالية بالقوة السياسية مع ادعائها منح المساواة والدمقراطية لجميع افراد المجتمع

ومن الواضح ان التمثيل الجغرافي الذي تتمشى عليه البلاد الرأسمالية على الاخص ضعيف من اساسه لا يتلاءم والدمقراطية الحقيقية التي تدعي انها تصونها لانه لا يعير اي اهتمام الى كون ان

---

(١) Socialist Soviet Constitution (٢) استاذ التاريخ والحكومات في معهد جامعة كالفورنيا الفني باميركا وقد نقل هذا الفصل المتمم كامل قراتجي مدرس الاجتماع والتاريخ بمدرسة النجف الثانوية في العراق . راجع مقتطف يوليو واكتوبر ١٩٣٥ صفحة ٢١٩ و٣٤٧

المصوَّت ينتمي الى طبقة او فريق اقتصادي بحكم الحرفة التي يؤمّن بها على موارد عيشه وهو عضو اقتصادي اكثر منهُ سياسياً او مقيماً في بلدة او ريف ما ، لذلك يكون فيه الاخلاص لمصلحة حرفته المعيشية اكثر من إخلاصه للمكان الذي يتفق ان يقيم فيهِ والطبقات الاخرى التي يعيش معها طلباً للرزق . والتجار والعمال المأجورون والفلاحون وأصحاب المهن الحرة — كل واحد منهم لا يضحي بمصالحه ومصالح فريقه الاقتصادية والاجتماعية لذلك لا يمكن ان تنشأ بين المصوتين المختلفي المهن رابطة اقتصادية دائمة ولو كانوا يعيشون في بلد واحد او ريف واحد او دائرة انتخابية جغرافية واحدة . ومع انهُ ليس من المؤكد دائماً ان يتفق ذوو الحرفة الواحدة على رأي واحد فيما يخص بعض قضايا السياسة العامة لكن يمكن الاعتماد على ان تكون الحرفة المعيشية اساساً أفضل للتمثيل من الموقع الجغرافي في احوال الحياة الحاضرة . وقد اقترح هذا التبديل في الولايات المتحدة كثير من قبل الساسة المجددين ومنهم وليم مكدونالد في كتابه « دستور جديد لاميركا الجديدة » حيث كتب : « من الواضح انهُ إذا شاءت الولايات المتحدة ان يكون لها هيئة تشريعية تمثلها تمثيلاً حقيقياً فيجب ان يبدل نظام التمثيل الحاضر بحيث تأخذ بعين الاعتبار ليس فقط السكان كما هي الحالة الآن بل الفروق في المهن والحرف كذلك ايضاً » لأن التمثيل الجغرافي باعتباره العلة الجغرافية أهم من الصلة الطبقية لا يمكن ان يصون مصالح جميع المصوّتين المنتمين الى طبقات مختلفة متضاربة المصالح لذلك يكون النائب عادة من الطبقات ذات القوة الاقتصادية ولا يخدم الاّ مصالح طبقته وفي معظم الاحيان يكون أميل الى انسان مصالح ناخبيه والاعتناء بمصالحه الخاصة قبل غيرها في منطقة انتخابية جغرافية ما ، يفوز صاحب العمل والملاّك مثلاً بتمثيل الفلاحين والعمال المقيمين معاً لما لديهما من الثروة والقوة الاقتصادية والسياسية لكن الفلاح لا يفوز بتمثيل الملاّك ولا العامل يفوز بتمثيل صاحب العمل

لكن هناك وجهة ثانية للقضية تنحصر في : هل يكون خير المجتمع اكثر ضماناً وتقدماً اذا وزعت القوة السياسية بحسب المناحي التي يحصل بها أصحاب المهن المختلفة على عيشهم ؟ تقوم النظرية السوفياتية على مبدإ ان حرفة الانسان وطريقة معيشته هي التي تملي عليه موقفه ازاء قضايا السياسة العامة وعلاقاته الاجتماعية . أما البلاد الرأسمالية فقد تمشت على مبدإ اعتبار الشخص اميركياً او انكليزياً أو فرنسياً اولاً وعاملاً أو فلاحاً أو تاجراً ثانياً

وحرياً على هذا المبدأ يطلب من الشخص ان يكون موقفه تجاه مصالح الامة بأجمعها فوق مصلحته الخاصة أو مصلحة حرفته أو طبقته الاقتصادية ولو كلفه ذلك التضحية بالثانية في سبيل الاولى فالنائب في المجلس على هذا المبدأ ينتخب من قبل مصوتي المنطقة فلا يمثل تلك المنطقة بل يمثل الامة بأجمعها لانهُ يتقاضى مخصصاته من الخزينة العامة . لكن الواقع لا يتفق مع النظرية في النظام الرأسمالي لان النائب فيه ينقاد عادة الى الاعتناء بمصالحه الخاصة أولاً — كما اسلفنا —

وهي مصغر مصالح حرفته أو طبقته الاقتصادية . فلا يكون بذلك ممثلاً حقيقيًّا لجميع ناخبيه. لكنه اذا انتخب من قبل فريق حرفته أو طبقته فلا يطلب منه أن يمثل المجتمع كله بل أن يمثل طبقته فقط وبهذا التحديد في نطاق مسؤوليات النائب ، ضمان اقوى لقيامه بواجبات التمثيل

فالذي تقصده الشيوعية في نظام التمثيل هذا هو تحقيق الديمقراطية الاقتصادية تمهيداً لتحقيق وشاح الدمقراطية السياسية التي تعاني اليوم الازمات الشديدة في الدول الاوربية الرأسمالية لعدم استنادها الى نظام اقتصادي دمقراطي اذ تمنح الحقوق الدمقراطية السياسية لافراد المجتمع وهم بعدُ لا يزالون على أساس مالي يتناقض مع روح الدمقراطية الحقيقية . وهنا منشأ الازمات

وتطبيق التملك العام لجميع وسائل الانتاج والتوزيع ومنابع الثروة يقضي النظام السوفياتي الاشتراكي على الفروق الطبقية وحرب الطبقات معاً، وبوضعه التمثيل على اساس حرفي يضمن التعاون بين الفرق الحرفية لمختلفة ويصون مصالحها . لكن قبل ان يطبق هذان المبدآن وضعت السلطة بيد طبقة واحدة هي طبقة المنتجين من عمال وفلاحين وجنود وبفوز دكتاتورية العمال لم يعد في استطاعة اي طبقة اخرى من الطبقات السابقة ان تعلن حرباً او تناهض القوة القائمة في الحكم مهما حاولت ان تفعل ذلك. فلا يبقى امامها الاّ ان تندمج في الطبقات المنتجة حتى يتكامل المجتمع فيصبح لاطبقيًّا او تهرب من حكم الطبقة الحاكمة ، وفي كلتا الحالتين تقدم نحو الغاية القصوى وهي « المجتمع اللاطبقي » . لكن وان اعتبرت المصالح الاقتصادية اساس النظام الانتخابي فالنظام السياسي هو بالحقيقة خاضع « لدكتاتورية العمال » التي تشرف على دور الانتقال من الفردية الى الشيوعية

٤ — البعد بين الناخب والحاكم — والميزة الرابعة للنظام السياسي السوفياتي هي البعد بين الهيئات الحاكمة والشعب المحكوم . ففي اميركا مثلاً ينتخب الشعب الهيئات التنفيذية والتشريعية في ولاياتهم فلا يبعد الرئيس واعضاء الكونغرس عن المصوتين أكثر من درجة واحدة . اما في الاتحاد السوفياتي فتفصل هذه السلطات عن الناخبين عدة درجات . فالفلاح السوفياتي ينتخب سوفيت قريته او مزرعته الاشتراكية وهذا السوفيت الاولي يبعث ممثلين عنهُ الى سوفيت الاقليم ومؤتمر سوفيت المنطقة وهذا بدوره يتمثل في مؤتمر سوفيت جميع الروس اذا كان في روسيا ، او في مؤتمر سوفيت جميع الشعب الساكن في الجمهورية الفلانية مثلاً وهذا الاخير يعين اللجنة التنفيذية المركزية لجمهوريته وهذه تعين مجلس القومساريين في تلك الجمهورية . اما في حكومة الاتحاد فيتمثل الفلاح بواسطة مندوبيه الذين يرسلون من سوفيت ريفه او اقليمه الى مؤتمر سوفيت الاتحاد الاعلى وهذا يعين اللجنة التنفيذية المركزية العليا وهذه تعين مجلس القومساريين . وهكذا قل عن تمثيل العمال في المدن . وعلى ذلك نرى ان المصوّت الاول في الريف او المعمل يفصل بثلاث او اربع درجات عن الهيئة التنفيذية العليا ولطول هذه المسافة تقل مسؤولية القومساريين المباشرة امام الشعب وتنحصر مسؤوليتهم امام مؤتمر سوفيت الاتحاد واللجنة التنفيذية العليا ومجلس الرآسة فقط . وبذلك يقل

تساقط الفوسفوريات في فترات قصيرة . فمع ان جميع سكان الاتحاد السوفياتي يشتركون في ادارة حكومتهم لكنهم بمارستهم هذه الادارة بهذا الشكل الهرمي تحدد السيادة العامة ويقل تأثر السلطات التنفيذية بتقلبات الرأي العام وفي هذا استقرار سياسي عام ضروري للبلاد وهي في دور الانتقال من الاقطاعية والرأسمالية الى الاشتراكية

﴿القضاء والمحاكم﴾ لكل من الجمهوريات السبع الرئيسية والجمهوريات والمناطق والاقاليم الذاتية للكائنة في كل منها نظام قضاء وقوانين خاصة بها . لكن القوانين والنظام القضائي في كل من هذه الجمهوريات لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن الاخرى . وتعتبر محكمة الاتحاد العليا المرجع القضائي الاخير لجميع القضايا في انحاء الاتحاد السوفياتي . وهناك محاكم تعرف باسم (محاكم الشعب) في كل منها حاكم ومحلفين او اكثر وهناك كذلك عدة محاكم خاصة كمحاكم العمل والتحكيم والمحاكم العسكرية والنظامية الخ . . . وفوق هذه جميعها تأتي محاكم المناطق وفي كل واحدة منها عدة حكام يتفاوت عددهم بحسب الحاجة . والحكام في جميع المحاكم في جمهوريات الاتحاد يعينون من قبل سلطات المناطق ويبقون في مناصبهم سنة واحدة . ويستثنى من هذا حكام محكمة الاتحاد العليا الذين تنتخبهم لجنة الاتحاد التنفيذية المركزية او بالحقيقة : مجلس رآسة اللجنة . اما المحلفون في محاكم الشعب ومحاكم المقاطعات او المحاكم العليا فيستدعون للعمل مدة ٦ ايام كل سنة وينتخبون من عدد من بين المواطنين المصادق عليهم وليس في الاتحاد نظام ثابت لمحاكمة امام هيئة من الحكام بل يقوم المحلفون مقام هيئة الحكام فيبتون في القضايا مع الحاكم باجماع الاصوات

لكن قد يتبادر الى ذهن القارىء ان يسأل : — لماذا لا ينهار هذا النظام الهرمي من سوفيت ولجان ومؤتمرات وهيئات ومجالس بسبب علوه وثقله ؟ ولماذا لا يرتبك هذا النظام وينحل بسبب التناقض وسوء التفاهم الذين يحتمل وقوعهما بين سلطات الاتحاد وسلطات الجمهوريات الرئيسية وبين هذه وسلطات المناطق والاقاليم والمدن والارياف ؟ اما الجواب فبسيط يتلخص في ان ليس في الاتحاد الا حزب سياسي واحد يسود جميع هذه المؤسسات ويسيطر على هذا النظام . وكل موظف رسمي في الاتحاد مهما اختلفت مرتبته يجب ان يكون عضواً في الحزب الشيوعي الذي يشرف على جميع شؤون السوفيت واللجان وغيرها من مؤسسات الاتحاد ويديرها بواسطة المكتب السياسي فيه . ولما كان الشيوعيون لا يتقاسمون الحكم مع مخالفيهم في المعتقد فهم لا يؤمنون بامكان وجود معارضة منظمة في الاتحاد السوفياتي او في اي مجتمع يريد تحقيق الشيوعية فلذلك هم يعتقدون أن كل من يعارض الحزب الشيوعي خائن وضد الثورة والدولة . فاذا نشأ نزاع في قضية ما يحل النزاع داخل الحزب اذ تعتبر جميع القضايا حزبية لا سياسية عامة ، وبعد تقرير الحزب خطة ما أزاء القضية المختلف فيها يجب على الجميع الرضوخ لقرار الاكثرية الفائزة بوجهة نظرها . وفي سيادة الحزب الواحد هذه على جميع المناطق الجغرافية وجميع مرافق الحكومة من دون اعتراف باي معارضة السر كل السر في

القوة التي تحفظ هذا النظام. فعندما اختلف تروتسكي مع ستالين حول متابعة الثورة العالمية بحسب رأي تروتسكي أو الاهتمام بالتشييد الاشتراكي وشاريع الخمس سنين بحسب رأي ستالين وحول أي الخطتين تقوم على الاخرى فاز رأي ستالين بمعاضدة الحزب له فلم يسمح لتروتسكي ان يتولى جبهة معارضة حوله بل نفي حالاً الى خارج الاتحاد. وهكذا مع رايكوف وغيره من الخارجين على ارادة الحزب العامة أمثال كامنيف وزينوفيف من زعماء الحزب المؤسسين وفلاسفة النظام السوفياتي، عند ما اختلفوا مع ارادة الحزب العامة وزعمائه الاقوياء أصبحوا أعداء الدولة فأعدم معظمهم حالاً ونفي القسم الاخر الى سيبيريا

الحزب الشيوعي — ومع أن الشيوعيين كانوا أقلية بين سكان روسية أيام الحرب العظمى لكنهم كانوا محكمي التنظيم اذ تقوم عضوية الحزب على أساس التكتل بشكل طوائف، في كل قرية ومعمل طائفة واحدة على الاقل. وكل طائفة تبعث ممثلاً عنها الى مؤتمر الحزب الذي ينتخب لجنة مركزية وهذه بدورها تعين اعضاء المكتب السياسي الذي يقود حركات الحزب ولشدة علائق الحزب بأعمال الدولة كثيراً ما يتقلد المناصب العليا في الحكومة وفي الحزب نفس الاشخاص والزعماء. ونظام الحزب صارم جداً يقوم على الطاعة المخلصة والتنظيم العسكري وينزل العقاب الشديد بكل من يسلك به سلوكاً طفيفاً ويطرد من الحزب أو يحمّل آلاماً وخسائر عديدة

ولا يمكن لاحد ان يصبح عضواً الا بعد ان يجتاز مدة امتحان يكون خلالها تحت مراقبة شديدة. فالحزب الشيوعي هو القوة المحركة والمنظمة لجميع شؤون الاتحاد

ويعلن الدستور السوفياتي لسنة ١٩١٨ بكل ارتياح انهُ يعترف « بالمساواة في الحقوق لجميع المواطنين » لكنهُ يقول في الفقرة التالية مؤكداً ان ليس من حق اي مواطن ان يدعي التمتع بأي حق او امتياز يمكن استعماله للاساءة لروح الثورة الشيوعية وهذا السبب لا يحدد الدستور تامة الحقوق. فالمواطن السوفياتي ليس له اي حق على الدولة وهذا ما اتبعه النظام الفاشستي فيما بعد باعتباره الدولة غاية الجميع وليس الفرد الا واسطة لهذه الغاية. اما في الاتحاد السوفياتي بالمقابلة مع ايطاليا فالغاية هي (المجتمع اللاطبقي) الذي يقوم على اساس التملك العام ويكون فيه جميع الافراد عمالاً منتجين يتمتعون جميعهم بما يملكون وينتجون موحدين جهودهم لتحقيق غايات مشروع واحد عام ورفع مستوى معيشة الجميع المادية والادبية. لذلك نرى الفلسفة الفردية تنعكس فتصبح حرية الصحافة والخطابة وحرية التعامل التجاري كما يفهمها بقية العالم الرأسمالي غير متفقة مع روح هذه النظرية الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي لان هذه الحريات لا يجب ان تصان الا اذا كانت تساعد على تقوية النظام الجديد لانهُ اذا كانت غاية الانسان الرئيسية تحقيق المجتمع الشيوعي والمساعدة على الاحتفاظ بشكل من الحكومة تعمل على تحقيق هذا المجتمع فلا يكون للمواطن أي حرية أو مصلحة تتعارض مع الغاية التي يحرص عليها والوسائل التي ينتهجها لتحقيقها

التربية الاجتماعية والصحية

متى ينتفي الكذب

لشاكر الحبلي

تحريم السرقة

الاستشارة الطبية المدرسية

للدكتور حسن كمال

حتى يفتضح الكذب

لشاكر الحنبلي

قرأت في مجلة الهلال الغراء مقالاً للعلامة الاديب مصطفى الشهابي تحت عنوان « غرائب المصانعة » تناول فيها جانباً من النقص الاخلاقي في بعض الافراد الذين يلبسون لكل حالة لبوسها ويتلوّنون في آرائهم واحاديثهم تلوّن الحرباء على حسب ما يرضي مخاطبهم لاما يرضي ضميرهم ويعدون ذلك من مقتضيات الكياسة وحسن السياسة . وقد استثار هذا المقال اهتمام بعض المفكرين فكتب الاديبان اديب عباسي والياس يعقوب مقالين في هذا الصدد ما بهما هذا الخلق واعتباره ضعفاً في النفوس البشرية واعوجاجاً يجب تقويمه والتحذير من التعرض لآفاته التي تفقد المرء ذاتيته حتى يصبح بمثابة الحاكي الذي يردّد اقوال الغير وافكارهم بدلاً من ان يكون له في الحياة كيان مستقل

وقد نبهتني هذه المقالات الى ناحية اخرى من نواحي اخلاقنا الاجتماعية تكاد تكون عامة بين جميع الطبقات وهي الكذب في الحديث والرواية والعمل لا لشيء سوى التخلص من عتاب صديق او عناء زيارة متوجبة او دفع تبعة محتملة كاعتذارك عن تلبية دعوة بداعي المرض مع انك لم تكن مريضاً او قولك لخادمك عند زيارة احد تكره مقابلته : قل له اني لست في الدار مع انك فيها وتجاهل امر تعرفه او التغاضي عن شيء تكره مشاهدته والتمارض السياسي الذي يتظاهر به بعض الساسة — كل ذلك من هذا القبيل، والمصانعة والمداهنة والرياء والتقية وان اختلفت اسماؤها فهي في الحقيقة لا تخرج عن حد الكذب ما دام الكذب هو الاخبار بشيء على خلاف ما هو عليه مع العلم به . فالمصانع والمداهن والمرائي جميعهم يقولون بخلاف ما يعتقدون وهو الكذب بعينه . والذين يستعملون التقية وهي اظهار خلاف ما يبطنهُ المتكلم دفعاً لضرر يظنونهُ لاحقاً بهم ان هم صارحوا بالحقيقة ليسوا سوى كذّابين ايضاً

فلماذا يرتكب الناس هذا النوع من الكذب ويرونَ من مواجهة الصراحة ولا يرون في ذلك غضاضة عليهم ولا حرجاً ؟ اليس لهم مندوحة عن الكذب بالعدول عنهُ الى ما يؤدي الغرض منهُ ؟ وهل هنالك حالات يفتقر فيها الكذب وما هي ؟ هذه قضية جديرة بالبحث والتمحيص لمساسها بناحية دقيقة من نواحي اخلاقنا الاجتماعية : ان الكذب هو بلا ريب من اقبح الخلال واوضعها ولهذا نهت عنهُ جميع الشرائع والأديان ومقتتهُ العقول وكفى بالكذب شيناً ومهانةً ان صاحبهُ

مردول محتقر لا يصدقهُ الناس ولو صدق . ولا حاجة بنا الى سرد ما قيل في شناعة الكذب والكذابين فذلك مما يطول شرحه وليس هو غرضنا من هذا المقال وانما نريد ان نعرض للكذب من حيث غرض الكاذب وغايته لنرى اتبرر الغاية الشريفة هذه الواسطة الوضيعة في نظر العقل والشرع وان برّرتها فما هو مدى هذه الغاية ؟

ان الشرع قد اجاز لنا ارتكاب بعض المنهيات للضرورة فاجاز للمضطر اكل مال الغير لدفع الجوع متى خشي الهلاك عملاً بالقاعدة الفقهية «الضرورات تبيح المحظورات» كما اجاز ارتكاب اخف المفسدتين واختيار اهون الشرين متى تعارضا فاباح لمن أكره بالقتل التكلم بالكفر مع اطمئنان قلبه بالايمان ولكنه مع ترخيصه بهذه المنهيات قد قيدها بالقدر الذي تندفع به الضرورة فنصّ على ان «الضرورات تقدر بقدرها» فلا يجوز للجائع ان يأكل من مال الغير الاّ بالقدر الذي يحفظ حياته ويدفع عنه الهلاك ومتى امكن دفع الضرر بالاخافة والتهديد او الضرب العادي فلا يسار الى دفعه بالقتل لأن القدر الزائد عن الضرورة محاور للاعتدال بل زائد عليه . فلا يسوغ لنا التجوز في الرخص وارتكاب ما نهى عنه الشرع في سبيل مصالحنا وشهواتنا تحت ستار الضرورة . وهكذا الكذب فهو وان كان حراماً إلاّ انه قد يباح في بعض الاحيان للضرورة متى كان في الجهر بالصدق خشية ضرر او فتنة اشد شرًّا من الكذب

***

يقول العلماء ان الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب او على غيره وربما كان واجباً في بعض الاحيان . ارأيت لو ان رجلاً سعى خلف آخر بالسيف ليقتله فدخل دارك فانتهى اليك الرجل يسألك هل رأيت فلاناً فاذا كنت قاتلاً ؟ الا تقول ما رأيته وهذا كذب ولكنهُ خير من الصدق بل واجب عليك لان فيه حقن دم

ذكر الامام الغزالي في كتابه احياء علوم الدين « ان الكلام وسيلة الى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن الوصول اليه بالصدق والكذب معاً فالكذب فيه حرام وان امكن التوصل اليهِ بالكذب دون الصدق فالكذب فيهِ مباح ان كان تحصيل ذلك المقصد مباحاً وواجب ان كان المقصود واجباً كما ان عصمة الدم واجبة . فمتى كان في الصدق سفك دم امرىء قد اختفى من ظالم فالكذب فيهِ واجب ومتى كان لا يتم مقصود الحرب او اصلاح ذات البين او استمالة قلب المجني عليهِ الا بكذب فالكذب مباح . الاّ انهُ ينبغي ان يحترز منهُ ما امكن لان الانسان اذا فتح باب الكذب على نفسهِ فيخشى ان يتداعى الى ما يستغني عنهُ والى ما لا يقتصر على حد الضرورة فيكون الكذب حراماً الاّ لضرورة . روي عن ام كلثوم قالت ما سمعت رسول الله (ص) يرخص في شيء من الكذب الاّ في ثلاث الرجل يقول القول يريد بهِ الاصلاح والرجل يقول القول في الحرب والرجل يحدث امرأتهُ

والمرأة تحدث زوجها . وقالت ايضاً قال رسول الله (ص) ليس بكذاب من اصلح بين اثنين فقال خيراً أو انمى خيراً . وروي عن ابي كاهل قال وقع بين اثنين من اصحاب النبي كلام حتى تصارما فلقيت احدهما فقلت مالك ولفلان فقد سمعتهُ يحسن حليك الثناء ثم لقيت الآخر فقلت لهُ مثل ذلك حتى استطلحا ثم قلت اهلكت نفسي واصلحت بين هذين فاخبرت النبي (ص) فقال يا أبا كاهل اصلح بين الناس ولو . . اي بالكذب

«فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء وفي معناها ما عداها اذا ارتبط به غرض مقصود صحيح للقائل او لغيره اما ما كان لهُ قتل ان يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله ان ينكره او يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة كانت بينهُ وبين الله تعالى فله ان ينكر ذلك فيقول ما زنيت وما سرقت وقال صلى الله عليه وسلم من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله وذلك ان اظهار الفاحشة فاحشة اخرى فللرجل ان يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلماً وعرضهُ بلسانهِ وان كان كاذباً واما الكذب لغرض غيره فبأن يسأل عن سر اخيهِ فلهُ ان ينكره وان يصلح بين اثنين وان يصلح بين الضرّات من نسائهِ بأن يظهر لكل واحدة انها احب اليهِ او يعتذر الى انسان وكان لا يطيب قلبهُ الاّ بانكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس ولكن الحد فيهِ ان يتقابل بين الكذب والصدق فيُميزان القسط فاذا ظهر له ان المحذور الذي يحصل بالصدق اشد وقعاً في الشرع من الكذب فله ان يكذب وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الشرع فيجب الصدق. وقد يتقابل الامران بحيث يتردد فيهما وعند ذلك الميل الى الصدق اولى لان الكذب يباح لضرورة او حاجة مهمة فان شك في كون الحاجة مهمة فالاصل التحريم فيرجع اليهِ . . ولكن بالنظر لنفس ادراك مراتب المقاصد ينبغي ان يحترز الانسان من الكذب ما أمكنهُ وكذلك متى كانت الحاجة له فيستحب له ان يترك اغراضه ويهجر الكذب فاما اذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز له المسامحة لحق الغير والاضرار بهِ . واكثر كذب الناس انما هو لحظوظ انفسهم ثم هو لزيادة المال والجاه والامور ليس فواتها محذوراً . . . »

فيظهر مما ذكره حجة الاسلام الغزالي ان الكذب قد رخص بهِ للضرورة في بعض المواطن دفعاً لضرر لا يمكن اجتنابهُ الاّ بالكذب فيباح حينئذٍ ولكن هذه الرخصة يجب ان لا تتعدى حدود الضرورة . وكان السلف يعدلون عن الكذب الى المعاريض ويرون فيها مندوحة عن الكذب عند ما يضطرون اليه ومثال التعريض انهُ اذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت ان تكذب تقول ان الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء فيكون قولك (ما) حرف نفي عند المستمع وعندك للابهام . وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر رضي الله عنهُ فلما رجع قالت له امرأتهُ ما جئت به مما يأتي به العمال الى اهلهم وما كان قد اتاها بشيء فقال كان عندي ضاغطاً قالت كنت ايباً عند رسول الله وعند ابي بكر فبعث عمر معك ضاغطاً وقمت بذلك بين النساء واشتكت عمر فلما بلغه دعا معاذاً وقال له ابعثت معك ضاغطاً قال ما اجد ما اعتذر به اليها إلاّ ذلك فضحك عمر واعطاه شيئاً فقال له ارضها به .

ومعنى قوله مائطاً يعني رقيباً وأراديه الله تعالى . وكان الشعبي اذا طلبه من يكره أن يخرج اليه وهو في الدار قال للجارية قولي له اطلبهُ في المسجد ولا تقولي ليس ههنا كيلا يكون كذباً . وكان الشعبي اذا طلب وهو في المنزل وهو يكره الخروج خط دائرة وقال للجارية ضعي اصبعك فيها وقولي ليس ههنا

وهذا كله في موضع الحاجة . وقالوا في ترجيه هذا النوع من المعاريض ان المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه الاّ ان ذلك مما تمس اليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الاحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر من الظلمة وفي قتال الاعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك فمن اضطرّ الى شيء من ذلك فهو صادق وان كان كلامه معها غير ما هو عليه لان الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق والدعاء اليه فلا ينظر الى صورته بل الى معناه ففي مثل هذه المواضع ينبغي ان يعدل الى المعاريض ما وجد اليه سبيلاً . وكان رسول الله (ص) اذا توجه الى سفر وري بغيره كي لا ينتهي خبره الى الاعداء وليس هذا من الكذب في شيء

وقد أباحوه أيضاً في المزاح لما فيه من المطايبة على ان لا يتجاوز حد الاعتدال . وكان النبي (ص) يمازح بعض الصحابة والصحابيات ولكنهُ لا يقول الاّ حقاً . روي عن الحسن أنهُ قال : أتت عجوز الى النبي (ص) فقالت يا رسول الله ادعُ لي بالمغفرة فقال لها : لا يدخل الجنة عجوز فبكت فتبسم وقال لها انك لست بعجوز يومئذٍ أما قرأت قوله تعالى « انّا أنشأناهنّ انشاءً فجعلناهنّ أبكاراً عرباً أتراباً » . فانظر الى هذا المزاح اللطيف الذي لا يخرج عن قول الحق ومثل النبي قادر أن يمزح ولا يقول الاّ حقاً . فأين هذا من مزاح بعض الناس الذين لا همّ لهم الاّ ان يضحكوا الناس من قولهم كيفما كان

ويغتفر الكذب في الشعر أيضاً عن طريق المبالغة حتى قالوا « أعذب الشعر أكذبه » . وقد أمر رسول الله (ص) حسان بن ثابت الانصاري بهجاء الكفار والتوسع في المدح فانهُ وان كان كذباً فلا يلتحق بالكذب الحرام كقول ابي تمام في وصف الخليفة المعتصم :

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

فان هذا عبارة عن الوصف بمنتهى الجود والسخاء فان لم يكن صاحبه سخياً كان كذباً وان كان سخياً فالمبالغة من صنعة الشعر . وقد أنشدت ابيات بين يدي رسول الله لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منهُ . قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله (ص) يخصف نعله وكنت جالسة اغزل فنظرت اليه فجعل جبينه يعرق وجعل عرقهُ يتولد نوراً قالت فبهت فنظر اليّ فقال مالك بهت فقلت يا رسول الله نظرت اليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نوراً ولو رآك ابو بكر الهذلي لعلم انك احق بشعره قال وما يقول قلت يقول :

واذا نظرت الى اسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قالت فوضع ما كان بيده وقام اليّ وقبل ما بين عينيّ وقال جزاك الله خيراً يا عائشة ما سررت مني كسروري منك . ولما قسم النبي (ص) الغنائم يوم حنين اعطى العباس بن مرداس جاريع فلاعص فاندفع يشكو في شعر وفي آخره :

وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم اقطعوا عني لسانه فذهب به ابو بكر الصديق حتى اختار مائة من الابل ثم رجع وهو من ارضى الناس فقال له النبي اتقول في الشعر ؟ فجعل يعتذر اليه ويقول بأبي انت وأمي اني لأجد للشعر دبيباً على لساني كدبيب النمل ثم يقرصني كما يقرص النحل فلا اجد بدًّا من قول الشعر فتبسم النبي وقال « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الابل الحنين » ومثل هذا كثير في اشعار العرب وغيرهم . فالمبالغة في الوصف تغتفر على شرط ان يكون في الموصوف بعض هذه الصفات

ومثل اطراء الممدوح في حفلات التكريم والتأبين . فانك تلاحظ في اقوال الخطباء اطراء يخرج عن حدود الحقيقة ولكن الناس يغتفرون ذلك ويرونهُ ضرورياً لتطييب قلب المحتفل به او مواساة لاهل الفقيد بل يعدونهُ من المجاملات الاجتماعية التي لا بدَّ منها . وكذلك تجاهل العارف هو في حقيقته كذب ولكنهُ من الصناعات الادبية في الادب العربي

***

ومن الكذب الممدوح ما يقصد به الايثار على النفس وهو نادر ويعد من مكارم الاخلاق كما فعل ذلك الانصاري الذي جاء الى النبي فوجد عنده ضيفاً ولم يكن عند النبي ما يقدمهُ الى ضيفه فذهب الانصاري بالضيف الى اهله ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يمد يده الى الطعام كأنهُ يأكل ولا يأكل حتى اكل الضيف الطعام . فلما اصبح قال له رسول الله لقد عجب الله من صنيعك الليلة الى ضيفكم ونزلت آية « ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » فيا حبذا الكذب من هذا النوع

هذا وان الناس قد فتحوا باب الكذب على مصراعيه وتجوزوا فيه في غير محال الضرورة حتى كاد يكون خلقاً من اخلاقنا الاجتماعية فاذا اردت ابتياع سلعة او استصناع حذاء مثلاً قال لك التاجر او الصانع ان رأس مالها كذا قرشاً وواحا يمزازان قولها بأغلظ الايمان وهما كاذبان في قولها وعينها وهكذا تغلغلت خصلة الجبن في نفوسنا حتى صارت عادة مستحكمة تصدر عنا عفواً وبلا تأمل كأنها من الغرائز الطبيعية . ولو حللنا عوامل هذه النقيصة الاخلاقية تحليلاً نفسيًّا لم نجد لها سبباً سوى الجبن او الانانية فالكذاب يقصد بكذبهِ سواء أكان صريحاً او عن طريق المصانعة او

المداهنة او الرياء او التقية الى اتقاء شر يخافه او جلب خير يرجوه وكلاهما يتلخصان بالخرف والانانية . نعم ان الحياة الاجتماعية قد تلجىء المرء في بعض الاحيان الى الكذب والمصانعة كما قال زهير بن ابي سلمى

ومن لم يصانع في امور كثيرة يضرَّس بأنياب ويوطأ بمنسم

إلاَّ ان ذلك يجب ان يقصر على مواطن الحاجة والضرورة وعلى الاحوال التي لا مندوحة فيها عن الكذب فلا يسوغ لنا ان نسرف فيه اسرافاً يخرجهُ عن هذا القدر ويصرفهُ عن مقصد الشارع في الترخيص به . فالكذب والمصانعة وما جرى مجراهما من ضروب المين بمثابة السم الذي يستعملهُ الطبيب لمعالجة بعض الامراض فان أعطى المريض منهُ مقداراً زائداً عن الحد المقدَّر لهُ طبًّا أودى بحياة المريض

وهكذا الكذب يخشى اذا نحن أسرفنا في التجوز به ان يوردنا موارد العطب والهلكة لا سيما وان تقدير مواطن الضرورة فيهِ من أدق الامور وأصعبها بل هو من مزالق الاقدام ولذلك كان السلف يحتاطون في الترخيص بهِ ويقولون لا يجوز للرجل ان يكذب لصلاح نفسه فما عجز الصدق عن اصلاحه كان الكذب أولى بفساده »

فيجب على قادة الرأي فينا من علماء وأدباء وكتَّاب ان يعالجوا هذا المرض الاخلاقي معالجة دقيقة ويصفوا لهُ الدواء الشافي او الواقي . ولعلَّ خير ما يصنعون ان يكثروا من المحاضرات والمقالات في هذا الصدد فعسى ان يكون من وراء ذلك ما يحقق الغرض من تقويم اعوجاج نفوسنا وتطهيرها مما علق بها من أدران وأوضار فنحن أحوج ما يكون الى تجدد أخلاقي يبنى عليه صرح نهضتنا القومية التي نسعى اليها . وكل رقيٍّ لا يشاد على أساس الفضائل الاخلاقية فمصيره السقوط والانهيار . ورحم الله القائل :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

تحريم السرقة

سئل الدكتور صروف ، رحمة الله عليهِ ، ما هي الادلة القاطعة على تحريم السرقة فقال :

التحريم أمرٌ دينيٌّ . والاديان تنهى عن السرقة . ولا دليل فوق ذلك . ولكن اذا اردتم الدليل على ضرر السرقة فالسارق قلَّما يُضَرُّ . والذي تسرق امواله يُضَرُّ غالباً بحرمانهِ مما هو لازم لمعيشتهِ وراحتهِ . ولكن الضرر الاكبر يقع على الجماعة التي تجيز السرقة لانها تفقد حق التملك الذي هو اساس العمران وتعود الى البداوة والفوضى

الاستشارة الطبية الدورية

أهميتها — فوائدها

للدكتور حسن كمال

---

١ — يعلم القراء أن الصحة هي اهم ما يدخره الانسان . وقد شبهها بعضهم بتاج على رؤوس الاصحاء لا يراه الا المرضى . ولا غرابة في ذلك فالجسم المعافى الخالي من الامراض الكامل النمو هو الاطول عمراً والاقدر على تحمل المشقات والاكفأ على ادارة الامور بحزم وجد ونشاط مع شعور بالراحة والطمأنينة والانشراح . والمثل يقول العقل السليم في الجسم السليم

٢ — وفي هذا الصدد يبدو لنا لاول وهلة سؤالان « كيف الوصول الى هذه الصحة ؟ وكيف نحافظ عليها اذا ما اهتدينا اليها ؟ الجواب عنهما يتلخص في ما يلي : —

اولاً : وقاية الجسم من العلل والسقام قبل ان تصل اليه

ثانياً : المبادرة بعلاج كل حالة مرضية تظهر في الجسم لأن الاختبار علمنا أن استئصال المرض في مبدئه سهل اذا قيس باستئصاله بعد تمكنه وتثبته وتجذره . سهل لانه لا يتطلب حينذاك عناء كبيراً . فقدار يسير من الدواء او اصلاح يسير في المسكن والملبس او تعديل خفيف في الغذاء يكفي لشفاء معظم الامراض المبتدئة فتقصر مدة المرض ويتفرغ الشخص لمهامه المعتادة وتعدم ابواب مصروفات المصلحة ويزول الهم والغم ويبقى الفرح والسرور

٣ — فاذا كان الامر كذلك — فما هي الطريقة التي تجمع بين وقاية الجسم من المرض حتى لا يصل اليه والشفاء منه بسرعة اذا ما تسرب اليه ؟ — الطريقة الوحيدة الناجعة هي الاستشارة الطبية الدورية . وربّ سائل يسأل : وما معنى الاستشارة الطبية الدورية التي تدعو اليها وتريد ان يتبعها الجمهور؟ الجواب عن ذلك ان المقصود بالاستشارة الطبية الدورية هو التردد على طبيبك الخاص وانت في حالة الصحة كي يفحصك . فاذا ما لاحظ عندك مرضاً مبتدئاً لا تعلمه أشار عليك بالدواء . أو لاحظ انك معرّض لبعض العلل من جهة ملبسك او مشربك او مأكلك او مسكنك أو مهنتك أشار عليك بالعمل اللازم حتى لا تقع فريسة لامراض الملابس الغير صحية او الطعام الذي لا يوافقك

او المسكن الذي لا يتفق مع حالة جسمك او الشغل الذي قد يؤثر في اعصابك او نظرك او سعدتك والمعروف ان درهم وقاية خير من قنطار علاج

وعليه فالاستشارة الطبية تعني اخذ رأي الطبيب . أما كلمة دورية فتعني الاستمرار في ذلك في مواعيد مناسبة او بعبارة اخرى في ادوار موافقة لحالة الجسم والسن

٤ — وأهم فوائد الاستشارة الطبية الدورية هي معرفة المرض في مبدئه . ومعلوم ان الامراض نوعان حاد ومزمن . فالحاد هو الذي يبدأ فجأة وبشدة ويكون عادة قصير المدة . أما المزمن فهو الذي يتخلف عادة من الحاد وهو طويل المدة قليل الشدة . هذان النوعان اذا شخصا في مبدئهما تمكن الطبيب من مكافحتهما ووصف الدواء لهما فتقصر مدتهما وتقل مضاعفاتهما ويخف تأثيرهما السيء في الجسم وعليه فمعرفة المرض عند ظهوره هو اهم عامل لضمان صحة الفرد والمجتمع

٥ — وقد اهتمت الدول الغربية بالاستشارة الطبية . ثم توسعت فيها فاباح بعضها التعقيم الجراحي فمن ينتظر ان يتركوا ذرية مريضة تكون عالة على المجتمع عديمة الفائدة للوطن فسبقوا في احتياطهم هذا ظهور الامراض في النسل

٦ — والاستشارة الطبية الدورية من أهم العوامل التي تُنَمّي معلومات الاطباء فهي لذلك مفيدة لهم افادتها للافراد . لانها تتطلب مهارة فنية ودقة كبيرة في معرفة الامراض المبتدئة . لذلك نجد أن كثيراً من الامراض يرجع الفضل في استئصاله او تخفيفه الى الاستشارة الطبية الدورية . ومن هذه الامراض السل والسرطان وهما مرضان خبيثان أصبحا الآن بفضل معرفتهما في مبدئهما أقل خطورة وأقرب الى الشفاء عن ذي قبل

٧ — متى يُبدأ بالاستشارة الطبية الدورية ومتى يُنتهى منها ؟ — الجواب ان هذه الاستشارة يُبدأ بها منذ الوضع ويُستمر فيها حتى الوفاة

٨ — ومن هو اجدر الناس بالقيام بهذا العمل ؟ — هو طبيب العائلة — لعدة اسباب منها (ا) إن اشراف الطبيب على افراد العائلة في اوقات الصحة يزيد كثيراً من عنايته بها أثناء المرض (ب) ان طبيب العائلة ادرى بأحوالها الصحية والمالية والمعاشية فهو لذلك اكفأ الاطباء في ادارة شؤونها الصحية بأسلوب ظريف كيس

٩ — وفي بعض البلدان كالولايات المتحدة قسائم مطبوعة للاستشارة الطبية الدورية يملأ خاناتها الطبيب الكشاف ويذكر بها الملاحظات والاعراض المهمة وقت الكشف ويحتفظ لنفسه بنسخة منها ويُعطي الطالب نسخة اخرى ينتفع بها وقت الحاجة

١٠ — وتتلخص الاستشارة الطبية الدورية في وزن الشخص (ولهذا مكانته عند الاطفال) وقياس الارتفاع ودرجة الحرارة والضغط الدموي وتحليل البول وفحص الهيكل العظمي والغدد الليمفاوية ووظائف الاعضاء وارتخاء العضلات وسلامة الجلد وحركات المفاصل . ومظاهر الجسم الخارجية . ولا يخفى ان الشكل الخارجي كثيراً ما يشير الى امراض كامنة ثم بفحص الرئتان والقلب والنبض . وتلاحظ العادات الضارة كالتدخين وتناول المشروبات الروحية . كذلك الامراض العائلية الوراثية . ثم تلاحظ درجة تعرض الشخص لامراض حرفته . ويفحص الفم للتأكد من سلامة الاسنان وحالة اللوزتين وكذا الانف والعينان

١١ — هكذا تمر الاستشارة الطبية كل جهاتنا المعاشية . وسأمشي مع حضراتكم على سبيل المثال . وافرض ان اسرة من الاسر اتفقت مع طبيبها الخاص ان يقوم بفحص افرادها الصغار كل ستة اشهر والكبار كل سنة بالمنزل تارة وبالعيادة تارة أخرى . مثل هذا الترتيب يزيل كثيراً من الكلفة بين الطبيب وافراد الاسرة مما يوسع نطاق اطلاعه على احوالها ويجعل لنصائحه منزلة محترمة عندها بصفة خاصة . ويمكنه ايضاً من الاشتراك معها في شعورها فيفرح لفرحها ويأسف لأسفها . إذن ماذا ينتظر من استشارة مثل هذا الطبيب دورياً — هذا هو السؤال الذي سأفسره لحضراتكم

١٢ — اول ما يتطرق الى ذهن الطبيب ان يلاحظ مسكن العائلة وان ينصحها باتخاذ مسكن كثير النوافذ تدخله الشمس له دورة مياه نظيفة

١٣ — بعد ذلك تأتي مسألة الخدم . فيفحصهم قبل التحاقهم بالعائلة كي يتأكد من عدم اصابتهم بامراض معدية او عاهات تمنعهم من أداء اعمالهم المطلوبة منهم

١٤ — ثم تأتي مسألة الاطفال . وهؤلاء يوزنون باستمرار لمراقبة نموهم . وطريقة تغذيتهم وتلاحظ ملابسهم ومحال نومهم . واعلموا حضراتكم ان كثيراً من امراض الاطفال يدركها الطبيب قبل ان تظهر للوالدين . من ذلك مرض لين العظام فان له اعراضاً مبدئية في الاضلاع ونهاية العظام يمكن الطبيب من معرفة الداء في بدايته فيصف لذلك الدواء والغذاء اللازم وتعالج الحالة قبل وضوحها . كذلك مرض احدى غدد العنق الذي تصحبه السمنة وخشونة الجلد وقلة النمو وظهور اعراض الكسل والخمول وبلادة التذكر يمكن تداركها في اولها بسهولة وهناك المرضعة التي يجب التأكد من خلوها من الامراض المعدية ومن جودة لبنها . هكذا تفيد الاستشارة الطبية الاطفال

١٥ — بعد ذلك تأتي مسألة تحصين العائلة ضد الامراض . كالتطعيم ضد الجدري والحصن ضد الدفتريا وخلافها كالحمى التيفودية . والطبيب هو الذي يرشد العائلة الى ذلك ويتولى تنفيذه . وهناك امراض كالحصبة يمكن حصرها في الطفل المصاب دون سواه عند ظهورها بحقن الآخرين بمصل يمنع اصابتهم او يخفف على الاقل . اليست كل هذه فوائد لا يستهان بها ؟

١٦ — والالعاب الرياضية ، التي اصبحت الزامية بمدارس بعض البلاد الغربية لما تحدثه من كمال النمو وزيادة مقاومة الجسم والنشاط وتعود النظام في الجلوس والوقوف والمشي واداء الاعمال اليومية . هذه الالعاب هي اهم ما يصفها الطبيب وهي على انواع بعضها يؤدى بالمدارس والبعض الآخر في الاندية الرياضية والمنازل

١٧ — وقد دلتنا التجربة والابحاث العديدة ان لطول الجسم ووزنه وشكل صدره علاقة ببعض الامراض وان الطبيب الكشاف يمكنه ان يصف العلاج والغذاء الذي يزيد في مقاومة الجسم ضد هذه الامراض . فالبدانة وقصر القامة وغلظ العنق كثيراً ما يصحبها زيادة الضغط الدموي . والطبيب الكشاف يراقب ذلك ويتبعه . كذلك الاصابة بالدرن لها علاقة كبيرة بشكل الصدر والطبيب الكشاف يقي مثل هذا الشخص من النزلات الصدرية وخلافه مما يمهد هذا المرض

١٨ — وهناك مسألة العينين التي يجب العناية بها لكثرة الرمد الحبيبي هنا وانتشار قصر البصر الطبيعي . كذلك الاسنان فان تلفها بسبب تقرحات اللسان والتهاب اللثة يحدث التهاب المفاصل المزمن وغيره . فالطبيب يرشد الشخص الى مثل هذه الامور في اولها

١٩ — ثم مرض الكلى والبول السكري كثيراً ما نشاهد اعراضها بالبول دون ان يشعر صاحبها بالمرض حتى يستفحل امره ويشتد ضرره . وعليه فمجرد تحليل البول باستمرار كثيراً ما يقي الشخص من ويلات هذين المرضين

٢٠ — هكذا تصبح الاستشارة الطبية الدورية درساً نافعاً لافراد العائلة منذ نعومة اظفارهم يفهمهم النافع من الضار ويعلمهم مبادىء علم الصحة ووظائف الاعضاء والحالات النفسانية المتنوعة او بعبارة اوجز يعلمهم قيمة الصحة . قال تعالى (وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) صدق الله العظيم

***

لوحظ في هذا المقال (١) الاختصار (٢) بساطة التعبير (٣) اجتناب المصطلحات الطبية

باب المراسلة والمناظرة

لا تقل كريات بيضاء [1]

١ : تخطئة رأي

نشر الاديب امين ظاهر خير الله مقالة في المقتطف (٨٧ : ٢٠٩) عنوانها : « أيقال كُريّات بيضاء ؟ » حاول فيها ان يثبت للقارىء جواز قول من يقول « كريات بيضاء » واورد لذلك شواهد لم تُثبت شيئاً مما توخاه من ردّه ، إذ جاءتنا بالفاظ هي اشباه جمع او أسماء جمع او اسماء جنس او احرف هي بين الافراد والجمع فتوهم فيها جماعة الافراد وتوهم فيها آخرون الجمع وفي مثل هذه الاحوال لا جدال في ان ينعت الموصوف بصفة مفردة او مجموعة

***

وأول شواهده « الكلم » بفتح فكسر وهذه اللفظة اختلف في حقيقتها : أهي جمع ام شبه جمع وللناس فيها مذاهب على كل حال فان مفردها « كلمة » فيجوز في وصفها الافراد او الجمع

وثانيها « الخشباء » فانها هنا منقولة الى الاسمية كما نقلوا الى الاسمية الخضراء والسمراء والورقاء الى اشباهها

وثالثها « الشيمة » فهي مفردة كما هي جمع حسبما توجه معناها ، ولذا توصف بالافراد كما توصف بالجمع . ومثل ذلك ما جاء في سورة الشعراء : « ان هؤلاء لشرذمة قليلون » فقد وصفها بالجمع لان مدلولها مجموع ويجوز لك ان تقول شرذمة قليلة لان لفظها مفرد مؤنث

ورابعها « كتيبة » شهباء « وفارسية » خضراء « وسمهرية » سمراء فهذه الفاظ كلها واسماؤها مفردة كما يجوز لك ان تقول انها مجموعة اذا نظرت الى معناها فهي كقولك شرذمة قليلون او شرذمة قليلة

وخامسها « اسم الجمع » ولا مشاحة في انهُ يوصف بالافراد كما يوصف بالجمع ومنهُ الآية في سورة المؤمنين : « فتقطّعوا امرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون » فيجوز لك ان تقول على رأي النحاة وكل حزب بما لديه فرح على التقدير الذي تريده

---

(١) ارسل الينا العلامة الاب انستاس ماري الكرملي ردّاً مسهباً على مقالة الاستاذ امين ظاهر خير الله نشرناه منه ما كان خاصاً بموضوع « كريات بيض وبيضاء وما جرى مجراها

وسادسها « كل فعلاء واردة لجموع » فات خير في ان تتست صفته بالافراد او بالجمع . وصحة ما جاء في ترجمة الاحنف التميمي وهي العبارة التي استشهد بها الاديب، أمين فقد نقلها بهذه الصورة (ص ٢١٢ من المقتطف) : « هذه الحمراء قد كثرت بين أظهر المسلمين ، وكثر عددهم (اي عدد الحمراء) وهي لفظة بصيغة الافراد ولكنها تعتبر جمعاً في المعنى ومفرداً في اللفظ . ولهذا تقول كثر عددهم وكثر عددها كما تشاء . والظاهر ان ابن ظاهر لم يفهم هذه الحقيقة فكتب بعد « عددهم » كلة (كذا) كأن ذلك غلط وليس هناك زلل

وسابعها « عرب عاربة وعرب عرباء » فات في الخبار في التذكير والتأنيث كما قلنا في شرذمة « قليلون وقليلة »

فهذه الشواهد لم تثبت لنا شيئاً وكنا نود ان يأتينا بلفظة مجموعة جمعاً صريحاً وصفتها الافراد ، فاذا اتانا بشاهد مثل نساء عمراء ورجال حمراء لقلنا لهُ اصبت ؛ لكنهُ جاءنا بألفاظ تحتمل الافراد والجمع فلم يفدنا الفائدة التي كنا نتوقعها من مقالته الطويلة العريضة وبطل الاستدلال بشواهده تلك العرج

٢ : الرأي الصحيح

لا مشاحة في ان أفْعَلَ ومؤنثها فعلاء اذا جاءت صفة لموصوف (لا موصوفاً) ودلّت على لون او عيب او حلية ، فان كلاً من افعل وفعلاء يجمع على فُعْل بضم فسكون ، وقد يجمع فُعْل على فُعْلان بضم ايضاً . تقول أحمر وحمراء وحمر وحمران . اسود وسوداء وسود وسودان . ابيض وبيضاء وبيض وبيضان الى آخر ماتقل عن فصحائهم . قال المبرّد في كتابه الكامل (ص ٣٣ من طبعة اوربة وفي ١ : ٢٧ من طبعة مطبعة التقدم العلمية بدرب الدليل بمصر سنة ١٣٢٣) : وايرقُ اذا عَنَيْتَ بهِ المكان مضارعة للاسماء لانها تدل على ذات الشيء ، وان كانت في الاصل نعتاً . تقول في جمعها الاباطح والابارق والادائم والاساود . فان اردت نعتاً محضاً يتبع المنعوت قلتَ : مررت بثياب سُود وبخيل دُهْم وكل ما اشبه هذا فهذا عمراء . . . » الى آخر ما قال فراجعهُ تَرَ في كلامه ما يسدّ افواه المتجادلين

واعاد مثل هذا القول في ص ٤٣٨ من طبعة اوربة و ٢ : ٥٨ من طبعة مصر وهذا نصه : « وأفْعل ، اذا كان نعتاً بنفسهِ فجمعهُ فُعْل نحو أحمر وحُمْر واسود وسود . واذا كان نعتاً فاجرى مجرى الاسماء فجمعهُ افاعل نحو أساود وأجادل وأدائم اذا اردت القيد لانهُ نَعْت غالب يجري مجرى الاسماء . وان اردت ادهم الذي هو نعت محض قلت : دُهْم . . . » الى آخر ماجاء هناك فيحسن بك ان تقف عليهِ لترد عنك هجمات العاثلين في البيداء بعيدين عن العيدي . ونحن لا نريد ان نزيد على هذا القدر لما في ذلك من الكلام على غير جدوى

٣ : الخلاصة

الخلاصة مما قلنا : انهُ لا يقال ادلة غراء ولا هضاب ملساء ولا شمائل حسناء ولا كريّات بيضاء إذ كلها اغلاط صريحة صارخة بمخطاها الى عنان السماء . والصراب صُرّ وملس وحسان (لان الحسناء هنا ليست بمؤنث الأحسن بل الحسَن وهذا خارج عن كلامنا) وكُريّات بيض ولا يجوز ابداً غير هذا بغداد الاب انستاس ماري الكرملي

***

أيقال كريات بيضاء

قلت يقال على انهُ نادر جدًّا والمسألة هي اني لقيت يوماً السيد مصطفى جواد في ادارة المقتطف فقلت له انت والاب انستاس تقولان انهُ لا يجوز قولنا بيضاء وحمراء والصراب بيض وحمر قال نعم فانهُ لا يجوز واتفق مجيء السيد عبد الرحيم بن محمود فقال لهم يجوز فقلت للسيد مصطفى ما هي ادلتك على ذلك فقال ان افعل وفعلاء اذا دلاّ على لوز او عيب فانهُ لا يقال في جمعها الاّ فُعل ثم اخذ يورد الآيات القرآنية دلالة على ذلك منها « صمٌّ بكمٌ عميٌ » الآية ومنها من الجبال جددٌ بيضٌ وحمرٌ مختلفٌ الوانها وغرابيب سودٌ الآية . واورد آيات اخرى فقلت ألم يأت في القرآن الكريم ما يثبت خلاف ذلك قال لا فقال السيد عبد الرحيم هذا صحيح وانما جاء في كلام العرب قولهم فعلاء لغت للجميع وانما الآن لا يحضرني امثلة على ذلك. ثم انصرف الاثنان وانا مقتنع ان ما ورد في القرآن الكريم هو الصواب دون غيره . اما الآن فبعد الادلة التي اوردها السيد امين ظاهر خيرالله فاني اقول انهُ يجوز قولنا كريات بيضاء وكريات حمراء على انهُ نادر جدًّا والافصح ان يقال بيض وحمر ومعاذ الله ان ازيف ادلة السيد امين وهو اللغوي النحرير وقد كان والده رحمهُ الله اماماً في اللغة وهو مشهور بيننا في لبنان . ولما كان الشيء بالشيء يذكر فاني كنت اخذت على اعضاء مجمع اللغة الملكي قولهم صماء وقلت الصراب صمٌّ ونشرت ذلك في المقتطف وهو منشور في مجلة المعهد الطبي العربي الجزء ٢ المجلد ١٠ فلما نشرت مقالتي المشار اليها بلغني ان المجمع قرر في ما قرره الموافقة على نقدي فقالوا الفدد الصمّ لا الفدد الصماء كما قالوا قبلاً . وسينشر ذلك في جزء المجلة الذي يصدر في شهر اكتوبر . ولو فرضنا انهُ يجوز قولنا صماء وبيضاء وحمراء فالافصح ان يقال صمٌّ وبيضٌ وحمرٌ فقد قضينا العمر في « هل يجوز او لا يجوز » فالحياة قصيرة جدًّا فالاصلح قضاءها في ما يكون اكثر فائدة لنا . اما الشرط الثاني للسيد امين وهو قوله ان يكون الرد نقيًّا من المطاعن فهو لا يشفي على ما اظن مصر الجديدة امين المعلوف

ارشاد لغوي

للأستاذ عبد الرحيم بن محمود

لفيف ثالث من أمراض وأعراض بوزن فُعال

إلى الاستاذ الباحث سالم خليل رزق في البك من سورية

﴿ الكُتاف ﴾ — وجع الكتف « Shoulder-Pain »

﴿ البُداء ﴾ — وجع اليد وقد يَبدىَ الانسان من يده اذا ذهبت « Amputation » والبُداء أيضاً يُبْس اليد « Ankylose of Hand »

﴿ الكُساح[1] او القُعاد ﴾ — وهو داء يُقْعِد من أصيب به من انسان أو حيوان « Rickets »

﴿ السُّلاق ﴾ — وله ثلاثة معان في اللغة العربية : — (١) بثر يخرج على أصل اللسان ويرادفهُ بالانكليزية « Glossitis » (٢) تقشّر في اصول الاسنان ومرادفه « Gingivitis » (٣) غلظ الأجفان في احمرار وقرّح ومرادفه « Conjunctivitis »

﴿ الصُلاق ﴾ — وجع الحلْق « Pharyngitis »

﴿ القُلاحُ ﴾ — سواد الاسنان ومرادفه بالانكليزية « Dental-Denigration »

والقُلاحُ أيضاً صفرة أو خضرة في الاسنان أو بينها أو أي تلوّن لها ومرادفه « Dental Coloration »

﴿ الهُناع ﴾ — فسّره اللغويون بأنهُ داء يصيب الانسان في عنقه وفي أصل المادة اللغوية هَنَع الشيء يهْنَعهُ هَنْعاً عطفه عطفاً وثنى بعضه على بعض فالداء المراد يثني الرقبة ويعطف بعضها على بعض وهو يحدث من تسوّس في عظام فقرات الرقبة كما يرى الطبيب سامي الياس وغيره من الاطباء ومرادفه بالانكليزية « Pott's Disea »

﴿ المُلاَل ﴾ — ورد في الملاغي لثلاثة معان أولها وجع الظهر ومرادفه « Lumbago » وثانيها عَرَق الحمّى ومرادفه « Perspiration » وثالثها تقلّب المريض وجعاً « Irritation »

﴿ القُدَادُ أو القُعَاع ﴾ — في اللغة وجع في البطن وتقطيع فيه وفي المادة اللغوية قَددْتُ الأديمَ اذا شققته طولاً وعا أرويه

وقددت الاديمَ راهشه وألفى قولها كذباً ومَيْنا

وتقضّع تقطع تمزّق والمرادف لكل من تين اللفظتين المترادفتين « Colic »

هذا وللطبيب سامي الياس شكر جمّ لعنايته باختيار الالفاظ الطبية المطابقة تمام المطابقة للالفاظ العربية

(١) الكساح داء في العظام ونشأ من نقص في الفيتامينات ويعالج بتوصيلها الى الجسم بجرعها في المأكل او الادوية وبالتعرض للاشعة فوق البنفسجية كما يرى الاطباء.

مكتبة المقتطف

علم الامراض الباطنية

الجزء الاول امراض الجهة الهضمية للدكتور حمدي صبح استاذ الامراض الهضمية والباطنية في المعهد الطبي العربي

هو كتاب آخر من الكتب النفيسة التي يتحفنا بها بين حين وآخر اساتذة المعهد الطبي بدمشق وقد كتبت قبلاً عن كتب اخرى من مؤلفات اساتذة المعهد وهذا احدها وهو لا يقل عن غيره من المؤلفات الاخرى في نفاسته ودقة بحثه. فلا عجب اذا جاء مثل غيره في سبكه في قالب عربي متين وفي مصطلحاته العربية فاذا اطلع عليه القارىء وجده كتاباً عربيًّا لا عجمة فيه لذلك سيكون نقدي له من وجهة المصطلحات لا من وجهة التأليف لانهُ بلا ريب آخر ما وصل اليه العلم في أيامنا

اما طبع الكتاب فحسن جدًّا وهو مطبوع في مطبعة الجامعة السورية في دمشق وحروفه جميلة وأظن الطبع يكون أحسن لو أكثر المؤلف من ضبط بعض الفاظه بالشكل الكامل مثل الأُسْر ويراد به احتباس البول حتى لا يلتبس بالأَسر مصدر أَسر والأُسري نسبة الى الأُسرة فان اشكالاً قليلة تزيد في محاسن الكتاب ولا تكلف عناء كثيراً وفيها فائدة كبيرة ولاسيما ان الكتاب مدرسي فوضع الشكل ضروري جدًّا في بعض الاحيان وهو يدل على شدة العناية في طبع الكتاب وابرازه

اما المصطلحات الطبية فحسنة جدًّا لا يفوقها شيء في جودتها فقد ذكرها المؤلف وذكر امامها الاسم الفرنسي بحروف مضبوطة واضحة ثم وضع جدولاً في آخر الكتاب فيه نحو الف وخمسمائة كلمة فيكاد يكون معجماً كاملاً ذكر فيه الالفاظ الطبية بالعربية والفرنسية . ومن محاسن الكتاب ان المؤلف ابتعد عن الخذلقة التي كثيراً ما يقع المؤلفون فيها فلم يذكر الاَّ كلمة واحدة عربية لما يقابل اللفظ الفرنسي حتى لا يضيع الطالب في كثرة الاسماء فلا يدري أيها يختار فكلمة واحدة تدلُّ على الاعتماد على النفس . فهذا المعجم على صغره افضل كثيراً من معجم كبير لا فائدة منهُ

على انني لا اوافق المؤلف في الفاظ قليلة جدًّا مثل البلغم واظن الصواب اللغة وأذكر مناقشة جرت بيني وبين الزميل الدكتور حمدي الخياط في هذه الكلمة فاللغة اعجمية كذلك البلغم ولا ارى وجهاً لتفضيل لفظ أعجمي على آخر أعجمي مثلهُ سوى ان الواحد قديم لكنهُ لا يؤدي المعنى تماماً . كذلك لا اوافقهُ على الغول واظن الالكحول احسن والحكمي واظن الطبيبي احسن وان شئت فقل الطبعي وهذه فيها شيء من الخذلقة . ولا اوافقهُ على الحبوي واظن الاحيائي احسن. ولو نسبنا الى الجمع . ولا اوافقهُ على الداء الافرنجي واظن السفلس او الحَلَق او الحلاق افضل فالحلق واردة في كتب اللغة لداءٍ يشبه السفلس وشائع في السودان لهذا الداء بعينهِ . ثم يقولون

فلان محلّق اي مصاب بالحَلَق . ولا ادري أسمّي بذلك لانهُ يصيب الناس في حلوقهم ام لان احد ادواره يشبه الحلق على ان الكلمة شائعة جدًّا ولا شبهة في انها افضل من الافرنجي لان قولنا الافرنجي فيهِ مساس ببعض الاقوام

فهذه الفاظ قليلة جدًّا أخالفهُ فيها ولعلَّ الصواب في جانبهِ او لعلَّ الالفاظ التي لا أوافقهُ فيها يكون ما ذكرهُ احسن كثيراً . ثم ان المؤلف ذكر في مقدمة الكتاب انهُ تمامٌ بالتركية فتجد الفاظاً تركية التركيب لا تسيغها القواعد العربية على ان المؤلف انتبه لها في آخر الكتاب واصلحها في التصويبات

وعلى كل فهذا الكتاب نفيس جدًّا لا يفرقهُ شيء في جودتهِ . فأهنئهُ المؤلف الفاضل على ابرازه لاننا في حاجة شديدة الى امثاله من الكتب الطبية التي يعتمد عليها سواء كان ذلك في لغتهِ او في مصطلحاتهِ

مصر الجديدة — امين المعلوف

الفن الاسلامي في مصر

للدكتور زكي محمد حسن

كنا الى عهد قريب لا نقرأ عن الفنون الفرعونية او الاسلامية الاَّ ما كتبهُ المؤلفون الاجانب فهم الذين تناولوا الحفريات في مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر وعنوا بوصفها في مؤلفاتهم النفيسة كما تخصصت جماعات منهم لدراسة الآثار المصرية في خلال الاعوام المائة الأخيرة فتسابقوا للكشف عن مخلفات ابناء النيل القدماء وتعمقوا في دراستها فكنا اذا اردنا ان نقرأ شيئاً عن الفنون او الآثار لم نجد ضالتنا الاَّ في كتب الاجانب فنستوحي ماقيها لنتعرَّف الى بلادنا

كان ذلك الى عهد قريب جدًّا لما بدأت الجامعة المصرية تُوفد من نجباء خريجيها من يتخصص في دراسة الفنون المصرية والاسلامية فأثمرت تلك الشجرة المباركة ووجدنا ضالتنا في المؤلفات الحديثة التي أخرجها ابناء الجامعة في الاعوام الاخيرة

نقول ذلك على ذكر ظهور الجزء الاول من الكتاب النفيس «الفن الاسلامي في مصر» الذي ألَّفهُ الدكتور زكي محمد حسن الأمين العلمي لدار الآثار العربية . وقد رأينا كتابهُ الاول «الطولونيون» منذ عامين

ولا يسعني في هذه العجالة القصيرة سوى القاء نظرة سريعة على هذا السفر النادر فقد قسَّم المؤلف بحثهُ الى قسمين . فتناول في القسم الاول نشأة الفن الطولوني في سامرَّا . وانتقالهُ الى مصر لما تولى احمد بن طولون حكم البلاد المصرية . ووصف لنا بوضوح العمارة الدينية والمدنية والحربية في عهد ذلك الملك المستقل . وصور لنا ما كانت عليهِ مدينة القطائع التي جعلها عاصمة ومقر ولايتهِ وحلَّل لنا بأسهاب تصميم جامعهِ العظيم وهو الاثر الاسلامي الذي ما زال حافظاً لرونقهِ كما شيدهُ مهندسهُ العراقي الذي قدم الى مصر في ركاب ابن طولون على ما يرجحهُ المؤلف

وفي القسم الثاني تناول المؤلف الكلام عن الفنون الزخرفية التي نشأت في مصر منذ الفتح العربي الى العصر الطولوني فتكلم عن المنسوجات والخزف على الخشب والخزف والتصوير الخ. ثم زين الكتاب بمجموعة نفيسة جداً من الصور النادرة التي جمعها من خلال دار الآثار العربية والمتاحف الاجنبية في برلين ولندن وباريز كما ابدعت مطبعة دار الكتب المصرية اخراج الكتاب بما يعد مثالاً كاملاً للذوق والاتقان

ويزيد الكتاب قدراً تلك الصفحات الست التي ذكر فيها الدكتور المصادر التي يجب على الدارس الاعتماد عليها اذا اراد التوسع في البحث وكلها مراجع طالما تيسرت لدى طلاب الفنون والآثار الاسلامية

واذا كان هناك ما نؤاخذ عليه المؤلف الفاضل فهو اغفاله التاريخ الهجري واقتصاره على التاريخ المسيحي وان بحثاً مثل هذا يجب ان يشمل التاريخين. كذلك اقتصاده في الكتابة عن جامع عمرو وقد رأى المؤلف انهُ لم تعد له قيمة كبيرة من الناحية المعمارية الاسلامية للزيادات العديدة التي غيرت معالم الجامع الاول. ولم يذكر المؤلف شيئاً عن كتاب الروضة الذي يعد اقدم اثر اسلامي في هذه البلاد

***

المعلم الجديد

مجلة تصدرها وزارة المعارف العراقية اربع مرات في السنة. العدد الثاني حزيران ١٩٣٥

رئيس تحريرها الدكتور متى عقراوي يساعده جماعة من الساتذة والسيدات

من شاء ان يعرف شيئاً عن النهضة العلمية في الدولة العراقية الفتية وشيئاً عن اخلاق العراقيين فما عليهِ الاَّ قراءة هذه المجلة وتصفح ما فيها لبعلم مقدار رقي تلك البلاد فقد قرأتها من اولها الى آخرها فرأيت فيها بياناً موجزاً لوزير المعارف معالي محمد رضا الشبيبي وهو اديب مشهور وعالم كبير من علمائهم وجه فيهِ خطابه الى موظفي المعارف وحثهم على ما يطلب منهم وهو بيان حقه ان يكتب بماء الذهب لما فيهِ من النصائح الرشيدة

ثم مقالة لمدير المعارف العام الدكتور محمد فاضل الجمالي بعنوان « في اهداف التعليم » في العراق وكنت اود ان ألخصهُ وانما سأقتبس شيئاً منهُ قال: « ان الهدف الرئيسي للتعليم يجب ان يكون خلق امة قوية موصوفة البنيان منيعة الجانب ذات مزايا شخصية ممتازة وذات استعداد مادي ومعنوي تستطيع ان تجاري امم الارض في مضمار التقدم والحضارة وتستطيع ان تقدم الى البشرية جمعاء ما عندها من مزايا مادية ومعنوية ولاجل ان تتوصل الى هذا الهدف يجب ان تتوافر فيها الشروط التالية »

ثم اخذ يسرد هذه الشروط واولها معرفة النفس وانهُ يجب على الطفل في المدرسة ان يتارس الاخلاق القومية ويتحلى بها وان النظام والاحتياط اساسيان في تقرية الامة وعمارتها لامم العالم. وقال في الامة العربية انكبرى انها امة ذات نزعة روحية. ثم ذكر صفات العربي ومنها عزة النفس

وابد الضيم والنفة والشجاعة والايثار والكرم والنهامة ، والمقالة كلها على هذه الصورة حث على المبادئ الصحيحة القويمة

ثم مقالة « في فتح طريق الحج البري الجديد » لحسن فهمي بك رئيس شعبة الادارة في مديرية الشرطة العامة . ومقالة اخرى « في طريق الحج البري » بقلم محمد درويش المقدادي مدير الثانوية المركزية وصف فيها هذا الطريق وصفاً مسهباً مستعيناً بما دوّنهُ الرحالة المستشرق موزل ومستشهداً بالذين كتبوا عنها مثل ابن خرداذبه وابن جبير وابن بطوطه . ويلاحظ في هذه المقالة ان المؤلف لم ينسب شيئاً الى نفسه بل ذكر الاسانيد كلها شأن العلماء المحققين اي انه لم يسرق شيئاً ومعاذ الله ان يفعل ذلك سرقة الادب داء استفحل امره في الشرق فجعله هذا كان قدوة لتلاميذه

ثم مقالة « في نظام المعارف في انكلترا وويلز » ترجمة بشير الياس اللوسي المدرس في الثانوية المركزية . ومقالة « في العرب واكتشاف اميركا » وهو بحث لعالم ألماني مترجم عن الفرنسية . ومقالة « في اهمية النهضة الصناعية والتربية الصناعية في العراق » لمحيي الدين يوسف مراقب التعليم الثانوي . ومقالة في « الادب الشعبي » للسيدة سارة الجلالي . ومقالة « في الاتجاهات الحديثة » في علم الحساب للدكتور داود القصير استاذ الرياضيات في دار المعلمين ومقالة « في صفات المدرسة الصحية » للدكتور شريف عيران استاذ الصحة في دار المعلمين الريفية ومقالة « في المدارس الابتدائية الريفية في ايطالية » وهي مقتبسة من مجلة العهد الجديد في البيت والمدرسة ومقالة « في اصل الانسان » لابراهيم شوكت مدرس الجغرافية بدار المعلمين الثانوية المركزية ومقالة مبتكرة « في المعارف العراقية في خمس عشرة سنة » للدكتور متي عقراوي بيّن فيها سير المعارف في العراق . ومقالة عنوانها « اوقات الفراغ نعمة ونقمة » لفاضل حسين المعلم في المدرسة الخيرية ببغداد ومقالة « في المدرسة واصلاح القرية » لعبد المجيد محمود مدير معارف لواء المنتفك ومقالة « في مكافحة الخرافات بتعليم العلوم » لحكمت عبد المجيد ملاحظ الترجمة والتأليف بوزارة المعارف

ثم يلي ذلك نقد الكتب منها الجغرافية المتوسطة وحياة محمد وعلم الحيوان وعلم الاجتماع ومقدمة التربية وقوانين الالعاب الاولمبية ومجلة المعلمين والمعلمات والشعلة والفتوة والتربية البدنية والكشافة

ونقد هذه الكتب نقد نزيه كما يجب ان يكون النقد بلا تحامل على المؤلفين ولا اطراء كما نجد نقد الكتب في كثير من المجلات . ويلاحظ ان بين هذه المجلات مجلة الفتوة فهي في غير معناها في الازبكية فالفتوة معناها مكارم الاخلاق لا ضرب العصي والتعدي على الناس . هذه هي الفتوة في العراق

والخلاصة ان هذه المجلة من انفس المجلات العربية فجميع المقالات التي فيها من الطبقة الاول فكلها ذات فائدة وحث على الاخلاق الكريمة . فأهنيء وزارة المعارف العراقية باصدارها

مصر الجديدة امين معلوف

كتاب فرناند لبريت

اغاني البحيرة

ظهر اخيراً ديوان من الشعر الفرنسي للاستاذين الشاعرين (فيرناند ليبريت) مفتش اللغة الفرنسية بوزارة المعارف والثاني للاستاذ (فيشتر) مدرس اللغة الفرنسية بمعهد الليسيه بالاسكندرية والديوانان لهما نفحة خاصة من الشعر المصري وفيهما طائفة شائقة من الخواطر عن مصر دعانا للحديث عنهما حث المطلعين بالادب الفرنسي من المصريين المثقفين على ترجمة هذه الآثار القيمة التي فيها روح جديد تدخل على الشعر العربي نواحي جديدة مستحبة وانني هنا اعبر تعبيراً بسيطاً عن استحقاق هذه الآثار من وجهة التخليد ولولا العجز لقمت بهذا الواجب الادبي الجسيم

يحملها اليّ حفيف الاشجار . وهمس الاصوات الخافتة . بل هذه الاصوات الناعمة التي يخمدت. ويحملها اليّ مع ذكريات الطفولة العذبة المؤثرة ومع الحزن الذي يوافق اعيادي . ان هذه الاصوات تكاد تسمعني خرير المياه المتدفقة على طيات الجرانيت في الحدائق العليا لبيوتنا القديمة في هذه الساعة التي يترك فيها النسيم شعاعاً ينسجيّ على اجفان العذارى الحائرة . وفي هذه اللحظات التي يتصاعد فيها بخور لهُ رائحة البذور الممزوجة بدم الشهداء . شهداء الحرب العالمية الكبرى في ساحات الوغى . ان اغاني البحيرة قد اودعت في نغمي زهيرات الماضي ، ومزجت بذاكرتي رائحة اشلاء الجثث البريئة يهب عليها نسيم حبيبتي الجميلة

تلقت كتاب (فرناند ليبريت) المحتوي على طائفة من القصائد الشعرية عن ثلاث نواحٍ . بعضها عن شباب الشاعر . وبعضها عن ذكرياته في الحرب الكبرى . والبقية الاخيرة تصور عاطفة الشاعر في تأثره بالحياة المصرية وتعبيره عن هذه الحياة باسلوب جذاب وخيال متمرد

ولقد تمكن ليبريت بدقة تصويره ورقة عاطفته ان يجعلنا نحيا ساعات مضت كانت سماء مصر فيها وردية حائلة اللون . لا تستطيع ان تجد لها شبيهاً اليوم الاّ لون خدود العذارى اللائي لا مسحة على سيمائهنّ من الزينة

تقول وقد اضرّ بها التنائي ... واقلق بالها صرفُ الزمان
تسمَّعْ يا مظلومُ رجاء نفسي ... كفاني ما اعانيه كفاني
أعِدْ لي بهجة العيش المولّي ... وايام الهناءة والتداني
قبين يديك كنت تركت امي ... وآرابي واودعت الاماني
تصورك الخيال وكنت وسنى ... فانساني خيالك ما دهاني
شعرت بكفه مسحت جبيني ... من الهم الملازم والهوان
لهي ان احلامي تناهت ... صفاني بالغ املي صفاني ؟

حشود الذكريات عليَّ تترى ومالي حين القاها بداني

لو قدرنا ان الموسيقى فن امتزاج الاصوات ليخرج منها مقطعات في مكنتها ان تنقلنا الى عالم آخر فيه نشوة ولذة يرتاح اليهما العقل وتسمو بمدارك الشعور . ولو قدرنا ان المصور هو الذي تنعكس في عينيه الاشياء والمعالم والصور بطريقة ذاتية فتخرج برنين مؤثر جذاب . يمكننا ان نؤكد انهُ لم يوجد اليوم في مصر — وقد لا يوجد — مصور ابهر او موسيقار أقدر من هذا الرجل ذي الملامح الحادة وذي الابتسامة الهادئة . الذي يهزنا شعره هزًّا عنيفاً ويجز في القلوب جزًّا . . . وتكاد اغانيه الشعرية تقبل كلها كالقافلة . من صحيح البيداء . تحفها التموجات الموسيقية الهادئة

احمد راسم

الفن في مصر

« المصورون والمثالون في مصر الحديثة » — تأليف الاستاذ موريك براون

لا يستطيع احد الاَّ ان يعترف بان مصر قد خطت في سبيل الحضارة والرقي خطوات واسعة شملت جميع نواحي الحياة فيها . ولكن ناحيةً منها لا يعرفها الجمهور معرفة حسنة مع انها ناحية مهدها وادي النيل وانشأتها على ضفافه ونعني بها فن التصوير وفن الحفر

ومن يتتبع حركة التطور الفكري والفني في مصر يمكنهُ ان يدرك المدى الذي بلغتهُ هذه الحركة فيها وتقدم ذوق الجمهور الفني . فقد كونت مصر لنفسها شخصية فنية يعتد بها ونجح المعهد الذي انشيء في القاهرة سنة ١٩٣٠ نجاحاً عظيماً حتى ان هيئة التعليم في مدرسة الفنون الجميلة المكونة من اعلام الفن المشهود لهم بطول الباع سواء في مصر او في ايطاليا او في فرنسا يعربون عن سرورهم بالنتائج التي يفوزون بها . وقد كثرت المعارض الفنية في القاهرة كثرة دلت على ما للمصورين المصريين من مواهب . وان مصر لتعقد عليهم الامل في ان يحيوا تراث اجدادهم وان يبرهنوا للعالم ان ارض الفراعنة لها مستقبل فني لا يقل عظمةً عن عظمة ماضيها الفني المجيد

ان الطبيعة والشمس في وادي النيل لا تكتفيان فقط بالهام الشعراء والكتاب بل تتغلغل وتصل الى اعماق نفس كل فنان فتبعث فيهِ ما يحرك قلمهُ او ريشته فيخرج لنا هذه الآيات الفنية التي نشاهدها في معارض القاهرة او في معارض روما او باريس

ولا بد لنا من ان نعترف بجميل اولئك الذين عضدوا هذه الحركة وعاونوا على احيائها بتشجيعهم لها تشجيعاً ماديًّا ومعنويًّا وعلى رأسهم صاحب الجلالة الملك فؤاد الاول الذي يبذل كل مجهود في سبيل رقي بلاده . كذلك لا يمكننا ان ننفي جمعية محبي الفنون حقها من الثناء على ما قامت به من تشجيع للفنانين وإمدادهم بالمال في ثبات ونظام . وان في عناية صاحب الجلالة الملك بافتتاح المعرض

السنوي الذي تقيمه الجمعية كل عام لاعتراف لهذه الجمعية بأفضالها على الفنون

وقد اخرج لنا المسيو « موريك بران » المدرس بكلية الآداب والسكرتير العام لجمعية محبي الثقافة الفرنسية سفراً نفيساً في هذا الموضوع درس فيه المظاهر العديدة لتقدم الفنون في قطرنا وفي هذا السفر الجليل وعنوانه « المصورون والمثالون في مصر الحديثة » جمع المؤلف ثلاث دراسات ومقدمة بقلم المسيو « اندريه دي لوموى » رئيس تحرير جريدة البورص اجبسين كما الحق به اربعة وعشرين صورة لاشهر المصورين في مصر :

***

وليست قيمة هذا السفر الذي وضعه المسيو « موريك بران » في استعراض الفنانين وما اخرجوا من آيات فنية وانتقادها انتقاداً صحيحاً بل هي في تحليله لها وبحثه عن مصادر الهام الفنان ووعيه اذ هو يشرح لنا شعور الفنان واحساسه ونظرته الى الفن وليس هذا بأيسر الامور

ولقد اثنى على هذا التحليل في مقدمة الكتاب المسيو « اندريه دي لوموى » فقال : ان المسيو « موريك بران » لم يفصل بين الفنان وما اخرج فهو قبل ان يشرع في انتقاد التحفة الفنية كان يدرس مصدرها ووحيها في شخصية الفنان ، في تكوينه وفي تعاذجه او فيما يعجب به . وقد كلل عمله بالنجاح دائماً »

وفي الواقع اننا عند ما نقرأ صفحات هذا الكتاب الجليل نفهم ابحاث التي حملت فنانين مثل « كلسيو انوشتي » او « ناجي » او « محمود سعيد » او « مختار » او « آيمي نمر » او « اندريسيان » او « منصور » او « زكي خليل » او غيرهم على التصوير او الحفر

ودراسة المسيو موريك بران للمصور « نيروني » دراسة واقية تعطينا فكرة واضحة دقيقة عن التحف الفنية التي اخرجها هذا الفنان الذي يتأثر بالطبيعة وبجمالها المختلف تأثراً قوياً فينقلها الينا في صوره الرائعة

والمسيو « موريك بران » لا يعتبر الفن مجرد نقل عن الطبيعة او تقليد لها وانما هو خلق وتعبير . فالواقع ان صور الفنان « نيروني » تعبر عن عوالم خيالية وبلاد جميلة لا تشاهد الا في الاحلام

كذلك اثنى المسيو موريك بران على المصور « فرج منصور » ثناء عظيماً فهو يعجب : كيف استطاع هذا الفنان ان يجمع بين التناسب في الخطوط والانسجام في الحجوم وبين العظمة والنبل والبساطة معاً . انه بعث الى طبقة الفنانين في عهد الفراعنة وقد تمكن بموهبة غريبة ان يجعل الاشكال الهندسية حية بل تخلق حياة »

وعلينا ان نثني على المسيو « موريك بران » وعلى كتابه هذا الجليل . فقد استطاع ان يبعث فينا الايمان بأبدية مجد مصر الفني

صبري فهمي

عمر بن ابي ربيعة

عصره وحياته وشعره

بقلم جبرائيل سليمان جبور — الجزء الاول (عمر بن أبي ربيعة) — ٢١٢ صفحة بحجم المقتطف — طبع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت

اذا ذكر الشعر الغزلي في الادب العربي برز اسم عمر بن ابي ربيعة من خلال القرون البعيدة التي مرّت على وفاته في مقدمة شعراء العربية قاطبة فهو حامل لواء هذا النوع من الشعر ، وهو مؤسس المدرسة الواقعية في الادب العربي وإن سبقهُ امرؤ القيس والنابغة الذبياني بقليل من الشعر كان بمثابة الاساس الذي أقام عليه عمر دعائم مدرسته . ولقد كان عصر هذا الشاعر من العصور الحافلة بالحوادث الهامة في تاريخ الامة العربية . كان عصر انقلاب وثورات وتغيير في نظام الحكم الشوري وتحوله الى حكم ملكي متوارث ، وكان لهذه التغييرات أثرها في وطن الشاعر وفعلها في شاعريته

وقد عالج الاستاذ جبرائيل سليمان جبّور أحد اساتذة الدائرة العربية في جامعة بيروت الاميركية هذه الشخصية بدراسة تحليلية تقع في ثلاثة اجزاء تبحث في عصره ، وحياته ، وشعره ، وأصدر منها الجزء الاول في عصر عمر بن أبي ربيعة في أسلوب بديع ينم على بصيرة نقّاده ونفّاذة وذهن منظم متمكن من موضوعه دارس له ملمّ بأطرافه

عرض المؤلف في هذا الجزء حالة العصر الذي عاش فيه هذا الشاعر من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعلمية والادبية ، وأبان عن مظاهر كل حياة من هذه بتوسّع وإحاطة ، وأظهر ما لكل منها من الاثر في الجوّ الذي عاش فيه عمر

واعطانا المؤلف في الحياة الاقتصادية صورة من أثر المال الذي أغدقه بنو امية على اشراف الحجاز ليصدّوا الشباب منهم عن إحداث الفتن ، ولينهوهم به عن التطلع الى المناصب والاعمال ، وليمدّوا لهم سبل اللهو والهوى ، فكان أن تغيرت الحياة الاجتماعية تغيراً رفع بالمرأة العربية الى حياة جديدة ، إذ أخذت النساء تلبس القمص الاسكندرانية الرقيقة والثياب الفوهية المعصفرة تكاد تشفّ عن اجسادهنّ — كما يروي الاصبهاني وابن عبد ربه — وجعل لمجالسهنّ روحاً غريبة يظهر أثرها في شعر عمر كقوله يصف حديثاً بين صاحبته ورفيقة لها :

وأشيبُ البرد عنك له كي تَشُوقه اذا نظرا

وقد توسع المؤلف في باب الحياة الاجتماعية فأظهر كل التطورات التي طرأت على الامة العربية ونقلتها الى دور جديد

ثم انتقل الى الحديث عن الحياة الدينية والعلمية فأبان ان التطور الاجتماعي بلهوه وانسه وعبثه وترفه لم يكن يمنع اهل الحجاز عن الالتفات الى الناحية الجدية من حياتهم والنظر في الانقلاب الديني العظيم نهض بمحزريهم تلك النهضة القوية برسالة النبي (صلعم) فقاموا بتدوين القرآن والحديث

والبحث فيما كان يقضي به رسول الله في بعض الامور ، وما يمارسه في بعض الفروض . وكان لهذه الحركة الدينية أثرها الكبير في عادات القوم واخلاقهم فألانت من طباعهم ، وظهر هذا الاثر في ادبهم فتأثر بكثير من تعابير القرآن ومعانيه وتراكيبه ، وكان اثر هذه كلها ظاهراً في شعر عمر ، في حين لم يكن فيه اثر للحياة العلمية البحتة كالطب والفلسفة والمنطق وما شابه ذلك ، اذ كانت هذه الحركة بعيدة عن الحجاز

وأما عن الحياة الادبية في ذلك العصر فقد اوضح المؤلف الظواهر الاربع التي تبدو للباحث بعد التطورات الجديدة التي طرأت على هذه الامة . وهذه الظواهر كانت هي الصبغة الغالبة على لون تلك الحياة . فالظاهرة الاولى هي شيوع الشعر عن النثر وقوته على البقاء اكثر منه . والظاهرة الثانية هي رواج الادب وخاصة الشعر وشدة الصلة بينه وبين عامة الناس الى درجة لم يبلغ اليها في عصر غير هذا العصر ؛ فلقد كان بعض الخلفاء والأمراء والولاة رواة للشعر ، محبّين لأهله ، نقّاداً له ، حكاماً بين قائليه . وكانت الظاهرة الثالثة الخصومة الأدبية التي قويت في هذا العصر فأنتجت أدباً خاصاً حتى طغت هذه الخصومة فكاد يقضي أصحابها على غيرهم من الشعراء ؛ وذكر المؤلف انواع هذه الخصومات وأثر الشعراء في الفتن

أما الظاهرة الأخيرة فكانت في إقليمية الأدب ، إذ كان يختلف أدب قطر عن قطر . وقد ضرب المؤلف الأمثلة على ذلك من أدب كل قطر حتى انتقل الى أدب الحجاز حيث كان يختلف هو الآخر باختلاف المدن ايضاً ؛ فكان في الطائف حيث الطبقة الارستقراطية المرحة العائشة للفروبة عن أعين العمال والرقباء غير ما كان في المدينة مسرح المغنين الجواري حيث فشا المجون . وكان في مكة — مقام عمر — غيره في هاتين المدينتين ؛ إذ كانت حياة الدعابة والعبث واللهو في مكة مقرونة بشيء من التحفظ والحيطة فلم يتفوّ العبث فيها ولم ينتشر المجون ، وكان شعرهم بالرغم من إباحيته يبدو وعليه مسحة من العفة ، وهناك تصدر الوصافة عمر بن أبي ربيعة . وكما كانت هذه هي أون الشعر في هذه المدن الثلاث كان في بادية الحجاز ذا لون آخر حيث مال الكثير من شعرائه الى التقوى والعفة والطهر وعُرفوا بالحب العذري كما يبدو في شعر جميل وإن تلوّن بعض شعرهم بألوان الآخرين للاشتراك معهم في مواسم لهوهم من ناحية ، ولشيوع من اللهو يُسّر لهم في موطنهم فبدت صورته في اشعارهم

هذه كلمة سريعة عن هذا الكتاب تدل على الجهد الذي بذله المؤلف والنجاح الذي اصابه . وكان بودنا أن ينبه المؤلف الى الخطأ الذي وقع في عنواني الكتاب — الرئيسي والفرعي — حيث وضع الخطّاط ألفاً (لابن) وهي بين اسمين ، وحرّك الكلمة تنسها في مكان آخر بالضمّ وهي في موضع الجر في جملة (عصر ابن ربيعة) حتى لا تعدم مثل هذه الاخطاء نظر القارىء في غلاف الكتاب

حسن كامل الصيرفي

خصائص اللغة العربية

تأليف حبيب بك غزالة — صفحاته ٣٢ من القطع الكبير — طبع بالمطبعة المصرية بمصر

رسالة نفيسة وفق حبيب بك غزالة في تصنيفها ووضعها كل التوفيق ، وهي عبارة عن بحث في اللغة العربية الفصحى والعامية ، وما يقابل خصائص الفصحى في غيرها من اللغات الأفرنجية ، وتجلية ما امتازت به هذه اللغة من غزارة المادة وأساليب البلاغة والبيان ، وأتى بخلاصة وافية لآراء بعض العلماء والائمة في اللغة مثل جلال الدين السيوطي والجواليقي وغيرهما ، وأبان ما امتازت به اللغة من الخصائص فشرح المترادفات والجملة الاعتراضية والتصريف وغيره واظهر فضل الحروف الهجائية وخصائصها وما يقابلها في الحروف الأفرنجية

وختم رسالته بفصل ممتع عن اللغات العربية العامية واظهر ان اللغة العربية لم يصبها ما اصاب غيرها من اللغات من التغيير والتحويل ، وما عراها من الشوائب لم يغيّر شيئاً من جوهرها ، وحصر هذه الشوائب في ست نقط وشرحها باسهاب . فيجدر بجماعة المتأدبين وطلبة المدارس الثانوية ان يطالعوا هذه الرسالة التي تضم بين دفتيها فوائد جمة

مطبوعات جديدة

ضاق نطاق باب مكتبة المقتطف عن النظر في معظم الكتب التي وردتنا وفيما يلي بيان بالمطبوعات الحديثة التي سوف تنظر فيها في الشهر القادم وما يليه

الزراعة العلمية الحديثة — للامير مصطفى الشهابي
الاسلام الصحيح — لمحمد اسعاف النشاشيبي
تطور النثر العربي — للاستاذ انيس المقدسي
القاهرة الجزء الثاني — للملازم الاول عبد الرحمن زكي
السودان في ثلاثة مجلدات — لعبد الله حسين
المقدس : الجزء الاول — لنقولا الحداد
افلاطون الى ابن سينا : للدكتور جميل صليبا
المفصل : لاحمد عطية الايراشي

اوراق البردي العربية : للاستاذ ادولف جروهمان
النجوم الزاهرة الجزء الخامس للاتابكي
نهاية الأرب السفر الحادي عشر للنويري
الاغاني الجزء السادس والسابع للاصفهاني
وادي النطرون لسمو الامير عمر طوسون
اليزيدية قديماً وحديثاً لاسماعيل بك جول
قصص جغرافية للاطفال — لكامل كيلاني
تاريخ اوربا والمسألة الشرقية لجورج حداد

باب الأخبار العلمية

مؤتمر المستشرقين لسنة ١٩٣٥

عقد مؤتمر المستشرقين هذه السنة في روما من يوم ٢٣ سبتمبر الى ٢٩ منهُ

والمعلوم أن هذا المؤتمر يأتي اليهِ العلماء المشتغلون بالمشرقيات ليتعارفوا ويتفاوضوا ويحاضروا ، والمشرقيات تعم الصين واليابان والهند وجميع البلدان الشرقية قديمة وحديثة وكلامنا هنا مما يختص بالاسلام ذلك بانّا لم نستطع الاّ مراقبة ما جرى في شأنه

الحق انّ عدد المشتغلين بالاسلام الذين وفدوا الى المؤتمر لم يكن بالكثير ، ومما لاحظنا انهُ ما من انجليزي اتى من بلاده وان هولنديًّا واحداً جاء الى روما. وقد نسب الناس ذلك الى الخلاف الذي بين انجلترا وايطاليا ثم الى استعداد هذه للحرب . واما مصر فقد مثلها الدكتور طه حسين والاستاذ مصطفى عبد الرازق خير تمثيل

ان عدد الذين حاضروا يبلغ زهاء عشرين وقد وقعت طائفة من المحاضرات موقعاً حسناً نذكر منها محاضرة الاستاذ طه حسين باللغة الفرنسية في « بعض ملاحظات على كتاب البديع لابن المعتز » جاء فيها باستدراكات لبقة على ذلك الكتاب الذي طبعهُ المستشرق الروسي كراتشكوفسكي . ومحاضرة الاستاذ (الالماني) تيشنر Taeschner في «خط الصوفية في تأليف جماعات القتوة» ، ومحاضرة الاستاذ (الانجليزي من اورشليم) فيشيل Fischel في « الادارة المالية ايام العباسيين » ، ومحاضرة الاستاذ (الايطالي) جويدي Guidi في « اليزيدية » ، ومحاضرة الاستاذ (الفرنسي) ماسينون Massignon في « العناصر الاسماعيلية في شعر المتنبي » ، ومحاضرة الدكتور بشر فارس باللغة الفرنسية في « مكارم الاخلاق الاسلامية » ، ومحاضرة الاستاذ (الفرنسي) ماسيه Massé في « الشياطين والجن في معتقدات ايران الشعبية » ، ومحاضرة الاستاذ الايطالي نلينو في الطبعة الحديثة لتاريخ المسلمين للمستشرق اماري Amari ومحاضرة الاستاذ (الفرنسي) بيريس Pérès في « الحب الرقيق والحب العذري في الاندلس في القرن الحادي عشر »

وختمت المحاضرات بمناقشة كادت تكون حادة دارت حول توحيد اسلوب رسم الحروف العربية بالحروف اللاتينية . وكان الاستاذ (الالماني) بروكلمان Brockelmann صاحب كتاب تاريخ الآداب العربية قد قدم اقتراحاً بهذا فاجتمع العلماء لبحثه وكانوا يناقشون الاستاذ بروكلمان في التفاصيل فيرد عليهم لرجل ردًّا سديداً مقنعاً تارة بالفرنسية واخرى بالانجليزية واخرى بالالمانية فدلّ على براعته وقوة حجته

ومما تأخذ على مثل هذه المؤتمرات ان المستشرقين يلقون محاضراتهم بلغاتهم المختلفة اي بالانجليزية والالمانية والفرنسية والايطالية والاسبانية والحق ان المشتغل بالشرقيات يلبغي

له ان يعرف هذه الفقات . الاّ ان معرفة لغة اي القدرة على فهمها قراءةً لا تستوجب القدرة على نهجها سماعاً ولا سيما ان المحاضرين يسرعون في الكلام اسراعاً واذا اتفق لهم أن يخفضوا الصوت أو ان يخفوا مخارج الكلمات . فلِمَ لا تلقى المحاضرات باحدى هاتين اللغتين الشائعتين البيّنتين في آن اي الفرنسية والانجليزية ؟ وهنالك مأخذ آخر . ذلك ان معظم المحاضرين في هذا المؤتمر جاوزوا المدة التي ضُربت وهي عشرون دقيقة ، فترتب على هذا خلل في مواعيد المحاضرات الاخرى . ومما يذكر هنا ان الشرقيين الذين حاضروا — وقد تقدم اسماؤهم — لم يجاوزوا تلك المدة

وبعد انقضاء المؤتمر بما فيه من محاضرات ومناقشات وزيارات دبّرتها الحكومة الايطالية قرّر رئيس قرّر أن مؤتمر المستشرقين المقبل سيعقد بعد سنتين او ثلاث او اربع في برو كسيل عاصمة البلجيك . وكان اقترح بعضهم مصراً فأعرضت الآذان لاسباب نكره ان نذكرها م

هل حقن الاكسجين ينقذ حياة الغرقى

يؤخذ من مباحث طبيب هندي يدعى الدكتور سنج يقوم بمباحث طبية طبية في جامعة كمبردج احياناً وكلية رانغون الطبية احياناً اخرى ان حقن الاكسجين في العروق قد يكون السبيل لانقاذ حياة الغرقى او المصابين بنوع خاص من النزلة الشعبية او غيرها من الحالات التي يصعب فيها التنفس على المريض

فقد تمكن هذا الطبيب من الاحتفاظ بكلب حيًّا مدة ١٦ دقيقة بحقنه بهذه الحقن مع ان الكلب ظلّ خلال هذه المدة لا يتنفس الاكسجين من طريق الرئتين . وكان ضغط الاكسجين المحقون في العروق ثلاثة اجزاء . ولولا خطأ في اسلوب الحقن لاستمرت التجربة اكثر من ١٦ دقيقة . وقد نشرت مجلة اللانست الطبية هذا النبأ وعلقت عليه بمقال افتتاحي . والخطوة التالية هي تطبيق هذه التجربة على الناس

تصحيح خطأ

في الصفحة الثانية من السطر ١٦ من محاضرة الدكتور شوشة بك عبارة : ومقدار الغاز يحسب بالمليغرامات في سنتمتر مكعب . وصحتها المتر المكعب . وفي خريطة افريقيا وتقسيمها السامي التي سدّرنا بها العدد الجمل المصور وضع العلم المصري الى جانب العلم البريطاني في السودان فاقتضى التنبيه

العناية بالصحة الشخصية

بقية المنشور على الصفحة ٥٠٨

٩ — ﴿ المأكل . الموائد . والمقاعد ﴾ : زيادة في النظافة ومحافظة على هندام الملبس وقوام الجسم ونشاطة ابتكر المصريون الموائد والمقاعد. كما انهم استعملوا الملاعق . وهذه الادوات مع الاطباق والكوبات تعتبر من اسس الصحة في المأكل والشرب لانها عامل مهم كفيل بمنع انتشار الامراض بين الآكلين . وبعد تناول الشراب اعتاد القوم ان يمسحوا افواههم بالفوطة الكثيرة الشبه بالحرمة الحديثة وان يتقدم الخادم بها قائلاً « شفاء وعافية »

١٠ — ﴿ الرياضة البدنية ﴾ عني بها المصريون القدماء عناية عظيمة . وقد فصلنا الموضوع في محاضرة سبق لمقتطف ان نشرها

١١ — ﴿ المظلات ﴾ كنا نعرف شدة

حرارة الصيف في مصر وعظم الحاجة الى الوقاية من الحرارها . والى عهد قريب كان المعروف ان للظلات ابتكار حديث لكن الآثار اظهرت لنا انها مصرية قديمة كما يشاهد في الرسوم المرفقة . وهي على نوعين نوع بسيط فطري عبارة عن درع كبيرة يحمله تابع ونوع مستدير مرفوع على قائمة يثبت احياناً في المجلاب لوقاية الراكب من حرارة الشمس . وهذا الاخير كثير الشبه بالشمسية الحديثة . ومقبرة توت عنخ امون تحوي مظلة كبيرة من هذا الشكل كان جلالته يجلس تحتها وهي منسوبة الآن في دار تحف القاهرة

١٢ — ﴿ دورة المياه ﴾ استعمل القوم الماء البارد والدافيء للاستحمام . وفي عهد المملكة الحديثة (١٥٥٥ — ٧١٢ ق. م) كان كل منزل يحوي حجرة حمام وحجرة مرحاض . والاثنتان ملاصقتان لحجرة الزينة او مجاورتان لحجر النوم وارضهما وجدرانهما مكسوة بالبلاط الجيري المصقول. وتحوي حجرة الحمام حوضاً للاستحمام (ارمان ص ٢٠١ كتابه عن مصر) شبيهاً بما هو مستعمل الآن يقف فيه الشخص ويصب عليه الماء من اعلى بواسطة خادم مختبيء وراء حجاب . اما المراحض فتتكون من مقعد مقعر قليلاً لراحة الجالس مصنوع من الحجر الجيري المصقول مفتوح فتحة مستطيلة كالمراحيض الحديثة . وهذا المقعد مرفوع على جدارين صغيرين وعلى جانبي المقعد مربعان صغيران مملوآن وملآ يرمى به بواسطة مغرفة على المواد البرازية لتغطيتها[1] وحجرة الزينة « التوالیت » الملاصقة لحجرة الحمام والمراحيض كلها منحوتة بالحجر الابيض الناصع اظهاراً لنظافتها . وتخصيص امكنة لكل من الحمام والمراحيض وحجرات الزينة وهذه كلها على مبلغ رقي القوم وتنسق ونظرة كبيرة نحو تدبير صحة المنزل

***

اما الصابون فلم يكن مستعملاً عند قدماء المصريين . واقدم ما عثر عليه هو في مدينة بومباي (Pompei) . وروى اليوناني Antimachus ان اليونان تعلموا صناعة الصابون من الرومان . ولا يبعد ان يكون المصريون استعملوا النطرون (ملح مسحوق النتر) لنظافة اجسامهم كما كان مستعملاً الى عهد قريب

١٣ — ﴿ حجرة النوم ﴾ المنازل الراقية تحوي حجرات خاصة للنوم . ولكل فرد منها سرير مورد في الآثار رسم لحجرة نوم تحوي سريراً لكبير وثلاثة اسرة لاطفال . وكل سرير يحوي وسادة ذات مسند « مسند للرأس كما هو واضح بالرسم. كل هذه الاجراءات تكفل الراحة في النوم لكل فرد وتمنع العدوى بين افراد العائلة (ارمان عن مصر)

١٤ — ﴿ الحشرات المنزلية ﴾ اهتم المصريون بابعاد هذه الحشرات عنهم محافظة على صحتهم وعلى ما كرلاتهم فاوردوا الوصفات لابادة البراغيث برش ماء النطرون « ايبرس ٧٥٠ — ٨٤٠ » ووصفات لمنع لدغ النحل « ايبرس ٨٤٥ — ٨٤٦ » واخرى لابعاد الثيران « ايبرس ٨٤٧ » كما اهتموا ايضاً بتعطير منازلهم وملابسهم « ايبرس ٨٥٢ »

(١) مجلة الجمعية المصرية سنة ١٩٢٣

الجزء الرابع من المجلد السابع والثمانين

٣٩٣ المنخرات الحربية والبحث العلمي
٣٩٩ الغازات الحربية : للدكتور علي توفيق شوشه بك (مصورة)
٤٠٩ الشاعر والمرأة (قصيدة) : لعلي محمود طه
٤١١ تحدب الفضاء : لنقولا الحداد
٤١٨ النشوء والارتقاء (قصيدة) : لعبد الرحمن شكري
٤١٩ غزل المتنبي : لخليل شيبوب
٤٢٨ آراء الباحثين في أصل الشعور الديني : للدكتور عبد الرحمن شهبندر
٤٣٤ العناية بالصحة الشخصية في العهد الفرعوني : للدكتور حسن كمال
٤٤١ تحديد الادب : لحليم متري
٤٤٧ المعادن والتبعات الدولية
٤٥١ تأثير العلم في الفلسفة الحديثة والفكر الحديث : لطه الباقر
٤٥٨ مقام دراسة الشرق في معاهد الولايات المتحدة الاميركية : لادورد جرجي
٤٦٢ الاسطول والبحرية ايام محمد علي : للدكتور علي مظهر
٤٦٧ هي الدنيا (قصيدة) : لرشيد ايوب
٤٦٨ مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي
٤٧٣ سير الزمان * قناة السويس : للملازم الاول عبد الرحمن زكي . طبيعة الحبشة الجغرافية : ملخص فصل للسير سكتا . ملخص تاريخي لصلة الحبشة باوروبا . الدستور السوفياتي : للاستاذ وليم بنت مترو
٤٩٧ التربية الاجتماعية والصحية * متى يفتقر الكذب : لشاكر الحنبلي . تحريم السرقة . الاستشارة الطبية الدورية : للدكتور حسن كمال

٥٠٧ المراسلة والمناظرة * لا تقل كربات بيضاء : للاب الكرملي . أيقال كربات بيضاء : للدكتور امين بك المعلوف . ارشاد لغوي : للاستاذ عبد الرحيم بن محمود
٥٠٧ مكتبة المقتطف * علم الامراض الباطنية . الفن الاسلامي في مصر . المعلم الجديد . كتاب فرنانديريت . اغاني البحيرة . الفن في مصر . عمر بن ابي ربيعة . خصائص اللغة العربية . * مجموعات جديد
٥٢١ باب الاخبار العلمية * مؤتمر المستشرقين لسنة ١٩٣٥ . هل حقن الاكسجين بتقدم حياة الفرق

أبدع مثال للجمال المصرى القديم
— تمثال الملكة نفرتيتي —